



دری فی خشبة

اللاونديسة

لشاعر الخلود « هوميروس »



دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفيجالة - القاهرة

إلى أليونان الخالدة
أهدى هذه النفحة من هوميروس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

وهذه هي قصة الأوديسة ، وبطلها أوديسيوس ، أو أوليسيس ، أو عولس كما يسميه الشرقيون .

وقصة الأوديسة ملحمة متفرعة من قصة حروب طروادة ، تلك الحروب الطويلة القديمة التي نشبت بين جيوش دول المدن اليونانية وبين جيوش طروادة^(١) وحلفائها من آسيا الصغرى في ذلك الوقت ، وسببها هو ما ذكرناه في قصة الإلياذة ، إذ نزل باريس بن الملك پريام ملك طروادة ضيفاً على الملك منلوس ملك أسبارطة فلم يلبث أن سرق زوجته وكنوزه وفر إلى طروادة فنشبت الحرب التي دامت عشر سنوات حتى استطاعت الجيوش اليونانية اقتحام المدينة بفضل الحيلة التي أشار بها أوديسيوس بطل قصة الأوديسة وهي حيلة الحصان الخشبي الضخم الذي اختبأت فيه نخبة من أشجع فرسان الجيش اليوناني .. مما هو مذكور في قصة حروب طروادة .

وقصة الأوديسة هي إحدى الملاحم التي نظمها الشاعر الأعمى هوميروس في تاريخ تلك الحروب الطويلة المريعة .. ولم يبق من تلك الملاحم إلا قصة الإلياذة ، وهي تاريخ السنة العاشرة من تلك الحروب أما قصة الأوديسة فتروى ما حدث لبطلها أوديسيوس بعد انتهاء حرب طروادة وذلك في طريق عودته بجرأاً من طروادة إلى مملكته إيثاكا .. لقد لقي أوديسيوس من المتاعب ، وخاصة من المغامرات ، شيئاً كثيراً وقاسى من الأهوال ما نقرأ تفصيلاته في تلك الملحمة . . أى القصة التي يتحدث فيها الشاعر عن ألوان البطولة والقوة والحب والحرب ومواجهة الظروف القاسية التي لا يصبر عليها إلا أشجع الشجعان .

(١) طروادة مدينة قديمة على بوغار الدردنيل في الشاطئ الآسيوي .

والقصة تروى أن بنلوب ملكة إيثاكا وزوجة البطل أوديسيوس كانت امرأة عظيمة نبيلة وعلى قسط كبير من الجمال . وكان لها ابن واحد اسمه تليماك - أو تليماخوس - كان لا يزال صبيّاً صغيراً في أول القصة . وأن ملوك اليونان الأقوياء الظالمين لما رأوا أن أوديسيوس قد تأخر عن العودة إلى بلاده . وطالت السنون والأيام ولم يعد إليها ظنوا أنه قد مات أو غرق . فطمع كل منهم في الزواج من بنلوب الجميلة . وأقدموا يخطبونها ، لكن بنلوب الوفية الطاهرة كانت تردهم رداً جميلاً . وتعدّهم أنها حينما تفرغ من نسج ثوب تظاهرت بالعمل فيه على منسجها فسوف تنظر في خطبتهم لتختار من بينهم زوجاً لها بدلاً من أوديسيوس ، وهى إنما كانت تحتال بتلك الحيلة عسى أن يكون زوجها لا يزال حياً وعسى أن يعود ليحارب هؤلاء الملوك السمجاء الذين أقبلوا من بلادهم وحاصروا قصر بنلوب ولم يشاؤوا الانصراف عنه حتى تختارها زوجاً منهم .

ويحسن هنا أن نذكر أن معظم الأمم القديمة كانت أمماً وثنية . ولم يكونوا يعبدون إلهاً واحداً ، بل كانوا يعبدون آلهة متعددة ، وكان اليونانيون بالمثل يعبدون مئات من تلك الآلهة التى كان كبيرها زيوس ، رب السماء والأرض والصواعق في نظر اليونانيين ، ثم أخوه نبتيون ، أو بوسيدون ، رب البحار ، ثم أخوه بلوتو أو هيدز أو حادس رب الموتى والدار الآخرة ؛ وكان لزويوس زوجات كثيرات أنجب منهن ابنه أبولو رب الشمس وديانا ربة القمر ميرفا ربة الريح والحكمة والعدالة وأرباباً كثيرين غير هؤلاء سوف نلقاهم في هذه القصة كما لقيناهم في قصة الإلياذة وسوف نضحك كثيراً على سخافتهم .

ومن العجب أن هؤلاء الأرباب الأغبياء قد انقسموا على أنفسهم في تلك الحروب المهلكة ، فبعضهم كان يؤيد أهل طروادة ضد اليونانيين ، وبعضهم كان يؤيد اليونانيين ضد أهل طروادة .

وقد كانت ميرفا ربة الحكمة والعدالة تؤيد أوديسيوس وتعطف على ابنه

تلباك ولذلك تنكرت في صورة بطل من الأبطال ثم زارته لتطلب إليه أن يذهب للبحث عن والده لأنه لم يمت ، بل لا يزال حياً يكافح في سبيل الوصول إلى دياره .

فلماذا إذن تأخر أوديسيوس عن الوصول إلى إيثاكا ؟ وماذا عانى من الأهوال في طريقه إليها ؟ وماذا صنع حينما عاد ؟ وماذا كان من أمر زوجته بنلوب وأمر ولده تلياك ، وأمر أعدائه الملوك اليونانيين ؟

هذا هو موضوع الأوديسة ، تلك القصة الرائعة التي لم نشأ أن نترجمها ترجمة تطابق أصلها اليوناني ، بل فضلنا روايتها رواية تيسر فهمها وتعطي خلاصتها لكثرة ما ورد فيها من أسماء الآلهة وأنصاف الآلهة وما أثقلها به هوميروس من أسماء الأبطال الخرافيين والحوادث العارضة التي قد يثقل على ذهن القارئ الملول متابعتها .

وننصح للقارئ بالرجوع إلى قصة الإلياذة ليجمع بين الصورتين كما ننصح بقراءة كتاب الأساطير اليونانية حتى يحصل على صورة متكاملة لهذا القصص اليوناني الرائع الذي يقرأه اليوم جميع الشباب في مكباتهم المدرسية ومكبات بيوتهم في جميع أرجاء العالم ، لما فيه من شحذ للفكر وتنبيه للخيال ، وما يشتمل عليه من صور البطولة والشجاعة وتعويد القراء على التفكير إزاء كل مشكلة أو صعوبة يواجهها .

هذا ، وقد قننا بكثير من التعديلات في القصة وفي الأسلوب تيسيراً على شباب القراء ومما لا يخفى على إخواننا القراء القدامى .

دريى خشبة

مقدمة الطبعة الاولى

.. وها هي ذى قصة الأوديسة ... أو الحلقة الثالثة من روائع الأدب اليونانى التى أخذت على عاتق تقديمها بطريقتى الخاصة لقرائى الأعزاء فى جميع الأقطار العربية ... أولئك القراء الذين أكرموني فتقبلوا كتابي السابقين : أساطير الحب والجمال عند الإغريق ، وقصة طروادة ، متضمنة إلياذة هوميروس الخالد ، الذى فُتنت به ، فلم أبال أن أقدم طرفتيه المجيدتين لقراء الأدب الرفيع فى أقل من ستة أشهر ، ليشقا طريقهما وسط تلك الزحمة الصاخبة من مئات الكتب فى الأدب الرخيص .

ها هي ذى قصة الأوديسة إذن . . . كما رويتها ، وهذبت حواشيتها ، منذ عشر سنين ، جارياً فيها على المنوال الذى اخترته فى تقديم كتابي السابقين . . . ذلك المنوال الذى مازلت أراه أسلم الطرق لتحبيب روائع الأدب القديم إلى نفوس القراء فى هذا الزمن المترفع العجول الملول .

وبعد ... فلقد قلت أكثر ما كنت أصبو إلى قوله عن هوميروس فى المقدمة الطويلة التى صدرت بها لقصة الإلياذة ، وذكرت فيها الشئ الكثير عن قصة الأوديسة ، والذى لا أزال أرجوه هو أن يوفقنى الله إلى إصدار ما أعددته للطبع من روائع الأدب اليونانى الذى كان فى إحيائه إحياء أوروبا الحديثة ، والذى لا بد لمصر الحديثة ، بل للعالم العربى الحديث ، من الإلمام به ، إن كان فى نيتنا خلق أدب عربى حديث .

درينى خشبة

بين مينرفا وتليماك

أنشد ياهوميروس ؟
 وظل في فم الأبد قيثارته المرنة ، ونأيه المطرب ، وعوده الآن . ونعمته
 الحلوة الحنون ؟
 أنشد ياشاعر العصر الخالي .
 وحلّ في الأسماع موسيقى مدوية ، وفي العيون دموعاً جارية ، وفي
 القلوب رحمة ومحبة ، وانفح عرائس الشعر من لدنك سلطاناً ، وحكمة
 وبياناً ، وسريراً وصولجاناً .
 تغنّ ياشاعر أو لمب !
 ولترسل من جنتك نعمةً تنتظم الأفلاك ، ورنةً تجلجل في الأفق .
 وآهةً تزلزل قلوب الجبارين !

* * *

سقطت اليوم ^(١) ونزح المغير عنها بخيله ورجله ، فتعالى ياعرائس
 الفنون فافقدى أوديسيوس في ذلك البحر اللجى يذرعه ؛ موجة تلبسه
 وموجة تخلعه ، لا يعرف لمملكته ساحلا فيرسو عليه ، ولا شاطئاً فيقصد
 إليه يخبط في اليمّ على غير هدى ، ويرسل عينيه في الماء والسماء على
 غير بصيرة ... زرقة متصلة في العلو والسفل ، وتيه لانهاى يخبط في أحشائه
 أسطول السادة المنتصرين ...

والأقدار وحدها تعلم لماذا ضل أوديسيوس بجنوده في ذلك العُباب ،
 وقد عاد كل أقرانه إلى هيلاس بعد طول النأى وشحط المزار ، إلهو
 وإلاههم ، ممزقين في دار الغربة كل ممزّق ، يتجشمون المصائب
 والأهوال ، ويتخبطون بين موج كالجبال ، ويخلصون من بحر إلى بحر ، ومن

(١) Ilium هي طروادة .

رُوعٍ إلى روع . فإذا أرسؤا على أرض وظنوا أنهم نجوا ، أفرعهم فيها غير
الذى رجوا ...

ولقد رقت قلوب الآلهة ، وودوا لو أدركوا برحمتهم أوديسيوس ... إلا
نبتيون الجبار ، رب البحار ، الذى يضمرب للبطل فى أعماقه كل كراهية وكل
بغضاء ، والذى آلى أن يصب على رأسه كل تلك الأرزاء ...

وحدث أن كان نبتيون فى حرب مع الأثيوبيين ، فانتبهزها الآلهة فرصة
سائخة ، وعقدوا مجلس الأولب فى ذروة جبل إيدا ، وتفضل الإله
الأكبر، زيوس^(١) ، فافتتح الجلسة بكلمة مخلصمة توجع فيها لما يلقاه من بنو
الإنسان من صروف الجدثان . واستطرد فذكر مأساة أجامنون المسكين
وما لقيه على يدى زوجه وعشيقها الأثيم إيجستوس من غدر وغيلة ، ثم
أنهى باللائمة على هولاء البشر البائسين الذين يقولون إن كل ما يصيبهم من
خير وضير هو من عند الآلهة ، وما هو إلا من عند أنفسهم ... ولكن
لا يفهمون ؟

ثم نهضت مينرفا ربة الحكمة ، ذات العينين الزبر جديتين ، فأيدت ما
قال أبوها سيد الآلهة ، وأثنت عليه ، ثم ذكرت أوديسيوس . . . « ذلك
التعس المسكين الذى تخطفه هو وصحبه البحر ، وقضى عليه دون أقرانه
جميعاً أن يشقى هذا الشقاء الطويل . عند عروس الماء الفاتنة كلبسوفى
جزيرة أو جيجيا ، ثمانية أعوام أو يزيد ماذنبه ؟ ما جريرته ؟ لماذا يُثنى هذا
العبد الصالح فى أقصى الأرض يا أبى ؟ خير عبادك أجمعين . أذكركم
ضحى الأضحيات باسمك ، وقدم القرابين من أجلك ، وحارب أعداءك
وجاهد شائئك ! لقد نمت إلى أن كلبسو تحاول جاهدة أن تستميل قلب
البطل ، وأن تنسيه وطنه إيثاكا . . . ياللهول ! كيف يابأته ! وهذه
الزوجة التعسة بنلوب ؟ ! بنلوب المحزونة المرزأة ! بنلوب التى صبرت

(١) Zeus أو Jovis

وصابرت طوال هذه السنين على ما كرّتها الدهر به من بعد زوجها ؛ بنلوب
التي حافظت على طهرها وإخلاصها ؛ أتظل هكذا سجيناً في قصرها
المنيف الباذخ ، ويظل هذا القصر محاصراً بخطابها المجانين من أمراء
الأقاليم ! ! أبى ! ياسيد الأولب ! ألا تدرك برحمتك أوديسيوس ،
وترده إلى وطنه ليزود هذه الكلاب التي ولغت في حوضه ، وكادت
تخوض في عرضه ؟ تداركه يا أبى ، تداركه بعطفة واحدة منك ، وإنك على
إنقاذه لقوى مكين » .

واستجاب لها سيد الأولب ، وقضى أن يعود أوديسيوس إلى إيثاكا ؛ لكنه
ذكرها برب البحار نبتيون ، وذكرها بما بينه وبين البطل من تراث واثارات ، «
سبها هذه الفعلة الجنونية التي فعلها أوديسيوس بواحد من السيكلويس^(١) ،
أبناء نبتيون إذ اقتلع عينه الواحدة التي كان ينعم بسبيلها بزينة الحياة . . .
إطمئني يابنية وقرى عيناً . إنا نحن الأعلون ، وسيرى نبتيون أنه لن يغلب
الآلهة مجتمعة أبداً . . . »

وشاعت الغبطة في أعطاف مينرقا ، وتضرعت إلى مولاها أن ينفذ ولده هرمز
إلى جزيرة أوجيجيا فيأمر عروس الماء كلبسو أن تعدّ مركباً عظيماً لأوديسيوس
ورفاقه ، ليعودوا عليه إلى أوطانهم ؛ ثم ذكرت أنها ستمضي من فورها إلى إيثاكا
حيث الخطّاب المأفّين يحاصرون قصر بنلوب ، وحيث ابن أوديسيوس المنكود ،
تليماك ، يشهد خراب مملكة أبيه ولا يستطيع أن يحرك ساكناً ، لصغر سنه . .
« إني سألهب إحساسه ، وأفتح عينيه على ما ينبغي . . . سأجعله يخرج من هذه
العزلة المعيبة ليبحت عن والده ، فإنه لم يعد طفلاً بعد . . . » .

وانطلقت مينرقا فربطت نعلها السحريتين ، على قدميها الجميلتين ،
وحملت رجمها العظيم الذي تقطر المنايا من سنانها ، ووضعت تاجها المرصع على
رأسها الكبير ، وأطلقت ساقها للريح حتى كانت بعد لحظة على مقربة من قصر
أوديسيوس ، فهبطت من السماء إلى الأرض ؛ وفي لحظة انقلبت فالتحذت شكل

(١) سيأتي ذكر ذلك في الكتاب العاشر من الأوديسية

الآدميين ، وتحايلت في جسمان الأمير منتس^(١) وطيلسانه ، ثم تقدمت
فدخلت ردهة القصر الواسعة ، حيث اجتمع الخطّاب المجانين من أجل
وليمة ، وتلفتت يَمَنة وَيَسرة ، ورأت الفتى السادر الساهم الحزين تليّك ،
وقد تعقدت فوق جبينه هموم . . . وهموم ، وتغضنت ملء أساريه آلام .
. . وآلام .

وما هو إلا أن لمحها تليّك حتى أخذه من هيبته شيء عظيم . . . فذهب
للقائها مسرعاً ، ثم مد إليها يده مصافحاً وهو لا يعرف من هي ، وقال :
« مرحباً مرحباً بالغريب المكرم ! هلم فشارك في ذلك القِرَى ، ولنتحدث
بعدها فيما أقدمك إلينا . مرحباً وأهلاً وسهلاً ! . . . » ودلف نحو الصالة
المزخرفة ، وتبعته ميرفاً . وفي يمناها ربحها الجبار الذي يقده من سنانة
الشرر ؛ حتى إذا بلغا العمود الأكبر الذي أسندت إليه مئات الرماح ،
والذي كان أوديسيوس يسند إليه رماحه وعدة حربه ، تناول تليّك الرمح
وأسنده بعد جهد ، حيث برز بكل عظمته وكل جلاله بين رماح الخطّاب
الفاسقين . وتقدم نحو أريكة وثيرة منعزلة ، وسأل ميرفاً فاستوت عليها ،
وكانا ثمة بمأمن من أن يستمع إليهما أحد . . . وأقبلت جارية فينانة رائعة
تحمل طستاً وإبريقاً من الذهب ، فصبت الماء على يدي الضيف ويدي
تليّك ؛ ثم مضت فأحضرت مائدة نُسقت عليها الورود والرياحين ، ونشط
النادل^(٢) يحمل أطباق الطعام والفاكهة والحلوى ، يأتي بها ملأى ويمضي
بها فارغة . . . والندمان^(٣) فيما بين ذلك يجذب الزق^(٤) إليه ويسقي . . .
ثم يسقي . . . وشرع الخطّاب المحرمون بدورهم يلتهمون مالد وطاب من
أكل وشراب . . . حتى إذا انتهوا شرع فيميوس نايه وانطلق يغنى .

(١) يروى أن منتس كان بخاراً غنياً وكان يعمل هوميروس في رحلاته الواسعة من عبر أجر ، ولذلك
كافأه هوميروس فخلد اسمه بذكره في الأوديسة .

(٢) النادل حادم المائدة .

(٣) الندمان ساقى الشراب .

(٤) الزق قربة الخمر .

وانتهز تليماك فرصة انصراف القوم إلى لهوهم وشرابهم فسأل
الضيف قائلاً :

« يا أعز الأصدقاء ! أرايت إلى أولئك الفساق ؟ لو أن رب البيت هنا ،
أكانوا يلهون لهوهم هذا أو يفسقون فسوقهم هذا ؟ كلا ! لقد كانوا إذن أسرع
إلى الهرب ، منهم إلى ذلك الطرب ؛ ولكن . . . أواه ! . . . أين هو !
أين أوديسيوس العظيم الذى انقطعت عنا أخباره ويشت من أوبته دياره .
ولكن حدثنى بربك من أنت ؟ ومن أى الأقاليم قدمت ؟ ومن هم رجال البحر
الذين ألقوا مراسيمهم عند إيثاكا ؟ أغريب أنت أيها السيد ؟ أم كنت فيما خلا من
الزمان من أصدقاء أبى وأحبابه ؟ »

وقالت ميزفا ذات العينين الزبرجديتين :

« ليهداً بالك يابنى ، فإنى مجيبك على كل ما سألت . إنك ترى الآن متس
أمير (جزيرة الطافيان) البحارين ، وسليل النخيلوس الكبير . ولقد
أبحرنا من جزيرتنا ميممين شطر جزيرة النحاس من أجل ذلك المعدن الثمين ،
وسفننا ملقيه مراسيها بالقرب من غابات (نيوس) ولقد كنا ولا نزال من أحب
ضيغان أببك وأودهم إلى فواده ، فلما سمعنا بما حل به من شدة ، وبيته من
لأواء ، استوحينا آلهتنا فخبّرنا أنه لابد عائد إلى وطنه سالماً غانماً ، وأنه لابد
منتقم من هؤلاء الفجار الأشرار . ولكن خبرنى بأربابك ، أفى الحق إنك
لأنت أبن أوديسيوس العظيم ؟ إن ملاحك تشبه ملاحه ، وإنك لقريب الشبه
منه جداً ، وإن هذا البريق الذى يشع من عينيك هو نفسه الذى كان يشع من
عيني أوديسيوس ، يا آلهة ! كم سمرتُ إلى أببك قبل أن يشد رحاله إلى
طرواده ! فهل يُقدر لى أن أسمر إليه مرة أخرى ؟ إننى من وقتها إلى اليوم لم أره ،
وهو كذلك لم يرنى . . . ألا ما أشد شوقى إليه ! ما أشد شوقى إليه ! . . . »

وشاع بارق من الأمل فى نفس تليماك فقال : ويحك أيها الصديق !
إننى أنا ابن أوديسيوس مافى ذلك ريب ، والعالم كله شهيد على ذلك .

ثم اختلطت الزرقه بالخضرة فى عيني ربة الحكمة وقالت : « على رسلك
ياتلهاخوس ! إذن فما هذه الولاثم وتلك السمط ؟ وهذا الزحام من أين
أقبل ؟ إني لأقلب ناظرى فى القوم فلا أرى شريفاً ذا حسب يتسأهل أن
يحتفى به أو يقام له وزن ! »

وبيتئس تليماك وينحيب : « أيها العزيز . . لقد هاجرت الفضيلة من هنا
فى أثر المهاجر العظيم ، وكأنها آلت ألا تعود إلا معه ! وكان هو ، تداركته
السماء ! يُلقبها هؤلاء بنظرة واحدة تكفى لتزول منها الجبال . . . وأبناه !
لقد أطمع العاديات فينا بطول نأيه . فيا للنوى ^(١) ! إنا لا ندرى اليوم أين
مقره ولا أيان مستودعه . ولو قد سقط تحت أسوار اليوم لاجتمع الإغريق
من كل حذب هنا . . . هنا . . . فى حاضرة إيثاكا ليذرفوا دموعهم من
أجله . وليقيموا له نصباً عالياً رفيع الذرى شاهق الأوراق ^(٢) ، وليكتبوا
اسمه الكريم فى صحائف صدورهم بمداد أبدى من
التبجيل . . . ولكن ! . . وأأسفاه ! . . لقد انتصر انتصار الأبطال ، ثم
مضى على وجهه فى فجاج البحار . وغدونا لا تحلم العين بنظرة مفردة منه ،
ولا الأذن بلفظة عذبة من لسانه الممين ! . . تباركت يا آلهة الأولمب !
ماذا عندك من الأقضية المحبوة لى ؟ الذئاب ! إى يا آلهة . هذه الذئاب !
وحوش البرية التى اجتمعت من كل فج . . من الجزائر المتناثرة فى
البحر ، ومن المدائن المترامية فى البر . . من ساموس ، ودلشيوم
وزاكنثوس ، ومن كل إقليم وكل مصر . كلهم يربطون حول هذا القصر
ولا يستحيون . . . الفساق ! الأوشاب العراييد ! يطلبون يد الزوجة
الوفية . . الأم المكلومة . . بنلوب ! بنلوب الباكية المحزونة المصدعة ! كتر
أوديسيوس الذى لا يفنى ! يطلبون يدها ولا يرحمون وفاءها وبكاءها
ولأواءها . . . فلا تستطيع أن تردهم لعجزها ، ولا تستطيع أن تجيهم

(١) السر والعدد عن ليدار

(٢) روى الخيل فته

وهى لا تدري من أمر زوجها شيئاً . . . وهم طوال هذه السنين يرغبون
نعماء أبى . فكهين فى أشربات وآكال . حتى أقفر الزرع وجف الصرع .
وما أحسبهم مبقين على شئ . . . حتى على ! »

* * *

وانثال الحنان فى فم مينرثا ، إذ هى تجيب الفتى المحزون بقولها :

« ويح لك أيها الفتى ! رحمتا لك يا بنى الصغير ! أواه ! لو أن أباك
هنا اليوم ليدُود أولئك المناكيد ! وحق السماء لو أنهم رأوه وهو يلعب
رحميه أو يداعب سهامه لأجفلوا وولوا مدبرين ! إن له لسهاماً مسمومة
سقاها أبى بعد إذ رفض أن يُسمّها إبّلس بن مرمريس . . . وهو لو صوبها
إلى أولئك المفاليك لأبادهم . . . يارحمتا له ! إن أحداً غير الآلهة لا يعلم إن
كان لا يزال حياً يرزق أو أنه قد ابتلعه اليم أو عاجلته المنون . . . تليماك !
يا ابن أعز الناس على ! إصغ إلى ، واحفظ ما أقول : إنك لست طفلاً
بعد ! فلم لا تشمر عن ساعد الجد وتبحث بنفسك عن أبيك ! لم ترضى
أن يلطخ شرف بيتك هؤلاء الفجار ؟ لم لا تكلمهم بنفسك فى أمر أمك ؟
ولم لا تصرفهم عن هذه الدار إلى بيت جدك ليطلبوا إليه يد ابنته إن
شاءوا ؟ أليس أبوها أحق بهذا الشأن من كل رجل سواه مادام أوديسيوس
لم يؤب ؟ لم يرضون هنا كسباع الفلاة يوهون ثروتك ويأكلون مالك
ويذهبون بالأخضر واليابس مما ترك أبوك ؟ استمع لما أقول ياتليماك ! نبئ
القوم فليجتمعوا لك ، ولتسمعهم كلمتك ، ولتصارح أمك إن هى
أرادت منهم بعلا فلتنصرف إلى بيت أبيها فهو أولى بهذا الأمر من كل أحد .
ثم انهض أنت يا ابن أوديسيوس ! فابحث عن أوديسيوس . أعد ما
استطعت من سفن وزاد ، وميرة وعتاد ، ولتبحر على بركة الآلهة ،
فلتذهب أولاً إلى (بيلوس) حيث الحكيم الباسل نسطور . ثم إلى أسبارطة
حيث صاحب هذه الداهية منلوس^(١) . . . أقفل بفلكك إلى هذين

(١) زوج هيلين أخت سلوب والننى كانت سبب حرب طروادة .

فسائلها أين مضى أبوك فقد تقع منها له على خبر . . . ولتكن لك أسوة في
الفتى الجريء المقدام أورست الذى قتل قاتلى أبيه^(١) ، وفيهم أمه . . . بوركت
يا أورست ! بوركت يا أورست ! هلم يا تلياك فقد تعود بأبيك حياً فبرد الشرف
والمجد إلى هذا البيت ؛ وقد تعود به ميتاً فترفع ذكره ، وتقيم قبره ، وتخلد في
العالمين أثره ! والآن ، فلا نهض أنا إلى رجالي وسفنى . فلقد بعدت طويلاً عنهم
. . . وكلى يقين يابنى أن تقدر نصيحتى وعلى الآلهة فلتوكل ! » .

وحين انتهت مينرفا من هذا الحديث ، حدجها تلياك بنظرة ثم قال :
« أيها الصديق حباً ، ويا أبر الأوفياء سمعاً ! لقد أيقظت فى ضميراً أنت
أحييته ، فألف شكر لك . . . أبداً لن أنسى كلمتك : أنا ابن
أوديسيوس ! فلأبحث عن أوديسيوس ، وحاول الفتى أن يقدم لمحدثه
هدية سنية تكون تذكراً لهذا اللقاء . ولكن مينرفا شكرته وأبت أن تأخذ
شيئاً ، ثم قالت « إذا نجحت فى مسعاك يا بنى فسوف أعود . وسوف أقبل
آية هدية منك ! » .

ثم انطلقت ربة الحكمة ، ذات العينين الزبرجديتين . ولشد ما ذهول
الفتى ووقف مسبوهاً مشدوهاً حين رأى هذا الأمير (متنس) ينتفض
انتفاضة هائلة فيكون نسرًا كبيراً يضرب الهواء بجناحيه ، ثم يعلو ويعلو . . .
فيكون فى السماء ويغيب عن ناظره ؟ .

ولم يحس الفتى يوماً بما أحس به الساعة من هذه الذكريات المليحة
على فؤاده تهيج فيه الشوق إلى لقاء أبيه ؛ وجدد الثقة عنده وأكدها فيه
يقينه أن إلهاً يساعده ، هو هذا الضيف الذى أرسل جناحيه وغاب فى
السماء .

وانطلق تلياك حيث جلس الخطابُ الفساق يستمعون إلى أغاني
فيموس ، وحيث وجد أمه فى الشرفة العليا تستمع هى الأخرى إلى تلك

(١) أحمون .

الأغاريد بين قيانها من وراء ستار صفيق وتبكي . . . وتسأل فيميوس أن يتغنى غير هذا الغناء غناء لا يثير شجوها وشجنها . . . وتثور النخوة في قلب الفتى فيصبح بأنه : « علام العويل يا أماه ؟ وما وقوفك هذا الموقف تسترقين الغناء ؟ وما اعتراضك على المغنى ؟ دعيه فليتنغ ما يشاء . فلقد غدونا سخرية القضاء وهزوا المقادير . ولقد ذهب أوديسيوس وذهبت معه كرامة هذا البيت ، وإني لصاحبها بعده . . . فادخلي . وليدخل معك قيانك ، ولتقمن جميعاً بشئون المنزل ولتلتفتي إلى مغزلك ومنسجك ، ودعى كل ماعدا ذلك للرجال . . . لى . . . لى أنا وحدى : سيد هذا القصر ! » .

وأثرت مقالة الابن في نفس أمه ، فانشئت مع قيانها إلى مخدعها بالطابق العلوى ، حتى إذا خلت إلى نفسها ذرفت من الدمع على أوديسيوس ما شاء لها حزنها أن تذرف . أما تليماك فقد انطلق وسط القوم ونادى بأعلى صوته : « أيها الفساق ! يا خطّاب أمى ! خذوا في هوكم ، وتمتعوا قليلاً أو كثيراً . فإذا كان الغد فاجتمعوا في الساحة الكبرى ، فإن لى كلاماً معكم . . . سأطلب إليكم أن تشدوا رحالكم من هنا ! أسمعون ! لقد طالما ألتفتتم لنا زاداً وعتاداً . . . ألا فلتتمسوا الزاد والعتاد من عند أنفسكم ، ولتقيموا أفراحكم وولائمكم في غير هذا المكان ؛ فإن أبيت فإنى مستعين بالآلهة عليكم . ولتقتصص منكم السماء بما جرحتم ^(١) . . . » .

وما كاد يفرغ من كلمته حتى عضوا على أصابعهم لمفاجأتهم بهذا الكلام الخشن الذى لم يعتادوه . ونهض أنتينوس من مجلسه وقال : « تليماخوس ! لقد حق لك أن تخاطبنا بهذه الشجاعة ، ولكن . . . يا لشؤم اليوم الذى تتوجك السماء فيه ملكاً على إيثاكا . . . عرش آبائك وأجدادك ! » .

(١) جنيم

ويجب تليماك . « ليس أحب إلى من الملك حين تخلعه على السماء . . . غير أن أمره إليكم اليوم إن كان قد قضى أوديسيوس . . . أما أنا . . . فلا أريد إلا أن أكون سيد هذا القصر . . . ولا غرو . . . فإن هذا من حقى ! » .

وأجابه يورما خوس : « إن من حقلك أن تقول ما تشاء يا أخانا تليماخوس . . . أما ملك إيثاكا فالسما وحدها تؤتية من تشاء . ولكن قل لنا بربك من هذا الضيف الذى كان معك الساعة ، هل من قبل أيبك أقبل ؟ أم إن له عليكم لذيئاً ؟ إن أحداً منا لم يلقه ولم يره ، ولكننا لمناه من بعد ، عليه سيماء النجاة والجلال . من أين أقبل ياتليماخوس وفيم قدم ؟ . . . » .

وأصلح تليماك من شأنه وقال : « أيها السيد يورما خوس ! إن يقينى أن أبى قد انتهى . . . ولن تغرينى هذه الكلمات المعسولة التى يتشدق بها المنجمون . . . أما هذا الضيف . . . ف . . . هو من أصدقاء أبى طبعاً ، وقد أقبل لمجرد الضيافة ، وهو الأمير منتس أمير أهل البحار وسيد تافوس ، وابن سيد هذا الزمان . الملك الشجاع أنخيالوس » .

قالها تليماخوس وهو أعرف الناس بضيفه ، ثم انثنى كل إلى مخيمه ، وانثنى تليماك إلى مخدعه بالطابق العلوى ، حيث كانت مربيته يوريكليا تنتظره ، وتوقد له الشموع والسرج . يالها من أنثى طيبة تخلص لمولها وتحنو عليه . . . لسرعان ما خلع ملابسه فعطرتها وحفظتها ! . . . ولسرعان ما هيأت له فراشة الوثير . . .

وقضى تليماك ليلة طويلة ساهرة ممتلئة بالهواجس والأفكار .

تليماك يجادل الخطاب

مؤت أورورا^(١) ابنة الفجر الوردية مشرق الأفق ، فهب ابن أوديسيوس من مرقده ، وأصلح من شأنه ، وتقلد سيفه ، ثم انفتل مختلاً ، كأحد آلهة الأولمب من باب مخدعه ، وجعل يقلب عينيه في هذه الخيام المضروبة التي تملأ حديقة القصر ، والتي يثوى فيها أولئك الفجار الأشرار خطّاب بلوب ؛ وتلبّث قليلاً وفي القلب لظى ، وفي النفس كلوم ؛ ثم صاح بالملأ فهبوا مسرعين ، وأخذوا يَنسلون إلى الردعة الكبرى ، حتى إذا انتظم عقدهم والتأم شملهم تقدم هو متهدجاً نحو عرش أبيه ، وفي يمينه رمح ظامئ إلى تلك الدماء النجسة التي تتدفق في أبراد تلك الذئاب ، وعن جانبيه كلباه الضاريان ، وفي عيني كل منهما جمرتان . وكانت مبرقفاً نفسها تضني على الشاب سيماء النبل ، وترفرق فوق ناصيته أمواهاً من العظمة والمجد ، لتقذف منه الرعب في قلوب أعدائه ، حتى لبهزم أن يروا في تليماك ذاك الضر غامة المختال .

وما كاد الفتى يستوى على عرش آبائه الصيد ، واجداده الصناديد . حتى نهض شيخ يحمل فوق كاهله السنين الثقال ، وتشتعل في رأسه شيبة التجاريب وجلائل الفعال . وكان هو إيجبتوس بعينه . . إيجبتوس المسكين الذي بعث بولده أنتيفوس في أسطول عظيم وجند لجب . ليشارك في حرب اليوم مع أوديسيوس ، فنازل وناضل ، وكروفر ، وجال وصال . وصمد وانتصر . . . ولكنه . . . وأسفاه ! . . لم يعد إلى أوطانه في العائدين ، بل صحب أوديسيوس في رحلته المشثومة وراء البحار ، حيث

(١) ربة الفجر في الميثولوجية اليونانية وإحدى تابعات أبولو وقائدة عربته - الشمس -- عندما يرغب من أبواب المشرق .

أكله السيكاوب الوحش فيمن أكل . وقف إيجبتوس بين أبناء له ثلاثة ،
أحدهم من خطاب بنلوب ، ثم قال :

« أيها الرفاق ! يا أبناء إيثاكا النبلاء ! إنها أول مرة منذ أن بارح
أوديسيوس بفلذات أكبادنا ندعى فنجتمع مثل هذا الاجتماع .

فئذ الذى دعا إليه ، وماذا يتغنى ؟ أنفحة من نفحات الشباب ، أم
زفرة من زفرات الشيب ، أم خبر من جيشنا الهالك يبشر بعودته ؟ لينهض
باركته السماء فليحدثنا عما دعانا إليه . »

وتناول تليماك صولجانه من قواسه ، وتقدم حتى كان فى وسط القوم
وجهر فقال .

« أنا أيها السيد الوقور صاحب هذه الدعوة ! أنا تليماخوس بن
أوديسيوس ، صاحب هذه الدار وصاحبكم ومولاكم من قبل . . . لقد
دعوتكم لأشكو إليكم بؤسى وحزنى . . لا لأزف إليكم بشريات الجيش
المفقود الذى لا يعلم مصيره إلا زيوس ! لقد فقدت والدى ، ووالد
الإيتاكيين جميعاً ، ثم أنا اليوم حبيس هذه الدار ، أسير هؤلاء الخطاب^(١)
الذين يطمعون فى الزواج من والدتى ، غير متقين فى عرضى إلا ولا راعين
لأبى ذمة ، يذبحون النعم^(٢) ويُرِيغون^(٣) الزاد ، ويعاقرون ابنة العنب .
ولا يبالون أن يهلك الزرع والضرع ، ما داموا يبيتون وبطونهم ملائى ،
وبيت غيرهم على الطوى^(٤) . . . ! لقد استباحوا هنا كل شيء ، مادام
لا أوديسيوس هنا فيردعهم ، ولا حول لى فأغل أيديهم ، ولا ضمائر
فيصيخوا إلى قولى ، ويرحموا ضعفى . ليذهبوا من فورهم إلى جدى

(١) يلاحظ القارئ أن الاجتماع كان عاماً ولم يكن مقتصراً على الخطاب فقط . بل كان يصم
جمهوراً من أهل إيثاكا كذلك .

(٢) الماشية .

(٣) يدسمون .

(٤) الطوى الجوع .

فيخطبوا إليه ابنته إن أرادت أحدهم بعلا . فهو بها أولى وبشأنها
أحق . . . إنكم ضعفاء أيها الإيثاكيون الأوفياء . . . ولو استطعتم لرددتم
عني غائلتهم . . . فلقد طفح الكيل . وحزب الشر . وعم الأذى . . .
والآن . أوجه إليهم قولي . . . ولن أستحي أن أصارحكم مرة أخرى أيها
الخطاب . . . اخجلوا إذن ! ولتصبغ الفضيلة وجناتكم بحمرة الحياء !
أذكروا ما عسى أن يعيركم به جيرانكم ! واخشوا قارعة تحل عليكم من
أربابكم . . . واتقوا يوم تلقونهم تودون لو تلفتكم الصواعق . . . يا قوم !
استحلفكم بسيد الأولب . بربة العدالة ثيميس . إلا ما تركتموني أقضي
البقية الباقية من أيامي في شقوتي وحدي ! هل أجزم أبى مرة مع أحد منكم
فأنتم اليوم تأخذونني بجريرته ؟ فيم إذن مقامكم هنا ؟ وفيم إذن تستزفون
آخر قطرة من خمري دون مقابل ؟ اذهبوا ! اذهبوا . ودعوا تلياك خوس
البائس تحز في نفسه أشجانه . وتبرى اصطباره بلواه ! ! »

ودق الأرض بصولجانه . وانفجر يبكي . وكأنما انهمرت دموعه في
نفوس القوم ، فوجموا وجوماً شديداً ، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة ،
حتى نهض أنتينوس آخر الأمر فقال .

« لله بيانك يا تليما خوس ! لقد كنت بليغاً حقاً ! ولكنك لم تصب كبدا
الحقيقة حين قصرت علينا اللوم ، وحين لا ملوم إلا أمك ! لقد خدعتنا
جميعاً طوال سنوات ثلاث كادت أن تتم أربعاً . إذ رسائلها تترى علينا .
تحيي في نفوسنا الآمال ، وتذكى فينا الأمانى ! لقد كانت وعودها تترادف
كالبروق الحُلب ، وتترأى كالسراب المُضِلّ اتخذت لها منسجاً وطفقت
تعمل عليه وهي تغرر بنا ، وتقول : « أيها الإغريق : لقد قضى ^(١)
أوديسيوس ما في ذلك ريب ، وكلكم تطمعون أن تفوزوا بزوجته ،
ولكن أبى ليرتيس رجل شيخ ، وهو يدب بخطى وثيدة إلى حافة القبر .

أفليس أخلق بى وبكم أن تنتظروا حتى أنسج له هذا الثوب لتكون منه أكفانه . وحتى لا أكون مضغة فى أفواه الإغريقيات إن تركته برغم ثروته الطائلة وليس له كفن يضم رفاة ؟ » . ولقد أجبتا سؤلها وتلبستا طويلا ، نرجو لو نفرغ من نسج هذا الكفن . بيد أنها كانت تنقض بالليل ما تنسجه بالنهار . وهكذا دواليك . ظلت تخادعنا تلك السنين الثلاث ، حتى فضحت سرها إحدى وصيفاتها ، إذ حدثنا به ، واستطعنا أن نضبطها وهى تنقض غزلها أنكاثا فى ضوء المشاعل ، فى جنح الليل ، فأجبرناها على إتمامه بالرغم منها . . . هذه هى الحقيقة يا قوم ! والآن ! فترسل أمك أيها الفتى إلى أيها ، وليختر لها من بيننا بعلا ، أو فلتختر هى لها بعلا . . . أما إذا عكفت على مكرها بنا . فلتثق أن شيئا منه لم يعد يجوز علينا . مهما ظنت أنها أحذق من تيرى ، أو أكيس من ألكينا ، أو أبرع من ميسينيه ^(١) . . . حسبها ما خدعتنا ! وإنا نقاسمك يا تليماك أننا لن نبرح عاكفين على ما شكوت ، من ذبح لنعمك ، وإراغة لزادك ، ومعاقرة لخمرك . حتى تختار لنفسها ؛ أو . . . فلتخرب هذه الدار ، ولينضب معين خيرها . .

وشاعت الكبرياء فى كل جارحة من جوارح تليماخوس فقال « أنتينوس ! ماذا أصابك ؟ كيف تسألنى أن أقهر أُمى التى غدتى ونشأتى على غير ما ترصاه ؟ كيف أطردها من قصر بعلا الذى لا يعلم غير الله إن كان حيا أو ميتا ؟ لبئس ما أجزيها به . ولشد ما أغضب أبى وأثير غضب الآلهة على إن فعلته ! ! إنها ستدعو إيرينيس كى تنتقم لها منى ، وستنصب على لعنات الناس جميعا ! ؟ ويحك أيها الرجل ! لن أقولها أبدا . . . بل اذهبوا أنتم فسلوها ما شئتم ؛ فلما أجابت طليبتكم ، وإلا فانصرفوا غير مأجورين . . . اذهبوا . . . فأولموا ولائكم فى غير هذا القصر . وأريغوا من زادكم ، وأنفقوا مما تحبون ! ! أما إن رأيتم أنه أحلى لكم أن تأكلوا

(١) من ربات الصوعد عبد اليونان

مال غيركم . فإنى سأهتف أبداً بالآلهة أن تقتصر لى منكم . فهى محيطة بكم ! ... » .

* * *

وماكاد تلياك يفرغ من مقالته حتى أرسل سيد الأولب نسرين عظيمين طفقا يضربان الهواء بخوافيهما ، ثم جعلاً يُدَوِّمان فوق الملاء ويقدحان الشرر من أعينهما . . . نذيرى ردى ، وصيحة منون . ثم انطلقا نحو المدينة وغابا فى ظلام البعد .

وشده القوم ، وريعت أفئدة الخطاب ، وأخذوا يتخافتون . . ثم نهض فيهم القديس هاليتير بن نسطور المعروف بورعه وصدق نبوءته ، فقال : « أيها الناس ! يا أبناء إيثاكا ! اسمعوا وعوا ! ليحذر الخطاب الغافلون ما يخفى لهم الغيب من شر أوشك أن ينقذف على رؤوسهم ! إن أوديسيوس حى يرزق ، وأنه عائد إلى وطنه ، بل إنه لُيُغْذُّ السير إلى هنا ! وإنه ليحمل الموت الأحمر إلى خصومه ، والخير الأخضر إلى مواطنيه ! أنا ماليتير . قدئسكم الذى لا يكذب قد أنبأته قبل أن يبحر إلى طروادة بذلك النبأ وأنه عائد إلى وطنه بعد أن ينتصر على أعدائه ، ويذيقهم ضعف ما صنعوا ولن يجديهم أن يتوبوا أو يندموا . . . وليأتينكم نبؤه بعد حين ! » .

وسخر القوم منه واستهزأوا به . وقام بوريماك يرحمه بهذه الكلمات : « انقلب إلى دارك أيها العجوز الخرف ! هلم إلى أحفادك الكسالى فتنبأ لهم بما ينبغى أن يأخذوا حذرهم منه ! لقد قصف المنون عود أوديسيوس الفينان . فليته قصف عودك كذلك ! طير ؟ ! ها ! إن الطير طالما يستنسر فى سماء إيثاكا ؟ إن أكبر الظن أنك تطمع فى منحة من ابن مولاك تليماك . . . ولكن اصغ إلى ؟ لتكون لك منحة منا إن تنبأت له عما يكاد يذهب بك وبه من بطشتنا إن لم يختر لنفسه ! أسمعت ؟ لقد نصحنأ له أن يرسل أمه إلى بيت أيها ليختار لها الكفء . الذى ترضى ، فلم ينتصح وأنا أرسلها كلمة

صريحة في غير مين ، إننا لن نبرح عاكفين على ما نحن فيه من هذا الخير ، حتى تخضع بنلوب . فتمضى مأجورين . . وثق ، أيها الشيخ المهيب الحرف أن نبوءاتك لن تفرعنا . بل هي تضاعف سخطنا عليك ، وبغضاءنا لك . . . ألا ما أطيب الإقامة هنا ؟ ! لتزد بنلوب عناداً ، فإننا لا نزداد إلا جِلاداً . . . » .

ونهض تليماك فقال :

« على رسلك يا يوريماخوس ! وعلى رسلكم أيها الخطاب جميعاً . . . لقد أرسلتها كلمة حق فلم تستمعوا لها ! أبداً لن أضرع إليكم مرة أخرى . . . الآلهة بيني وبينكم ، ، والاغريق أجمع أعلم بأمرى وأمركم ، غير أن لي طلباً إليكم بودي لو أنلتموني إياها . . فهل تسمحون بمركب وعشرين بحاراً فأقلع من فوري هذا إلى بيلوس ثم إلى أسبرطة ، عسى أن أسمع خبراً عن أبي ، أو أتلقف نبوءة من سيد الأولب الذي بيده ملكوت كل شيء . . . إني إذا أيقنت أن أبي لا يزال حياً فقد أوفق إلى العثور به ولو بعد حين ، أما إذا استيقنت من هلاكه فإني عائد إلى إيثاكا ، فقيم له نصيباً يتفق وهذا المجد الباذخ والذكر التليد ، ثم يكون لي مطلق الحرية في منح أحدكم يد أُمي فتكون زوجه المخلصة إلى الأبد ، بعد أن أتم لأبي كل المراسم الجنائزية . لتقر روحه العظيمة ، وتسكن إلى ربها في ظلال هيدز^(١) .

وكان في المجتمعين رجل تبدو عليه مخايل النبل ، وفي رأسه جمرات المشيب ، تهالك على نفسه حين وقف ينافح عن تليماك فإذا هو الشيخ منظور ، الذي كان أوديسيوس قد استخلفه على أهله قبل إبحاره إلى طروادة ، لصداقة قوية كانت تجمع بينهما . . . قال منظور :

« إسمعوا إليَّ يا أهل إيثاكا ! مالكم اليوم قد نسيتم آلاء ملككم

(١) اسم الدار الآخرة في الميثولوجيو هي حادس دار نلوتو .

أوديسيوس عليكم ، وهو الذى كان يرعاكم كأب ، ويغدق عليكم من
فيضه العميم ؟ ما لكم قد تقاعستم دون هؤلاء الخطاب الذين يذهبون بخير
مولاكم ويأكلون مال ابنه بغير الحق ، وهم قُلُّ وأنتم كثر ، آمنين
مطمئنين ، لا يرهبون أوبة مفاجئة من البطل الشريد . . . ؟ » ..
وهاجت كلمة الرجل كوامن الخطاب فهب أحدهم وهو ليوكريتوس ،
يقول :

« رويدك يامنطور ! أيها الثرثار العجول ! كيف تجرؤ أيها الرجل فتثير
الشعب على الخطاب وهم سادتك ؟ هل أعجبتك كثرتهم يامنطور ؟ إذن
فأبشر بعجزهم دون ما ابتغيت ، وثق أن ملك إيثاكا نفسه لن يستطيع
معهم شيئاً إذا حاول إخراجهم من بيته هذا ، إذا قدر له يوماً أن يعود ،
إنه إذا فعل فسيذوق وبال أمره ، ولن تنال منا حماقاتك ولا نبوءات
هاليتير ، وبنلوب نفسها لن تسر بأوبة أوديسيوسس ؛ ولكن اسمع أيها
الشيخ ، إنه لن يضرنا أن يذهب تليماخوس فيذرع البحر باحثاً عن والده ،
وله أن يتخير من السفن ما يشاء . . . » .

وتفرق القوم ، وأسرع الخطاب إلى خيامهم ، وانقلب تليماك إلى شاطئ
البحر ، حيث وقف فوق صخرة ناتئة يناجى مينرفا :

« أيتها الربة المباركة ! يا إلهة الحكمة مينرفا ! يامن كنت أمس ضيفة
مكرمة تحت سقف هذا البيت ؛ أصلى لك ، أنا تليماخوس التعس ،
وأبتهل أن تباركينى وتسددى خطواتى ، وأن تكونى رائدى الأمين فى عباب
هذا البحر ، وأن تشدى أزرى وتكونى معى إلماً على هؤلاء الفساق
العرايد ، وأن تشرقى فى ظلماتى البعيدة ، وأن تحلى أمناً وسلاماً على . . .
يامينرفا ، يامينرفا ، إستجيبى ياربة العدالة . . . » .

واستجابت مينرفا ، وأقبلت فى صورة الأمين منطور حتى كانت قبالة
تليماك ، ثم شرعت تكلمه كلمات هن أروح من أنفاس الفجر ، وأندى من
نسبات الورد ، وأعذب من قطرات الندى :

السلام عليك ياتليماخوس ! السلام عليك حين تثبت أنك ابن
أوديسيوس الوفي وفرع دوحته الوارف ، وحين تبدوفيك بدوات من حوله
وطوله وقوة بأسه ، وحين تقلع على بركة السماء وفي عناية الآلهة ورعاية
سيد الأولب ؛ في رحلة لن تكون عبثاً . . . أنت ابن أبيك ياتليماك . . .
أتى بك من بنلوب . . . وآية ذلك هذه الروح القلقة التي تشيع فيك من
أجله ، هذا الجبروت الذي هو نفحة منه ، وذلك الصوت الجبار الذي
يتلجلج في فمك كأنه فيض من لسانه ، وذلك الذكاء الوقاد الذي هو قبس
من ذهنه العظيم . . . بشراك ياتليماك ! لا يحزنك خيال أعدائك فقد
أوشك القضاء أن ينقض على رؤوسهم فيحطمهم . . . أنا . . . أنا هذا
الشيخ المهدم ، صديق أبيك وأمينه منطور ، سأكون معك ،
وسأخدمك ، وأسهر عليك ، وأفديك ، . . . لكن لنمض الآن فلتعد للرحلة
ما هو حسبها من زاد وعتاد ، ونخبة أولى بأس من رجالك الأقوياء ،
سأنتقي أنا نفسي اشداهم مراساً وأصدقهم عزيمة . . . امض على بركة
الآلهة . . . امض . . . لا وقت لدينا فنضيعة . . . هلم . . . » .

وسكنت مizrfa . . . ولكن حرارة كلماتها أشرقت بالآمال في نفس
تليماك ، فذهب وقلبه يخفق بألف أمنية . . . إلى القصر . . . حيث رأى
الخطاب يذبحون ويعدون نار الشواء ، وحيث قفز أنتينوس للقائه ساخراً
مستهزئاً :

« تليماك ! ناشدتك الآلهة إلا ما شاركتنا غداًنا واطرحت بغضائك
هنية ! هلم ! خذ نصيبك من هذا الشراب أيها الصديق . لا يشغلك أمر
هذه الرحلة . . . فقد أمرنا أن يعد لك الآخيون سفينة عظيمة وقدرراً من
الزاد كبيراً ، وعصبة من الرجال أولى قوة . . . وسنبحر قريباً فتذر البحار
وراء أبيك . هلم . . . هلم . . . » .

ولكن تليماك عبس عبوسة قاتمة ثم قال :

« أنتينوس ! إليك عنى فما أستطيع مشاركة خصومى السفلة غداءهم ولا لى قلب فأشرب النخب من يدك ! لا بورك لكم هذا الذبح الذى لا يحل لكم ، والذى استباحتموه من غير حق ، إذ أنا طفل أحبو . . . أجل ! لأستعجلن لكم الخراب ولأسعين فى حتفكم ، ولأذهبن إلى بيلوس فأنتصر إذا عزى النصر فى إيثاكا ! أيها الذئاب ! حتى سفائى وعتادى تنكرونها على ! » .

وكان اللثيم قد أمسك يمين تليماك كالمصافح المستهزئ ، ولكن تليماك جذبها سائحاً ، وترك الكلاب تغمزه وتلمزه ، وتستهزئ بهذا العون الذى يرجوه من بيلوس ، وتلك الجحافل التى يأمل أن يجردها عليهم من أسبرطه . . . « ومن يدرى ؟ فقد يهتدى إلى إيثير المثمرة ، فيجد فى أعشابها بقلة يدس لنا منها فى كؤوسنا فترجحه منا . . . » . . . بل من يدرى ؟ فلقد يبتلعه اليم كما ابتلع أوديسيوس من قبل ، وتكون هنالك الطامة ! إنا إذن نقسم هذا المتاع وتلك الضياع ، ثم نهمر أحداً الذى تختاره بنلوب بعلاً لها ، بهذا القصر المنيق ! . . . » .

وتركهم تليماك ، ومضى قدماً إلى غرفة أبيه بالطابق العلوى ، حيث كنوزه التى لا تقدر ، من عدة للحرب وذهب مدخر ، وخمرة معتقة ، وروح اذفر ، وخز وديباج ، ودروجوهر ، ومغافر^(١) أعدت لليوم المنتظر . يوم يعود أوديسيوس فيظفر ويقهر ، ويطهر بيته من ذاك النفر .

ووجد عندها حارستها يوريكليا فصاح بها .

« ريبية ! يوريكليا ! هيا ! صبي من خمرى فى زقاق ! من مدامتك التى أدخرتها لأبى . . . لا . . . لا . . . ليس من صفوتها ياريبية ، احتفظى بصفوتها له ، املئ اثنى عشر دنا ، وهى عشرين جوالقاً من دقيق ، هيا . . أعديها كلها لتحمل إلى سفينتى بعد أن تنام الملكة . . . لا

(١) المغفر والمغرة زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة .

يعلمن أحد بأمر رحلتى إلى بيلوس وأسبرطة . . حتى ولا أمى ! سأرحل
ثمة . . سأسمع أخبار . . . »

وصمت تليماك هنيهة . . واستعبرت ربييته يوريكليا ، وأرسلت هذه
الكلمات على أجنحة من الحنان ، وفى أنسام من الرحمة .

رويدك يابنى ! أى سفر وأى نوى ! لقد انتهى أوديسيوس وانتهى معه
كل شئ ! وهو اليوم رفات سحيق فى رمس عميق فى بلد لا نعرفه !
أتسافر يا تليماك ليأتمر هؤلاء الذئاب ، وقد يسلطون عليك من يفتالك ، ثم
ينستصفون كل مالك بعد ذلك ؟ حاشاك يابنى ! لتبق معنا نحن الذين
أحبيناك واصطفيناك ! فيم تدرع عباب هذا البحر ولا رجاء لك فى مطمح
ولا ثقة لك فى شئ ؟ » .

وأجاب تليماك فى رفق .

« رويدك أنت ياربيبة ! إنى لم أعترم شيئاً من تلقاء نفسى . . . إنها
السماء هى التى توحى إلى ! ولكنى أستحلفك بكل أربابك ألا تقصى شيئاً
مما اعتزمه على أمى إلا بعد أحد عشر يوماً أو اثني عشر يوماً من رحيلى . . .
فإنها لو علمت بسفرى لأظلمت فى عينيها مباحج الحياة وذهبت نفسها على
حسرات » .

وأقسمت يوريكليا بكل أربابها ، وانشئت تهىً دنان الخمر وأحمال
الدقيق .

أما مينرقا ! أما ربة العدالة والحكمة الخالدة ، ذات العينين
الزبرجديتين ، فقد يمت شطر البحر وقصدت إلى المرفأ حيث لقيت
نويمون بن فرونيوس سيد الملاحين ، وسألته إحدى جواريه المنشئات ،
فأعدها واحدة من خيارها . وما كادت ذكاء تلج فى خدر الأفق ، وما كاد
الشفق يبكى فيصبغ بدموعه جبين السماء ، حتى كان الملاحون قد هياؤوا
القلوع ونشروا الشراع ، وخبروا مجاديفهم وحملوا عددهم ، وتزودوا من

السلاح ؛ وكانت مizrqa نفسها تستحثهم ، فسرعان أن تهادت السفينة ، ورقصت نشوى فوق هامات الموج .

وذهبت مizrqa ، فى صورة منظور وفى طليسانه فأشرفت على عصية الخطاب ؛ وتمت بكلمات فانتشر الظلام فوق خيامهم ، ولعب النعاس ملء جفونهم ، وكانت الكؤوس لا تزال تقهقه فى أيديهم ، فسقطت عن غير عمد لتسقى الأرض من تحتهم شراباً !

وظفقوا ، تحت طائف من الكرى ، ينسلون إلى خيامهم . . .

وأدلفت مizrqa نحو القصر لتلقى تلياك .

« تلياك ! هلم ! البدار ! أنت هنا وكل رفاقك فى الفلك المشحون ينتظرونك ! هلم ! يجب ألا نضيع وقتنا سدى »

ونفض تلياك ! وسارت مizrqa ، وسار هو فى أثرها حتى كانا عند سيف البحر ، وحتى أشرفا على السفينة .

« مرحباً يارفاق ! هلموا فاحملوا هذه الدنان وتلك الأحمال إلى

السفينة ! لا أحد يعلم أمر رحلتنا حتى ولا أمى ! إلا ربييتى !

وامثل الملاحون أمر سيدهم ، ثم تقدمت مizrqa فركبت السفينة ومن ورائها ابن أوديسيوس ، وجلست هى عند الدفة ، ونشط البحارة فهاؤوا المركب ، وحدجت المغرب ربة العدالة بعينها الزبرجديتين فهبت النسمات رُخاء ، ورقصت تحتها الأمواج من طرب ، وانتصب تلياك واقفاً يحث رجاله ؛ واضطرب الماء تحت السفينة واصطخب ، وصب القوم دنانا من الخمر تقدمه للآلهة وقرباناً لمizrqa وتحية لا تبى !

واحلو لك الليل وتدجى غيبه ؛ ثم انجاب ظلامه عن فجر مبين !

بيلوس...

تليماك يسأئل نسطور عن أبيه

برزت ذكاء من لجه المشرق فصبغت آرادها ^(١) الذهبية جبين الأفق
النحاسي ، وسكبت الأضواء الجميلة لتهدى إلى السبيل السوى ، والقت
السفينة مراسيها تلقاء بيلوس ، مدينة نليوس ^(٢) ؛ حيث وجدوا القوم على
الشاطئ يُقربون القرايين باسم بوسيدون ، ذى الشعر اللازوردى ، وقد
جلسوا فى صفوف تسعة ، وفى كل صف خمسمائة شيخ عتيد . وذبحت
كل فئة قرايينها : تسعة عجول سمان ذوات خوار ، فأكلوا الحوايا ^(٣) ،
وضحوا بالسواعد والأفخاذ ؛ ثم أقبل تليماك وبين يديه ميزقا تهادى
وتقول :

« تليما خوس ! تشجع يابنى ، ولا تجعل للحياء سبيلا إلى نفسك ،
وتقدم إلى أمير هذه البلدة الصنديد ، نسطور ، فقد تكون لديه أخبار عن
أبيك ، وقد يحلو لك الشكوك التى تخامرك ، وثق أنه لن يخفى عليك من
أمره خافية ، فقد تقدمت به السن ، وهو اليوم أحكم الناس . »
ويقول تليماك :

« أواه يامنطور ! ما أحسبني أقوى على لقاء الرجل ، وأنا من تعرف من
قلة الشأن ورقة الحال . . أنا الفتى الحدث . أننى لى بلقاء الشيخ ذى
التجارب ؟ »

^(١) أشعة الشمس وذكاء هى الشمس .

^(٢) نليوس هو اس بوسيدون (نيتون) إله البحار وألد أعداء أوديسيوس .

^(٣) الأمعاء وماليها والحوار صوت العجول .

وتجيبه ذات العينين الزبرجديتين .

« لا عليك يا بني ! إن هي إلا كلمات تقولها وعلى الله قصد السبيل !
العالم كله يعرف أنك نشأت في ظروف قاهرة ما كان لك بها يدان ؟ »

ودلفت مينرقا ، ودلف في إثرها تليماك ، حتى كانا في وسط القوم ،
وحيث جلس نسطور العظيم بين أبنائه ، وحيث اشتغل أهله بالشواء ،
وهب الجميع للقائهما . وتقدم ابن نسطور الأكبر ، بيزستراتوس ،
فصافحها هاشاً ، وتلقاهما باشاً ، وأجلسهما فوق الفراء المبتوث إلى جنب
أبيه ، وأخيه الأصغر تراسميديس ، وقدم لكل مضغة من حويّة ، ثم كأساً
ذهبية من شراب كريم ، تذوقه قبل أن يجيئ بها ، ثم قال مخاطباً مينرقا .
« مرحباً بك أيها الضيف المكرم ! لقد شرفت في عيد نبتيون ، وبودنا
لو أفرغت باسمه ما في هذه الكأس من شراب صلاة له وزكاة ! ونرجو لو
أشركت في التقدمة زميلك ، فما أحسبه إلا محباً للآلهة ، خابئاً لها »

وتبسمت مينرقا ، وتناولت الكأس في وقار ، وأرسلت هذه الصلاة
باسم رب البحار :

« نبتيون العظيم تقدس اسمك ، وأحاط بالدنيا ملكوتك . . يامنقذ
الضالين ومغيث المتضرعين ، أدرك بلطفك التائبين إليك ، ونجهم من
دأمائك ^(١) ببركة أسمائك ، مولاي وتقبل من نسطور ومن ذريته ، وتقبل
من جميع أهل بيلوس أضحياتهم ، ثم تفضل يامولاي فسدّد خطي
تليماخوس وخطاي إلى ما أقلعنا فوق هذا المركب الشاحب من أجله . .
آمين آمين ! . »

وتناول تليماخوس الكأس بدوره ، ثم أفرغ ما فيها ، وتتم بصلاة
قصيرة ؛ وما كاد يفرغ حتى تفرق المدعوون من أهل بيلوس طاعمين

(١) البحر .

شاكرين ، إلا مينرفا وصاحبها ، وإلى نسطور وولديه . . . ثم قال
نسطور :

« أما وقد فرغنا من غذائنا فماذا أيها الوافدون ؟ من أنتم ؟ ومن أين
حملكم هذا البحر ؟ أتجار أنتم ؟ أم قرصان تملأون الشيطان ذعراً وفزعاً ؟ »
واستجمع تلاميذك شجاعته ، ونفخت فيه مينرفا من روحها ، وتكلم
فقال :

« على هيتك يا ابن نليوس العظيم ، يافخر هيلاس ؛ إني أنا ابن
صديقك وصفيك أوديسيوس ، سعيت إليك من أقصى الأرض أسألك
عن أبي ! أبي ! صفيك وخليلك الذى صال معك تحت أسوار إليوم
وجال ، ثم لا أحد يعرف من أنبائه اليوم شيئاً ! لقد انتهت إلينا أخبار
الأبطال اليونانيين جميعاً وعرفنا مصارعهم ، إلا إياه . . . أين رقد ؟ وأنى
ثوى ؟ وأيان قرت رفاتة إن كان قد شالت نعمته ^(١) ، أو مضى على
وجهه فى الأرض إن كان لا يزال حياً . . . إن الآلهة نفسها لا تشاء أن تدلنا
من أخباره على أثر . ولشد ما أخشى أن يكون قد ثوى هناك . . فى أعماق
مملكه نبتيون ، مع الجميلة امفريت ^(٢) لذلك سعيت إليك يا فخر هيلاس
كما تحدثنى عن أبي ، وكما تذكر لى بعض ما تعرف عما ألم به إن كنت قد
شهدته ، أو تقص على ما عسى أن تكون قد سمعته من بعض حاشيتك التى
تجوب هذه البحار . قل تحدث يانسطور ، ولا تخف عنى شيئاً . . . قل
. . . إني أستحلفك بكل ما كان يفتديكم به فى ساحة إليوم أن تقص على
أبناءه . لقد كان يحبك ويحلك ويوقرك ، فاجز ابنه بعض ذلك »

وكأنما رأى نسطور حلماً لذيذاً فقال :

« ويحك أيها الصديق الشاب ! ما أروع ما هجت ذكريات الماضى
المفعم بالأشجان ! ذكريات السادة الذادة والمغاوير الصناديد ، الذين

(١) شالت نعمته أى مات .

(٢) ملكة البحار وزوجة نبتيون

سقطوا تحت أسوار اليوم العتيدة فأرووا ثرى الميدان بدمائهم وسطروا آية
المجد بُمهَجهم ! إيه اخيلوس ياسليل الآلهة ؛ وبتركأوس يامعجز الأنداد
والأقران ؛ وأجاكس ! أجاكس الذى كان أمةً وحده ! لقد رقدوا
جميعاً تحت قلاع بريام الجبار الشيخ ! ورقد معهم ولدى ! آه ياولدى !
أواه ياقطعة قلبى وفلذة كبدى وثمره حياتى وسؤ ددى ! يا أشجع الشجعان
يا أنتيلوخوس ! أية قصة وأية مأساة !؟ يارعاك الله أيها الشاب المحزون !
أننى لى أن أقص عليك أحداث سنين تسع كانت هموماً متصلة واحزاناً
فاجعة وآلاماً تتسعر فى جميع القلوب !؟ أى لسان ذرب يقص فلا يُملّ ،
وأنى فم رطب يحكى وما يعى ؟ ألا لو أنك أفتت تسمع الأعوام الطوال
فما حسب القصة تنتهى ! القصة التى لم تجد فيها شجاعة الألوف لولا
خدعة أوديسيوس وحيلته ، وطول أناته وهمته ! ولكن حدثنى ببرك أيها
الشباب : إنك حقاً لولد أوديسيوس ؟ أجل ! إنك بملاحك وقسماتك
غصن دوحته ، وأنك بكلماتك. العذاب عسلوج أرومته ! أوه ،
أوديسيوس ! يارفيق الشباب وحييب القلب ! لشد ماتعتلج فى النفس
تلك الخاتمة الهائلة التى قضاها على الأرجيف^(١) سيد الأولب بعد انتصارهم ،
وقبيل أوبتهم ! لقد حنقت مينزفا على ولدئى أتريوس إذ تنازعا فقال قائل
منهما نضحى لربة العدالة عند سيف البحر تلقاء اليوم . ولكن الآخر أبى ،
وأبجر على أن يقدم لها القرابين فى أرجوس ! ياللتعيسين ! أجا ممنون البائس
ومنلوس المسكين ! إنهما لم يصليا لمنيرفا فحاق بها غضبها ، وعبتاً حاولا بعد
ذلك أن يترضاها ! اختلف الأخوان ونام الجند حتى مطلع الفجر ، ثم
أقلع نصف الأسطول فى موج ثائر مصطخب من غضب الآلهة ، بقيادة
أجا ممنون ، وما هى إلا سويغات حتى هدا اليم ونام الموج ؛ وبلغنا تندوس
فذبجنا الأضحيات باسم الآلهة ، وسبحنا لرب البحار نبتيون ، فطامن

(١) جنود أرجوس إحدى مقاطعات اليونان .

العباب ؛ ولكننا ما كنا ندرى ما تنسجه يد جوف ^(١) حولنا . بل لم يكن يخامرنا أقل شك في وصولنا إلى الوطن سالمين . ذلك أن أوجه النظر اختلفت ثمة ، ونشب بين القادة نزاع في الرأي : هل يقلعون من تندوس ، او يتلبثون بها حتى تنجلي العاصفة التي شرعت تهب في عنفوان وشدة ؟ وهنا ، آثر ملاحوايبك أن يعودوا أدراجهم بسفائهم إلى طروادة ، وذلك بحاملة للقائد العام . بيد أنى لم أر هذا الرأي ، بل فررت من العاصفة بسفائى إلى جزيرة لسبوس ولحق بنا ديوميدي ، ثم وصل منلوس في إثره ؛ وأرسينا ثمة ؛ وانتظرنا إذناً من السماء ، أو قل بارقة من الآلهة ، لنقلع بعدها . وكانت العاصفة تشتد وترقص فوقنا ومن تحت أساطيلنا . فلم نر بُدأً من المجازفة وإلا تكسرت جوارينا على الصخور وفوق الأواذى ^(٢) ، . . . ياللهول ! لقد بلغت قلوبنا الحناجر قبل أن نصل إلى جيرىستوس ! حمداً لك يانبتيون وثناء عليك ؛ وقل أن نذبح باسمك ألف قربان من كل عجل جسد وكبش حنيذ ! ولقد فاز ديوميدي فوصل بجنوده سالماً إلى أرجوس ، وكذلك فاز الجبابرة الميرميدون ، جنود أخيل ، بقيادة شبلة العظيم نيو بتوليموس ، فوصلوا إلى أوطانهم غانمين ، ووصل من بعدهم فيلوكتيتيس . . . كذلك وصل أجا ممنون وليته لم يصل ! لاريب أنك سمعت بما حاق به ! لقد قتله المجرم إيجستوس ^(٣) . ولكنه دفع روحه ثمناً لفعلته ؛ إن العيش لم يطب لابن أجاممنون حتى ثار لأبيه ، فانقض كالصاعقة على قاتله وغاله بيده ! ياللفخار أيها الصديق الشاب حين تنتقم لأبيك فتسجل اسمك في سجل الخالدين ! »

وشاع العجب في نفس تليماك ، فقال :
« وليك نسطور ! إنه سيكون انتقاماً عادلاً بحق السماء ، وستغنى

(١) ريوس أوجوبير كما يسميه الرومان وهو كبير الآلهة .

(٢) الأواذى : الأمواج مرده آذى

(٣) يجد القارئ شرح ذلك في كتابنا التالى (أشهر المذاهب المسرحية) إن شاء الله .

الأجيال القادمة بقصته ، وسيرويه الخلف عن السلف . كم ذاوددت لو
مكنت لى الآلهة فى أعناق هذه العصابة الفاجرة من الخطاب الآمين الذين
يدلّون علىّ بعددهم وعددهم ، والذين يقذفون فى وجهى بالإهانة تلى
الإهانة ... وأسفاه ! ليت شعرى لم لا تؤيد الآلهة حتى على باطلهم ؟ لقد
نفد اصطبارى وكلّت حيلتى ... فماذا أعمل ؟ »

وقال نسطور : « أيها الصديق ، لقد أذكرت منى غافلا ... وبحك
تليماخوس ! لقد تناقل الناس ما كان من حماقة هذه الطغمة التى تستبيح
عرض أوديسيوس ، وتستنزف ثروته ... ولكن ، من يدري ؟ هل أمنوا أن
يعود يوماً فيستأصل شأفتهم ، ويُبدل منهم ، وتكون له الكرة عليهم ؟ لقد
كان أبوك العظيم حبيب مينرفا وصفيفها ، وهى لابد آخذة بناصرِكَ كما أخذت
بناصره من قبل ، وهى لابد مدرّكتك وشيكَا ، وحائلة بين أعدائك وأعداء
أييك ، وبين هذه الزبيجة المحرمة »

ويجب تليماك :

« ألا من يدري ؟ إنه لا أمل لى فى ذلك قط إآه أيتها الأحاسيس
الغريبة التى تجيش فى قلبى ! الآلهة فقط هى القادرة على تحقيق ذلك
بمعجزة ! »

وهنا ، حدجته مينرفا بنظرة هائلة من عينيها الزبرجديتين ، وقالت له :
« تليماخوس ! أية كلمة هائلة زل بها لسانك ؟ ما أيسر على الآلهة أن
تقول للمستحيل كن فيكون ! أنا نفسى كم تجشمت أهوالا فى أسفارى ثم
عدت بعناية اربابى سالماً إلى أرض الوطن ؟ بل كم من أناس ظنوا أنهم نجوا
من الموت فى يَم غشيهم بموج كالظُّلل ، فلما وصلوا إلى البر حاقت بهم
مناياهم كما حاقت به منيته أجامنون ، حين خر صريعاً بيد إيجستوس
الأيثم ، ويد زوجه الملكة ^(١) الغادرة الفاجرة الزنيم ! حقاً ، إن الآلهة

(١) كليتمسترا

لا تملك أن تحول بين المرء وبين المنون ما دام قد جاء أجله ، مهما يكن حبيبها
وأعز عبادها عليها . »

وعبس تليماك عبوسة خفيفة ، وقال :
« مهما يكن من الأمر فلندع هذا الآن يامنطور ! إننى لا أمل لى مطلقاً
فى عودة أبى ، ولكنها أفضية من السماء ومقادير أن أذرع وراءه البحار ،
وأن أعود فأسأل فخر اليونان نسطور ، اللبيت الأريب الذى حكم كما هو ماثور
أجيالاً ثلاثة ، والذى يتألق فى عينيه سناء الآلهة . أعود فأسأله كيف قتل
أجاممنون ؟ وكيف تهايا لايحستوس أن يقتله ، وهو من هو أعلى منه نسباً وأعز
حسباً وأشرف قدراً ، وأين كان منلوس الملك شقيقاً أجاممنون ؟ ألم يكن قد عاد
بعد إلى أرض الوطن أم كان لا يزال يطوى الآفاق ، فشجع ذلك إيجستوس
ونفخ فى قلبه ؟ »

وقال نسطور : « رويدك أيها الصديق الشاب فإننى قاص عليك نبأ ما
لم يأتك به علم ... وتالله لو لم يقتل إيجستوس قبل عودة منلوس ، ما أقيم
على رفاته جدث ، وما بكت عليه عين ، ولألقى بدنه النجس لكلاب
البرية وطير الفلاة تنوشه وتمزقه وتتغذى به جزاء فعلته الشنعاء وجرمه الذمى
وخطيئته التى لا تغفر إصنع إلى . . . لقد أناب منلوس عنه حارساً أميناً يسهر
على أمور المملكة . . . ذاك هو أتريدس الحميم ، الذى تغفله إيجستوس ،
واتصل بمولاته سراً وهو لا يدري ، واستطاع أن يدبر معها هذه المؤامرة الشنيعة
التى انتهت بنفى الحارس الأمين ثم قتله فى برية موحشة غالته فيها السباع الضارية
والأوباد^(١) الكاسرة ، حتى إذا خلا لها الجو أسلست له الملكة القياد فحكم
وساد ، وطغى واستبد ، وسلط على البلاد أعواماً سبعة طوالاً . . . كل هذا
والسماء ساهرة لا تغفل ، فقد عاد أورست بن الملك الغائب ، وابن الملكة
الفاجرة ، فأنقذ عرض أبيه وقتل الوحش اللثيم الذى دنس شرف المملكة ،
ولطخ بالوحل هذا المجد الأثيل ، ثم قتل أمه . . . أجل ، قتل أمه وجمع حوله

(١) الوحوش .

الأرجيف البؤساء يحتفلون بهذا النصر ويصلون للآلهة التي أنقذتهم من ذاك الشر . . وبينما هم في أفراحهم وانشراحهم إذا بالملك العظيم يصل بأساطيله بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر . . فلقد أبحرنا (أنا ومنلوس) من طروادة معاً ، وماكدنا نبلغ صنيوم^(١) . أو لمرافئ أثينا ، حتى وقع ما لم يكن لنا بحسبان . . ذلك أن رب الشمس أبوللو غال بسهامه التي لا تطيش ربان الأسطول العظيم فرونتيس ، فاضطر الملك أن يلقي مراسية حتى يصل على صديقه ويقم الشعائر على جثمانه ثم أقلع ، وماكاد ، حتى اضطرب البحر ، وفغزت اللجج أفواهها ، وتدافع الموج حول الأسطول كالجبال ، وعمّ الجو ، وغامت السماء ، وانقضت الصواعق فانشعب الأسطول وتفرقت سفائنه ، وانشطرت وحداته ، فبعضها اتجه برغمه نحو شطآن مصر ، وبعضها غاص إلى الأعماق ، وخمس فقط . . وصلت بعد طول الجهد إلى هنا »

« بنى ... أيها الصديق الشاب ... أخلق بك أن تذهب من فورك إلى منلوس فتسأله عن أبيك ، فلقد لقي الأهوال في البحر ، ولا ريب أنه سمع كثيراً مما جرى فيه من مختلف الأمم في رحلته المشثومة ... هلم ... انطلق إليه ... وإن لم تسعفك سفيتك فإني بمدك بكل ما تحتاج من مركب البر أو البحر ، وهاهم أولاء رجالي معك أينما توجهت ، بل هاهم أولاء أبنائي ، ليصحبك أحدهم ، أو كلهم ، إلى منلوس ، فإن عنده الخبر اليقين » وكانت الشمس قد توارت بالحجاب ، والليل قد نشر ظلامه فوق الطبيعة المنهوكة الخاملة فهضت ابنة زيوس العظيم ، مينرثا الخالدة ، وهي لا تزال في صورة منظور أمير البحر وفي طيلسانه ، فقالت : « مرحى يا فخر هيلاس ! لقد قلت حقاً وتكلمت صدقاً ، هلم ، البدار البدار ، اقطعوا ألسن القرايين^(٢) وأريقوا الخمر باسم الآلهة ، باسم نبتيون قبل كل شيء ... »

(١) sunium

(٢) ذات من التقاليد الشائعة أيام هوميرو أن تقطع ألسن القرايين وتحرق باسم الآلهة لينصرف الجمع .

وانتشر الولدانُ بين المدعوين يصبون الماء على أيديهم بعد أن أدوا التحية
الخميرية المقدسة لأربابهم ، ثم تفرقوا شيعاً ، ونهض تليماك وصاحبه
لينصرفا ، لولا أن صاح بهما نسطور :
« حاشا يارفاق ! انتما ضيفي (١) ، فكيف تبيتان في سفيتكما تحت طل
الليل وهذا بيتي فيه كنٌّ لكما ، وفراش وثير ، وفيه ، والحمد للآلهة ، خير
كثير ، وهؤلاء أبنائي سُمَّارَكما ، وهم ثمة طوع لكما »

وشكرت ميرفا للملك عطفه ثم قالت : « بوركت أيها الملك ، ليق
تليماك هناك ، ولأَمْضُ أنا إلى البحر لأسهر على صوالح مركبي ، ولأُطْمئن
بجأركي ، فكلهم أتراب تليماك ، وكلهم متطوعون لخدمته وفاء وحباً ،
وليس يحمل إلا أن أبيت أنا معهم تلك الليلة ، على أن نقلع صبيحة الغد
إلى كوكون ، ولتأذن فتمنحه عربة وزوجاً من صافئات جياذك ليلحق بنا
ثمة . يصحبه أحد أبنائك ، مادمت قد عرفت فيه ابناً لأعز أحباتك وأوفى
أصدقائك »

ثم حدثت المعجزة ... فإنه ما كادت ميرفا تتم كلامها ، حتى انتفضت
انتفاضة هائلة ، وتحولت من صورة منظور أمير البحر إلى نسر عظيم مهوب
اللفتات ، ما عثم أن ضرب الهواء بخافيتيه ، حتى حلق في السماء ، وغاب
في لانهايتها ، بين دهش القوم ، وشديد حيرتهم »

وتناول نسطور العظيم يد تليماك ، وظل يقلب فيه بصره ، ثم قال :
« أيها الصديق ، لشد ما عظمت منزلتك ، وسمت مكانتك ، حتى
لتكون في رعاية الآلهة وعناية السماء ! هذه دون ريب ابنة سيد الأولب -
الكريمة ميرفا - التي ما وقرت أحداً من أبناء هيلاس كما وقرت أباك :
ولكن أنت ! أنت يامليكة العدالة ! ضرعت إليك أن تتلطفني بنا جميعاً !
امنحني بركاتك . . أنا وأبنائي وشعبي . . اكتفى أسماءهم في الخالدين ،

(١) صيغة المفرد .

وسنصلى لك ونذبح باسمك خَيْرَ بقرة ، لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ؛
مُسَلِّمةً لاشية فيها ؛ منصورة بالورد ، محلاة القرنين بالذهب .

وقبلت مينرفا صلاته ، ولبت دعاءه . ونهض وفي إثره أبناؤه
وأحفاده ففتحت أبواب القصر وتقدمت ندمانة الشراب فقدمت إليه كأساً
من خمرها نسب من عهد أولب ، فأفرغها في الأرض تحية لمينرفا ،
واقتردى به قومه فأفرغوا كؤوسهم ، ثم مضوا إلى غرفاتهم ، ومضى الملك
مع تلياك إلى مخدع وثير ، وفراش من حرير ، وأمر ابنه بزستراتوس فقام
معه ، ثم ذهب حيث وجد الملكة في انتظاره .

ونشرت أورورا^(١) غلالاتها الذهبية في مشرق الأفق ، فاستوى
نسطور على عرشه المرمز المتألق عند بوابة القصر ، حيث كان أبوه نليوس
يجلس كإله للنظر في صوالح العباد ، وأقبل بنوه الستة ومعهم تلياك الذى
جلس جنب أبيهم ، وتحدث إليهم نسطور فقال :

« هلموا يا بني ، لنذبح القربان المقدس باسم مينرفا الكريمة التى باركت
حفلنا أمس ، لينطلق أحدكم إلى الحقل فليحضر ثوراً^(٢) سميناً ،
وليذهب آخر فليدعُ رجال تلياخوس - إلا اثنين - من السفينة ؛ ولينص
ثالث فليات بالصنّاع الفنان (ليرسيوس) ليجلل قرنى القربان بالذهب ،
ولييق الآخرون هنا ، ثم لنحضر كل حاشيتنا من النساء ليكسبن الوليمة بهجة
ورواء »

وأطاع أبناؤه الأوفياء ، وأحضر القربان ، وأقبل الملاحون الأمناء ، ثم
قدم الفنان ليغطى قرنى البهيمة بالذهب ... ثم ... وافت مينرفا ... مينرفا
نفسها لتشهد الطقوس التى تقام باسمها .. ، وبدأ الفنان عمله ، فأخذ
يرقق صفائح الذهب ويثبتها بمهارة في القرنين الصغيرين . وتقدم أرييتوس

(١) دمة الفجر وحادية عربة أبوللو حين يركب الشمس عند الشروق

(٢) كان على نسطور أن يذبح بقرة مسلمة .

بن نسطور وفي إحدى يديه باقة كبيرة من الزهور وفي الأخرى سلة من أفخر أنواع الكعك ، وتقدم ابنه الثاني تراسيميد وفي يده شاطور كبير ليذبح الثور ؛ ووقف قبالة ليرسيوس يتلقى الدم في وعاء كبير .

ونهض نسطور الأب فسيح وصلى أمام نار كبيرة مضرمة ، وتتم باسم مينرثا ، وقذف في اللظى بكعكتين كبيرتين ، وبناصية القربان ، وبقدر قليل من الماء المقدس . وإذا انتهى الجميع من صلاتهم شمر تراسيميد عن ساعده وجزر القربان ، وانكب الجميع يجهزونه ، وكانت يوريديس الجميلة المفتان تُعنى أشد عناية بالفخذين ، فسترتهما بثوب غال من الديباج ، وكان نسطور نفسه ينثر الخمر المقدسة والعطور والأرواح .. ، وهكذا أخذ الجميع في شغلهم ، وشرعوا يلقون في الجمر بالحوايا ، وشرعت پوليكاست تنثر البهار والتوابل .. وتهادى تليماخوس بعد هذا فاستوى إلى جنب الملك ، وانتصب الولدان والندامي يصبون الخمر ، وبدأ الكل يأكلون هنيئاً ويشربون مريئاً .

وما كادوا يفرغون حتى أمر نسطور فهيئت الصافنات الجياد لرحيل تليماخوس ، وأحضر القواص عربية كبيرة مثقلة بكل ما تحتاج الرحلة من زاد وعتاد .

وأخذ تليماك مكانه من العربية الأولى ، واستوى إلى جانبه بيرستراتوس أشجع أبناء نسطور ، ثم سلم تليماك وودع ، وشكر وأثنى ، وجذب أعنة الخيل فانطلقت تهب الريح ، وتبتعد عن بيلوس .. وتطوى الزمان .

وبلغوا . مع مغرب الشمس ، فيريه ، حيث تلقاهم رب البيت بالبشر والترحاب ، وباتوا عنده ، حتى أيقظتهم أورورا المشرقة . فواصلوا رحلتهم إلى أسبرطة .

الخطاب يتآمرون

وصل الركب إلى أسبرطة بعد أن غَوَّر في وهادها وأنجد ، وانطلق تليماك وصاحبه من فورهما إلى باب منلوس الملك حيث وجدا ، لحسن الطالع ، وجوها مسفرة ، وجاهير مستبشرة ، وموسيقى تصدح ، ومنشدين يرددون أناشيدهم ويرسلون أغنياهم ، ووليمة ملكية حافلة اجتمع لها الملك وأبناؤه وخلصاؤه ونداماه ، يأكلون ويشربون ويسمرون ويطربون . . . ماذا ؟ لقد اجتمع القوم من كل حذب ، وأقبلوا من كل صوب ، يحتفلون بابنى الملك : بابنه الذى زوجه أبوه من أجمل غادات أسبرطة وأكثرهن وسامة وقسامة وفتنة ، ابنه ألكثور العظيم ، ثم بابنته المفتان اللعوب الطروب التى رَزَقَهَا على كبر من هيلين ، والتى نافست بجهاها ودلها هرميون ابنة فينوس .

وما كادا يجاوزان الوصيد حتى لمحها إتيون . كبير أمناء الملك ، فانطلق إلى مولاه وحدته عنهما . . « إن لها لمهابة وإن عليهما لرواء ، فهل يأذن لها مولاي ، أم يأمر فتردهما من حيث أقبلا ؟ »

وأولما الملك برأسه الكبير الذى يزيد فى وقاره وحسن سمته شعره الذهبى ، وأمر إتيون أن يذهب إليهما ، فيسير بين أيديهما إليه . . . « . . . إذ كيف يُرد عن طعامى الغرباء ، وقد طعمنا طويلاً زاد الغرباء ؟ » .

ودعا إليه إتيون طائفة من الخدم وذهب إلى الوافدين الكريمين فحيّاً وسلم ، وحل اللجم وأناخ البُهم ، ومضى بهما إلى داخل القصر من طريق يشرف على مكان الحفل وترى منه الجدران التى ازدانت بأحسن زينة ، وقبة العرش التى تلالأت فى الأنوار الوضاعة والسرُج الوهاجة . . . ثم لقيتهما فتيات من عذارى القصر فقدنهما إلى الحلمات المرمية الباذخة فاغتسلا وتضمخا ولبسا ثياباً ملكية ثم ، ذهبا للقاء رب هذه الدار .

وهش الملك لها وبش . وأجلسها إلى جانبه على مقعدين وثيرين .
وهما في دهش من ذاك المنظر العجب فأقبلت فتاة فصبت على أيديهما
الماء ، وذهبت فأحضرت مائدة رائعة منسقة ، عليها قدر غير قليل من افخر
الأشربات وأشهى الآكال ، ووقف خادم آخر يقدم طبقاً بعد طبق ،
وكأساً من ذهب بعد كأس من ذهب ، والملك فيما بين ذلك يبالغ في
إيناسه لها والحفاوة بهما ، ويُنظرهما حتى يفرغا من طعامهما فيخبراه عن
أمرهما . وكان يتلطف فيقدم لهما قطعاً من شوائه بيده .

وسارّ تلياًك صاحبه فقال .

بيزستراتوس يا صديقي ! ما أجمل وما أفخم وما أروع ؟ ! هذا الحفل
الباهر يتألق في الذهب والفضة والعاج والكهرمان ودروع النحاس ! أبداً
ما ترى العين مثل ذلك . ولا تسمع الأذن إلا عن قصر سيد الأولب في
شعاف جبل إيدا ! أية ثروة وأية كتر ؟ !

وسمعه منلوس الملك فقال :

« بنى ! لا تقرن قصر أحد منا - نحن بتي الموتى ؟ ! إلى قصر سيد
الأولب ! وأنت على حق حين ترى أن لا أحد يملك ما أملك أنا من أذخار
وكنوز ، فقد سحت في أقصى الأرض سنين عدداً ، وجمعت الدرر
الغوالى من كل فج . . . من كريت وقبرس وفينيقية ومصر ، ومن أثيوبيا
وإيرمبى . . . ومن صيدا ولوبيه . . . ورؤوس الشاه والوعل هذه . . .
الوعل الوحش السائم . . . والشاه التي تمدنا بخيرها بغير حساب . . . لقد
طوفت في الآفاق وتركت في كل منها ذكرى ، ولا غرو ، فقد نبأكم
آباؤكم أنباء منلوس الملك الذي دك المعازل وهدم القصور . . . ما أنس
لا أنس هذا القصر العتيد الذي جعلت عاليه سافله بما فيه من أذخار
وُقنى ، وددت لو كان في قصرى شئ منها ، وود الإغريق لو حصلوا
في بلادهم جميعاً على بعضها ! هناك ! هناك تحت أسوار طروادة يا صاح !
ياويح نفسى ! يارحمنا للأصدقاء الأحباء الأعزاء الذين ناموا

ثمة ! لشد ما أسلى النفس عنهم بالتأسي ؟ لشد ما يندلع الأسى في قلبي عليهم جميعاً ، ولا سيما صفي وخليلى وأعز أودائي على . . . أوديسيوس ! أوديسيوس الكريم ! ليت شعري يا صديقي فيم شطت بك النوى وطال عليك الأمد ؟ أحي ترزق ؟ أم ثوبت في بطحاء بلقع ؟ يا ويح لك ، ولأبيك الشيخ ، وزوجتك الملتاعة ، وابنك المحزون اليتيم تليماخوس ، الذى غادرته فى المهد ما بلغ الفطام ، إلى حومة الوغى وحلبة الحمام . . . » .

ولم يملك الفتى دموعه حين سمع هذا الهمّاف باسم والده فنشج نشيجاً مؤلماً ، ثم استخرط فى البكاء ، وطفق يُذرى شتونه^(١) فى طرف ثوبه . . . بين دهشة منلوس وحيرته ، وذ هول الحاضرين . وانعقد لسان الملك فلم يسأل الشاب عن حاله ، حتى أقبلت هيلين فجأة ، فتلفت القوم ينظرون إلى هذا الرشا^(٢) الذى يتثنى مياساً فى ظلال من الفتنة ، كأنه ديابا ربة القوس الذهبية . . .

واستوت على عرشها المنضد ، الذى أصلحته يد أدرستا^(٣) وعناية أكليب^(٤) ، ثم أحضرت الطُرف والهدايا واللّهى . . . فهذه سلة من الفضة المزخرفة بالتصاوير هدية من ألكندرا زوج بوليب أميرة طيبة ، عروس المدائن المصرية ؛ وتلك عشرٍ بدر^(٥) من النضار الخالص ، وطستان من الذهب ، ودنان من الإبريز . . . يقدمها كلها ملك أسيرطة إلى زوجه البارعة الرائعة الهيفاء . . . ونظرت هيلين إلى الضيفين الغريبين ، وسألت زوجها :

« ملكى ! نشدتك الآلهة أن تخبرنى من هذان ؟ إن أحدهما شديد الشبه بطفل أوديسيوس . . . الصغير تليماخوس . . . الذى تركه أبوه صبيّاً فى المهد من جراء حرب اليوم المشؤمة . »

(١) دموعه (٢) الغرغال (٣) (٤٠ ٣) من ربات الفنون

(٥) جمع يدرة الصرة من المال النضار الذهب

وقال الملك : « وأنا مثلك يا هيلين ، لقد دار بخلدى ما دار بخلدك من أمر هذا الفتى ! ألا ما أشبه الساقين والساعدين وتفتير العينين واسترسال اللمتين^(١) بما كان لأوديسيوس ؟ ! لقد ذكرت ما قاسى صاحبي من أجلى وفى سبيلى تحت أسوار اليوم ، فسرعان ما رأيت الشاب يبكى ويبكى ويبالغ فى البكاء ، ثم يغلبه حزنه فيخفى وجهه ، وفيه روحه ، فى ثيابه من الهم » .

واتهز ابن نسطور الفرصة فقال :
« حقاً أيها الملك إنه هو ، ولكنه خجول حبيّ ، ولقد أوشك حياؤه أن يمنعه من لقائك ، وقد هاج تباريحه ما ذكرت عن أبيه . أما أنا ، فلانى ابن نسطور صديقك الآخر ، وقد أمرنى أبى أن أصحب تليماخوس إلى هنا عسى أن يسمع خبراً عن أبيه الذى ذهب يذرع الأرض ، ولا يعلم أحد أيا ن قد ذهب . . . وهاك ابنه المكلوم يجتر أشجانه ، وتطحن فؤاده أحزانه » .

وشده البطل - ذو الشعر الكهرمانى - فقال :
« يالآلهة ! أهكذا أفاجأ بقاء ولدى ! أنت ؟ ابن أوديسيوس الذى شقى طويلاً بسببى ، وبذل نفسه من أجلى ، ولا يزال يناضل الولايات من جرائى ؟ كرامة وحباً يا ابن خير الأصدقاء ! لو عرفت أنك تسعى للقائى لشدتُ لك مدينة فى أرجوس ، تنيه على المدائن وتُرهبى على القرى ! ورفعت لك عماد قصر مُنيف طالما كنت إخاله يؤوينا جميعاً فنسعد سعادة لم يحلم بها قوم من قبل ولا من بعد . . . ونلتذ ، أنا وأبوك وأنت ، وجميع أهلى وأهله ، ذكريات الماضى المترع . . . آه يا أوديسيوس ! لقد طاشت الأحلام وذابت الأمانى ، وقست عليك السماء . . . فحرمتك كل شىء ، حتى الأبوة إلى أرض الوطن ! » .

(١) اللمة الشعر الذى يتجاوز سمحة الأدب .

وأثارت كلمات الملك شجون القوم ، فبكى تليماخوس ، وأذرفت الملكة ، وانجس الدمع من عيني بيزستراتوس حين ذكرت طروادة فأذكرته قتل أخيه تحت أسوارها : ثم قال : « حسبك أيها الملك ! لقد تذاكرنا . أنا وصاحبي ، جلائل أعمالك فعرنا فيك المليك الأجل ، والمقدام البطل ، ولكن ماذا تجدى دموعنا ؟ لقد غالت يد الردى أخى وإبن أُمى وأبى فى سبيلك كذلك ! ألا تذكر ؟ أنتيلوخوس ! البطل المغوار والفارس الكرار الذى لم تكتحل عيناي برؤيته ! أوه يا ابن أورورا الغادر ، شلت يدك بما فتكت بأخى ! . . . » .

وتعطف الملك فطيب ابن نسطور بكلمات غاليات ، وأمر الندمان فصب الماء على أيديهم جميعاً ثم أخذوا يتناولون طعامهم ، وصبت هيلين قطرات من طيب مُذهِب للأحزان فى كأس تليماك . وكأس صاحبه ، لا يعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل . وهى قطرات عجيبة أهدتها إلى الملكة ، زوجة (ذون) الأميرة المصرية پوليدامنا ، وكم فى مصر من سحر مبین ! .

وتكلمت هيلين . فذكرت ما كان من أوديسيوس يوم التقى الجمعان عند إليوم ، وكيف استطاع أن يتسلل مستخفياً فى ثياب شحاذ إلى داخل المدينة العتيقة ، وكيف قابلها فى حجرة باريس ليطلعها على خطة اليونانيين ، وما كان من رجائه إياها ألا تفضحه عند أعدائه حتى يعود سالماً إلى معسكره ومخيمه ، وأنها برّت فلم تنبئ أحداً بوجوده . . . ثم رأت أن تتنصل من فضيحة فرارها مع باريس فادعت أنها كانت مسوقة إلى ذلك برغمها لأن فينوس كانت قد سحرتها عن نفسها (لما وعدت به باريس من أنها ستبه أجمل غادات هيلاس إذا هو قضى لها بالتفاحة ^(١)) . «

(١) قضى باريس بالتفاحة لفينوس وحرّم منها منيرفا وحيرا وذلك هو سبب عداتهما للطرواديين
(كناسا قصة الإلياذة)

واخجلتاه ! لقد أزرى بى أن أفر راغمة فأهجر فراشى الطهور وطفلتى
اليافعة إلى بلاد قاصية لا ناقة لى فيها ولا جمل . . . » .

وأعذرَها الملك ثم ذكر أوديسيوس فقال :

« أبداً ما رأيت أثبت جاشاً ولا أربط قلباً من أوديسيوس ؛ وإن أنس
لا أنس يوم الروح الأكبر ، يوم فكر أوديسيوس وفكر ، ثم دبر هذه الحيلة
العجيبة ، حيلة الحصان الهولة الذى قهر لنا طروادة فى يوم أو بعض يوم ،
وقد عيينا بها السنين الطوال . لقد اختبأ داخله فرسان هيلاس^(١)
الصناديد ، وكنت أنا - سقى الله الشباب - واحداً منهم ، فما أنسى قط
حين أقبلت فى عصابة ذوى أيّد من مزاويد الطرواديين (إذ هتف بهم هاتف
إن الحصان يحمل لهم شراً ويطوى لقريتهم ثبوراً) فجعلت أنت تنادين
بأسماء الفرسان اليونانيين واحداً بعد واحد لئرى هل اختبأ منا بداخله
أحد كما تنبأ بذلك المتنثون . تالله لقد كدت ارد عليك نداءك حينما هتفت
باسمى ، وتالله لقد أوشك زميلى ديوميد أن يرد عليك هو الآخر ، لولا أن فطن
أوديسيوس فحذرنا وحبس ألسنتنا الشقشاقة التى كادت توردنا موارد الهلاك ، لو
أن أحدا منا خُدع فنبس - بينت شقة - واحربا ! لقد صممتنا جميعا ولكنك
عاوِدت ، فما كدت تهتفين باسم أنتيكلوس ، حتى أوشك المجنون أن يلينى ، لولا
أن كتم أوديسيوس أنفاسه بكلتا يديه ، حتى لكاد يزهرق روحه ! ولم يعفّه حتى
أيقنا أنك عدت أدراجك ، وعاد معك القوم المنكرون » .

ثم كان الهزيع الأخير من الليل ، فتلطف تليماخوس واستادن الملك فى
الانصراف ليأخذ كل نصيبه من النوم ، فتأذّن ، وأشارت هيلين إلى
وصيفاتها فأهرعن إلى مخادع الأضياف ، فأصلحن فرشها ، وأعددن
الملاحف والوسائد والحشايا . ثم نهض أمين الملك ، ونهض فى إثره بين
استراتوس وتليماخوس ، حتى كان كل فى مخدعه ، وحتى اطمأن كل فى
سريره ، وناما فى حرير وسمور^(٢) .

(١) اسم يونان القديمة وتنطق إيلاس . (٢) نوع من فاخر القماش

وتهاويل غير ذاك من الرقم ومن سندس ومن زرياب^(١)
ونهب الملك والمملكة كذلك فدخل القصر ، واستسما لأطيب الرقاد .

* * *

وذَرَقْنَ أورورا ، ربة الفجر ، في المشرق الوردى ، فهب الملك
وأصلح شأنه ، ورف بازيه الأشهب فوقف على غاربه ، ثم مضى إلى
مجلسه حيث لقي تليماك في انتظاره ، فحيا وجلس وبدأ حديثه فقال :
« أى بنى ! تليماخوس ؟ أيها البطل وسليل البطل ! فيم شددت رحلك
إلى هنا ؟ إلى رحاب ليسديمون^(٢) في فلات البر وسروات البحر ؟ الأمر
عام ، أم لشأن يخصك ويتعلق بشخصك ؟ » .

وأجاب تليماك : « مولاي الملك ! منلوس العظيم ! لقد جئت أتحمس
نخباً عن أبى ، وأقبلت أحدث عن أعدائه الذين آووا إلى بيته فما يريمون ،
يستترفون غلته ، ويهلكون حرثه ، ثم هم مع ذاك ينافس بعضهم بعضاً في
كبر وزهو وخيلاء . . من أجل زوجه ! يا للعار ! إنهم استباحوا كل
شئ . . كل نعمه وكل شائه ، ولم يعفوا آخر الأمر عن عرضه . إنى
استجير بك يا مولاي وأضرع إليك أن تخبرنى عما تعلم من أمر أبى ؟ هل
قضى تحت أسوار اليوم أم غالته يد المنون في ركن آخر من أركان الأرض ؟
لقد كان خليلك و صفيك وآثر أصدقائك وأعز أودائك عليك ، فبكل آلاء
ذلك عندك استحلفك أن تصدقنى . .

ماذا تعرف من أخباره ، وماذا عساك سمعت من أنبائه ؟ »

وتنفس الملك ثم قال :

« يا أرباب الأولب ! أبلغت حقارة نفوسهم أن يفضحوا
أوديسيوس في عرضه ؟ ألا باعوا بما صنعوا ! ألا ما أشبههم بهذه الوعلة

(١) الشعرلان الرومى ولم نجد أحسن منه في ترجمة أبيات هومر . والرقم التوب والرياب الحرير .

(٢) من أسماء أسيرطه .

التي أوجاءها المخاض فولدت في عرين الأسد ، فلما عاد الأسد إلى عرينه لم يبق عليها ولا على أغفارها (١) حنانيك يا آلهة ! زيوس ! مينزقا ! أبوللو (٢) ! أين هو فيبطش بالجبارين كما بطش بغيلو ميليد العتي من قبل ؟ تالله لقد اقتربت ساعتهم وأزفت آزفتهم . . . فطب نفساً يا بني : إني منييك بما علمته عن أيبك من (پروتیوس) راعي الأعماق ، وكاهن الأغوار .

ضلت بنا الفلك بما نسينا من التضحية باسم الآلهة ، فبلغنا شطآن مصر ، ورسونا عند جزيرة فاروس ، بحيث كان في مقدورنا أن نروى من كوثر هذه البلاد التي تجرى من تحتها الأنهار ، ثم لبثنا ثمة عشرين يوماً لا تجرى بنا ريح ، ولا يرفه عنا نسيم ، حتى نفذ الصبر ، وفرغ الزاد ، وظلنا أنه المعاد ، لولا أن رثت لنا إحدى عرائس البحر فبرزت إلينا ، وكانت لنا غوثاً أى غوث . كنت أجلس وحدى في منعرج بأحد أطراف الجزيرة ، وكان بقية صحبى وأكثر الملاحين يرتادون الماء بشصوصهم (٣) عسى أن يحصلوا على سمك طرى يكون غذاء لنا ، إذ برزت عروس الماء (إيدوتيا) الجميلة ، ابنة كاهن الأعماق پروتيوس ، وتهادت حتى كانت تلقائى ، ثم جلست بجانبى ، وحدثتني فقالت : « أيها النازح الغريب ! أكبر الظن أنك مذهوب بك ، أو أن بك مساً ، أو أن طائفاً من الجنون قد ألم بك ، أو أنك قد آثرت الشقاء السرمدى حيث لصقت بأرض هذه الجزيرة فما تنوى مضياً ، ولا تلتمس مخرجاً ولو هلك كل أصحابك ! » .

ولم أبال أنى شديت ، فسألتها قائلاً : حسبك يا ربة ! إني ما لصقت بأرض هذه الجزيرة بأمرى ، ولا أقمت فيها بمرضاتى ، بل كان ذلك قدراً على مقدوراً ؛ ولكن خبرى بحقك ، إذ الآلهة تعلم كل شىء . . . من من

(١) جمع غمر ولد الوعل .

(٢) كان أبوللو من خصوم اليونانيين في حرب طروادة ولذا يدهشنا هذا الدعاء

(٣) الشخص حديد عقفاء يصاد بها السمك (السنارة) .

أرباب السماء يحبسني هنا ؟ . . . وهل مقدور لى أن أرتد إلى وطنى فوق
غوارب هذا اليم المضطرب ؟ . . . » .

وقالت عروس الماء : « أيها النازح الغريب ! سأنبتك فأصدقك !
إنك الآن مقيم بشطآن مصر التى تقع تحت إشراف أبى ، پروتيوس ، سيد
الأعماق ، ورب المياه المصرية ، والمتصل برعايا نبتيون فى أغوار هذا
البحر ، فإذا استطعت أن تتغفله فتقبض عليه وتشد وثاقه ، فإنه يقفك على
أبعاد هذا اليم ، والطريق السوى الذى ينتهى بك سالماً غانماً إلى بلادك .
بل ربما - إذا طلبت إليه ذلك - وقفك على كل ما حصل فى بيتك من خير
أو شر خلال سفرتك الطويلة ، لأنى أعرف أنك صنى السماء وحبيب
الآلهة » .

غير أنى لم أدرك كيف تستطيع أبدى بنى الموتى أن تقبض على هذا الإله
البحرى الكريم ، ولم أخف عليها ذلك ، بل حدثتها به ، وذكرت أنه ربما
ولى دُبْرَه إذا شعر منى بهذه المحاولة فلا أستطيع لقاءه بعدها أبداً . بيد أنها
طمأنتنى ، وذكرت أن أباه يخرج من الأعماق فى الظهيرة إلى جَوْنٍ قريب
حيث يستلقى برهة وسط قطعان كثيفة من عجول البحر ، من ذرارى
هاليسودنا الجميلة ، تأتى هى الأخرى فى أثره لتنام ثمة . . « فإذا كانت
هذه الساعة فإنى سأقودك بنفسى إلى هناك ، وليكن معك من رجالك
ثلاثة هم أشجعهم وأكثرهم قوة ، وسأدلكم على منعرج آمن تنتظرون به
حتى يكون قد غلبه الكرى ، ثم تنقضون عليه فتكبلونه وتشدون وثاقه ،
وإياكم أن يرهبكم بشيء أبداً ، إنه سيكون تارة سيلاً رايماً ، وتارة
سيكون ناراً ترمى بشرركالقصر ، كأنه جمالات صُفر ، وأخرى يكون أفعواناً
هائلاً ينفث السم . . ولكن خذوه أخذاً شديداً ولا تقتلوه قهلكوا . . فإنه
إن آنس فيكم قوة عاد فانتفض إلى صورته الأولى التى رأيتموه عليها ، ثم
ترونه بعد ذلك وقد أسلس قياده ، وهذا وتطامن . . . فإذا فعل ذلك

سألكم عن حاجتكم ، ففكوا وثاقه وأطلقوا سراحه وسلوه ما شئتم ، فإنه مجيبكم عما تسألون » .

✧ ✧ ✧

ثم غابت عروس البحر في طيات الموج ، وتركتني في حيرة مما ذكرت . ثم إنى عدت إلى قمرتي في السفينة ، وعاد كل إلى قمرته ، وبعد أن تعشينا ، وكان الليل قد أرخى سدوله ، نمنا نوماً لا آمناً ولا قريحاً . . . وبزغت أورورا تُمَوِّه المشرق بأصباغ الورد ، فنهضت أصلى للآلهة فوق السيِّف الممتد ، وأبتهل إلى السماء أن توقفنا لما فيه خيرنا ، ثم انشيت فتخيرت من رجالي ثلاثة هم أصلحهم لهذا الأمر ، وهم موضع ثقتي ومعقد رجائي ، وبرزت من الماء عروس الماء ، وأحضرت لنا أربعة من جلود عجول البحر لنلبسها ، ونستخفي بها . ولتم الخدعة على أيها ، وأعدت لنا مهاداً في رمل الشاطئ ، ثم دلفنا نحوها ، ونام كل في مهده . وألقت فوقنا ما معها من الجلود المنتنة التي أَرْوَحَتْ حتى كدنا نخنق براحتها . لولا أن نثرت العروس فوقنا طيباً عبقاً ملاً خياشيمنا وأنقذنا من ضلُول (١) تلك الجلود .

وتلبثنا نرقب اليمَّ حتى برزت عجول البحر فنامت في الجون ، ثم كانت الظهيرة فبرز پروتيوس وطفق يعد قطعانه ، مبتدئاً ، لغفلته ، بنا . وكان إثارة من الشك لم تخامره في حالنا ، فانطرح ونام . وانتهزنا الفرصة ، فانطلقنا نعدو إليه وقبضنا عليه ، وشددنا وثاقه بحيث لا يستطيع إفلاتاً . . . يا عجباً ! لقد انتفض انتفاضة هائلة ، فإذا هو أسد غضنفر ذو لبدة ، ثم انتفض فإذا هو أفعوان أرقم يتحوى ويتحوى . ثم انتفض فصار نمراً رائعاً ذا أنياب ، ثم صار خنزيراً برياً ، فسيلاً رابياً ذا عباب ، فأيكة باسقة ذات غصون وأفنان ! ولما لم يجد بداً من أن يبدو لنا على حقيقته ، انتفض فكان على صورته الأولى ، ثم قال : عَمَرَكَ الله يا ابن أتريوس أى إله جبار حبسك في مياها وسلطك على ، تمسك بى وتشد وثاقى ؟ ماذا

(١) أروح اللحم صار تشاً وصلونه رانخته المشن .

تريد ؟ » فقلت له : « حسبك يارب هذا البحر ، إنك كنت بى عليا !
لقد طال مقامنا بهذه الجزيرة ، ولست أدرى أى إله عادل حبسنا فيها ،
ولأى شىء ؟ ! » . قال پروتيوس : « ويك يا منلوس ! لم لم تُصلِّ لسيد
الأولب ثم تُضحِّ للآلهة يوم غادرت طروادة ؟ لقد غضب الجميع فكتبوا أن
تضل فى تيه هذا البحر حتى تكون تلقاء مصر ، فتقيم ثمة حتى يثوب إليك
رشدك وتصلى للآلهة خاشعاً خائباً متصدعاً ، ثم تذبح القرايين وتجزر
الأضحيات لتعود إلى أوطانك ! وعرانى مما ذكر ما عرانى ، فقلت له :
« الحمد لك أيها الإله القدُّوس . . . سأفعل كل ما تأمرنى به ، ولكن قل
لى بحق ربوبيتك ، هل وصل كل رجالنا إلى أوطانهم سالمين كما تركتهم أنا
وصاحبى نسطور عند طروادة ، أم أن منهم من غرق أو قتل أو مات حتف
أنفه ؟ » .

وكأنما ضاق بى ، ولكنه قال : « ويك يابن أتريوس ما هذه الأسئلة !
أتبتغى أن تقف على كل أسرارى ؟ إذن فاعلم أن أكثر رجالك قد عادوا
سالمين إلى أوطانهم ، وأن قليلا منهم من مات ، ومن هؤلاء قائدان فقط قد
قضيا ، ولا يزال واحد يذرع رُحْب هذا البحر ، ضالا على غير
هدى ! . . . لقد هلك أجاكس بما تحدى الآلهة ، وربما ادعى أنه ناجٍ
برغم السماء من البحر اللجى الذى كان يناوح سفينته ، فبرز نبتيون غاضبا
وشرط السفينة نصفين بضربة قاضية ، من رمحه السمهرى ذى الشُعْب
الثلاث ، ثم رطم حطامها بعد ذلك فوق صخرة موحِشة . . . مسكين
أجاكس ، لقد غص بالأجاج ، وشرَّق بقطرات ثُبات ! . . . أما
أخوك ^(١) فقد نجا ! لقد دفعته موجة هائلة فوق شاطئ (ماليا) . . .
أرض ذيبستيس وإيجستوس . . . ومن ثمة ركب البحر إلى وطنه آمناً ، ألا
كم كان أخوك رائعاً حين وطىء أرض الوطن فراح يقبل رمالها ويناجى
كثبانها ! ألا ليت ما نجا ! لقد لمح أحد الأوغاد من جواسيس إيجستوس

(١) أخاميون .

فانطلق يخبر سيده الذى أعد كميناً من عشرين رجلاً من أفسق رجاله
فاغتالوه كما يذبح العجل ؟ الأوشاب الفجرة ! لقد باءوا بما صنعوا ،
وأبيدوا على بكرة أيهم^(١) . . . » .

- ولم يكذ يصعقنى هذا الخبر حتى خذلتنى رجلاى . وانطرحت
أنقلب فى الرمال من الغم ، وذرفتُ الدمع من الحرفة على أخى ، ولكنه
خاطبني قائلاً : « انهض يا ابن أتريوس ، إنك تبكى ولات حين
بكاء . . . هلم فعد إلى وطنك لترى بعينيك قبره ولتشهد ابنه العظيم
أورست ينتقم له ، ويستأصل شأفة قاتليه » .

وكأنما سرى عني بما قال بعد . فنهضت وساءلته بعد أن شكرته على ما
أنبأني : « . . . إذن من هذا البطل الثالث الذى ما يفتأ يذرع البحر ضالا
فى رحابه ؟ » .

فقال : « ذاك ابن ليرتيس ، وسيد إيثاكا (أوديسيوس) ! لقد
شهدته بعيني حبيساً فى جزيرة عروس الماء كاليبسو . . . لقد حل عليها
ضيفاً برغمه ، بعد أن تحطمت سفائنه ، وهويته عروس الماء ، وهو لا يزال
عندها لا يجد مركباً يحمله إلى وطنه . . . أما أنت أيها الملك منلوس ،
فطوى لك ! إنك ستحيا سعيداً ، ثم تنتقل إلى دار الخلد ونعيم
لا يفنى . . . جنات الإليزيوم^(٢) . . . لا برد ولا زمهرير ، ولا يوم
عبوس قطير ، بل تسقى ، ومن معك من الأناسى من ماء معين ، لا لغو
فيه ولا تأثيم . . . مقام كريم وجنة نعيم ، أنت وغادتك الحسان هيلين ،
يا ذرية زيوس العظيم ! » .

ثم غاص فى اليم . وعدت ورجالى إلى الفلك ، وفى القلب لوعة ؟

(١) أى جميعاً

(٢) هى جنة المردوس فى الميثولوجيا اليونانية .

وبالنفس أسي . وتبلغ كل بلقات ثم أسلمنا عيوننا للكرى ، وكأنا نام
أسطو لنا في ظلام الشاطيء .

* * *

وانبلجت أورورا فنصرت بالورد جبين المشرق . وهبت أنفاس الصباح
المنداة فأهرعنا جميعاً ، وجزرنا الأضاحى باسم الآلهة ، وصلينا لها
خابتين ، وأقمت لأخى رسماً فوق ثرى مصر الخالدة ، ثم هبت الريح رخاء
فنشرنا الشراع وأصلحنا القلوع ، وأقلعنا من فورنا إلى أرض الوطن ، فبلغنا
هيالاس سالمين .

وبعد ! فلتقم معنا ههنا أياماً تفرح وتفرح . ونسعد نحن بك يا ابن أعز
الأصدقاء ، ثم لنعد لك الهدايا واللهي التي تليق بك ، ولتعد إلى وطنك
على عربة فاخرة تجرها ثلاثة من الصافنات الجياد ، ولنزودك بكأس ذهبية
تصب منها قرايين الخمر للآلهة فتذكرنا أبداً .

وشكر تليماك واعتذر ، وأبدى من الحنين إلى وطنه ، وما عليه من
واجبات ، وما ينبغي من عودة ابن مالك بيلوس ، ما برر له أنه يستأذن في
الأوبة . . . فأعذره ملك أسبرطة ، وأهدى إليه كأس فيديموس الفضية ،
ذات الشفة الذهبية ، الكأس الخالدة التي صنعها الإله فلكان بيديه لينفخ
بها ملك سيدونيا .

وهيأ السندل ^(١) مقصفاً فاخراً به جزور وخمر ، وأقبلت أزواجهن
يحملن الخبز ، فأكل الملك ومن معه ورووا .

* * *

هذا ما كان من أمر تليماك ومنلوس .

أما ما كان من أمر الخطاب آئذ ، فقد كانوا يلعبون ويمرحون في بيت

(١) جمع نادل أى خادام الطعام .

ملك إيثاكا ، يلاعب الأسنة ، ويقذفون القرص ، ويتصارعون ويمزحون . كانوا جميعاً يأخذون في هذا اللهو لتزجية الوقت . إلا أنتينوس ويوريماك ، فقد جلسا بمعزل يتحادثان ، إذ أقبل الفتى نومون ابن فرنيوس وقد تغضن جبينه . وانتشرت على أساريه سحابة كثيفة فقال :

« أرايت إذ أعطيت سفينتي للفتى تليماك فإني أريد أن أبحر إلى إيليس لأرعى أفراسا لي اثنتي عشرة لا تزال ترضع أفلاءها ^(١) . متى يرجع من بليوس يا أنتينوس ؟ »

وزرع الرجلان لهذا الخبر ، فلم يكن أحد يعلم أن تليماك قد غادر إيثاكا . بل كانوا يظنونونه يجتر آلامه وأحزانه في أحد الأدغال النامية في مزارعه . قال أنتينوس :

« أحقاً أنه أبحر يانومون ؟ وهل صحبه أحد من ذويه ؟ وعلى سفينتك ؟ سفينتك أنت ؟ وهل أبحر عليها بدون إذن منك ، أم أنت الذي أذنت له أول ما طلبها منك ؟ » .

وأجابه نومون : « بل أبحر عليها بإذني . وماذا عساك كنت صانعاً لو سألك أمير في مثل بأسائه أن يبحر على سفينتك ؟ أكنت ترفض وتثأبي ؟ لقد أبحرت معه ثلة من أشجع البحارين ، كلهم فينان العود ، غريض الشباب ، وقد رأيت معه أمير البحر منظور . ألاكم كان يبدو منظور بهيا وقوراً رائعا ! تالله لقد خلته - بل أكبر ظني أنه - أحد الآلهة ! وكيف لا يكون إلهاً وقد رأيته بعيني هاتين صباح أمس وهو قد أبحر إلى بيلوس قبيل ذلك ، فأنت عاد ؟ »

وفرغ نومون ، وعاد أدراجه إلى دار أبيه ، واستولى الذهول على الرجلين ، وكان الخطأب قد فرغوا مما أخذوا فيه من لهو ولعب ، وجلسوا

(١) العلو ولد العرس لم يبلغ عاما .

يستريحون من التعب ، فيمم شطرهم أنتينوس ، وهو يتميز من الغيظ ، وينقدح الشرر من مقلتيه : فقال :

« يا أرباب السماء ! أفيقوا أيها الرفاق ! عمل باهر جداً ! لقد أبخر الفتى تليماك في عصابة من شباب الملاحين ليؤلب عليكم العالمين ، ويرسل علينا حُسباناً ! الويل له ! أعدوا لى مركباً وعشرين فارساً من أبسل صناديدكم لأفجأ بين أواذتى ساموس وتُتوء إيتاكا التعس الذى ذهب يستروح أخبار أبيه ليسعى إلى حتفه بظلفه . »

وتحمس الملاّ وعلا هتافهم ، وهروا إلى الرحبة الداخلية فى بيت أوديسيوس يتآمرون ، وكان على مقربة منهم الأمين ميدون ، الذى انطلق بدوره ينقل ما عقدوا خناصرهم عليه من إفك إلى الملكة الباكية المفتودة . . . بنلوب - وما كاد يقص عليها ما اعتزموه من قتل تليماك حتى تضعضعت وتخاذلت ومادت من تحتها الأرض ، وتخبّست أنفاسها هنيهة ، ثم سألت ميدون فيم أبخر ولدها . « ألكى ينقرض اسمه من صفحة الوجود ؟ » وأجابها الرجل : « إنه ذهب يتسمّع الأنباء عن أبيه . » ثم ذهب لإطيته وجلسَت الملكة المرزأة لدى الوصيد تبكى وتتنحب ، ومن حولها الغيد الرعايب والعجوز الشمطاء من خادمات القصر ، يعُولن ويكفِكفن . . . قالت الملكة : « ويح لى أيها العذراى ! أبداً ما أحسب واحدة من النساء قد لقيت بعض الذى لقيت مما كتبته على السماء ! لقد فقدت زوجى ، أسد هيلاس ، الكريم أوديسيوس ، الأمير الحلال ، رجل المروءات والفضائل ؛ ثم لم يبق إلا أن يرحل عنى ولدى . . . دون أن أعلم أمر رحيله من إحداكن ، فكنت أحول بينه وبين ما اعتزم ولو أدّيت ثمناً لذلك روحى ! ولكن . . . هيا . . . لتمص دليون - خادمتى الوفية ذات التجاريب - إلى ليرتيس - فلتحدثه عما تآمر الذئاب . وى ! لم يبق إلا أن يقتلوا ولدى وسليل أوديسيوس ! » .

ونهبست يوريكليا مرضع تليماك ، تنثر دموعها وتقول :

« وا أسفاه على أيتها الملكة ! سأعترف بما كان ، ولك أن تقتليني . . . أو تبقى على ! لقد زودت الأمير بكل ما أمر من زاد وخمر ، وأخذ على موثقاً ألا أبوح بسرّه حتى تمضي إثنا عشر يوماً بتمامها . . . حتى أنت يامولاتي ! لقد أمرني ألا أعلمك بشيء ، فاهدئي يامولاتي ولا تضاعفي أحزان القصر بحزن جديد ، وامضي إلى مخدعك فاسترحي ثمة ، ولنصل جميعاً لربة العدالة مينرفا - باللاس الطيبة - أن تصون مولاي الأمير وترعاه ، وتكأله من كل خطر ، وليعد إلى عرش آبائه ليحكم ويعدل ويدبّر شؤون البلاد .

ورقاً الدمع في عيون الحاشية ، ونهضت بنلوب فصعدت إلى الطابق العلوي ، وأمرت بسلة من الكعك فنفتحت بها العذارى قرباناً لمينرفا وتقدمه ، ثم أرسلت هذه الصلاة .

« اسمعي يا ابنة سيد الأولب ! يامينرفا العادلة ! باسم ما ذبح لك أوديسيوس في هذا القصر وما ضحى نضج إليك ونتوسل بك ونصلي لك ، أن تصوني ابنه الأمير ، وأن ترسلي عبوسة من شواطئ غضبك على أعدائه . . . أولئك الأضياف الظالمين . . . آمين » .

وانهمرت الدموع من عيني الملكة فاستجابت مينرفا لصلاتها . ثم علا ضجيج القوم وارتفع صخبهم ، وكان فيهم شاب نزع الثالث في أذنيه صلاة بنلوب فحسبها أشرفت تناغى وتغازل ، فراح يعرض بها في كلمات قوارص ، قطعها عليه أنتينوس بتحذيره القوم ، ونصيحته لهم أن يستعينوا على حزم أمرهم بالكتان .

وتخير أنتينوس عشرين من خيرة رجاله ، ويم بهم شطر البحر ، ثم ركبوا في سفينة أعدت لما اعتزموه من تلصص وقرصنة وفتك إعداداً كافياً ، فنقلت إليها الأسلحة ، وحملت إليها أحمال الزاد والذخيرة . . . وأقلعت ، لا باسم الآلهة مجراها . . . ولا سلكت سبيل الرشاد .

* * *

واضطجعت بنبلوب فى فراش حَشُوهُ فكُرُوهم ، وجاشت فى قلبها
الوساوس ، وطفقت الأوهام تفتك برأسها القلق الحيران بسبب ولدها ،
وما دبر له الكلاب وما كادوا . مسكين أيها الأسد ! لولا قوتك وجبروتك
ما أكثر صائدوك حولك الأحابيل .

وأخذتها سينة من النوم ، فأقبلت مينرفا الكريمة فى رؤيا عجيبة تواسيها
وتُذهب عنها طائف الحزن ، فتزيت بزى الأميرة المفتان ، إفتيا ، ابنة
البطل الكبير إيكاريوس ، ثم وقفت عند رأسها وشرعت ترسل هذه
الأحلام .

أهكذا تنامين ملء عينيك الجميلتين يا بنبلوب العزيزة ؟ ليفرخ روعك ،
وليُصفُ بالك ، فالسماء ترعى ولدك ، وهو عائد إليك عما قريب ! إنه لم
يقترِف شيئاً مما يغضب الآلهة ، ولذا فهي تكلّوه وترعاه وتحفظه ، فقَرِّى
عيناً واسلمى وانعمى ! » .

وتقول بنبلوب إذ هي تحلم .

« من ؟ إفتيا ؟ عجباً ! فيم قدمت يا أختاه وقد ندر ما كنت تُلمين بهذا
القصر ، ألتواسينى وتسلينى ؟ لقد تكاثرت الأحزان على قلبى . وتكسرت
النصال على النصال . . . لقد فقدت زوجى . . . أسد هيلاس وفخر
آرجوس ، وعزى الأبدى ! ثم ها أناذى أنتفض فرقاً على ولدى . . .
ولدى الطرى الفينان ، الذى لا قدرة له ولا احتمال . . . فى هذا البحر
اللجى . . . لقد أقلعت به سفينة كأنها تسبح فى بحر من دمي وأحزاني !
وها قد تعقبه الأشرار فى سفينة أخرى يريدون غيْلته قبل أن يرتد إلى
وطنه ! » .

وتحيبها مينرفا : « لا عليك يا ملكة ، ولا عليه هو الآخر ! إن معه راعياً
يحفظه ويقيه . . . راعياً يتمنى الجميع أن يكونوا فى رعايته أبداً . . .
مينرفا ! إنها أيضاً تبشرك وترفه عنك ، وأنا هنا رسولها إليك . أقبلت
بأمرها أواسيك ! »

وهلعت بنبلوب ثم قالت : « وى ! أما إنك إذن لربة ، وقد كلمتك
الأرباب . . . ألا قصي على إذن ما كان من أمر رجلى ، ألا يزال حياً
يرزق ؟ أم تخطفته يد المنون ؟ »

وتضاحك الشيخ العابس فقال : « لا ! ليس الآن ؟ لن أذكرك إذا
كان رجلك لا يزال حياً أو أنه قد قضى . مالنا ولذلك ؟ »

ثم رقت فى ظلام الغرفة ، وصعدت فى سماء الأحلام .
ونفضت الأم وقد سري عنها بهذا الحلم ، وانجذب كابوس الهم الذى
كان يجثم على قلبها .

* * *

وأقلع الخطاب بفلكهم فى اليم المضطرب ، كل تحدته نفسه بمقتل
تليماخوس ، حتى كانوا عند برزخ أستريس ، بين ساموس وإيثاكا . . .
فارسوا ثمة يتربصون .

أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسو

هبت أورورا من فراش زوجها الدافئ الحبيب (تيتون) فنشرت في المشرفين غلالة سنية من فيض ضوئها ، بينما كان مجلس الآلهة منعقداً في ذروة أولمب ، وقد استوى زيوس على عرشه ، ومنيرفا . . . ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، قائمة بين يديه ، تخصي آلام أوديسيوس ، وتبث أنجعجانه ، وتصور للآلهة صنوف العذاب التي يتجرع غصصها وحده في هذه الجزيرة النائية السحقية ، فتقول :

« أبتاه ! ياسيد أرباب أولمب ! جوف ! إصنع إلى ! وأنتم ياآلهة الخلود ! أعيروني انتباهة واحدة منكم ، فإنها حسبي ! إلى أين تصير الأمور إذن ؟ هاكم قد أصبح أمر الناس فوضى . . . والطغاة يعيشون في الأرض مفسدين ، وكأنكم أغمضتم أعينكم عن خيارهم ، ولم يضركم ألا تكفوا أشرارهم ، فنسيتم الرجل الصالح أوديسيوس الذي طالما منحكم محبته ، والذي بذل لشعبه مهجته . . . يثوى اليوم في تلك الجزيرة الموحشة يجتر همومه ، ويبعث في صفحة السراب آماله . . . كلاً على كاليبسو عروس الماء . . . لا يملك سفينة فيقلع إلى الوطن ، ولا يجد قلباً إلى جانبه فيبثه حزنه ويشتكى إليه لأواءه ، وكأنما لم يكن بحسبه بعض ذلك ، بل تسلط عليه الأقدار القاسية عصبية من الأعداء الألداء يتربصون بابنه الشر ، وينتوون غيَّله ، إذ هو عائد من أقصى الأرض . من أسبرطة وبيبلوس بعد رحلة منهكة باكية ، قام بها يتنسم خبراً عن أبيه ، يشقى في قلبه غلة ، ويرى في نفسه كلوماً ، ويحييها رب السحاب الثقيل .

« أية كلمة هائلة انفرجت عنها شفتاك ياابنتي ؟ أليست تتشوقين إلى عودة أوديسيوس سالماً آمناً فيطش بكل أعدائه ؟ إطمئني إذن ، ولتحرسي

مدخل الكهف فغشته بظلال رائعة ، وظلمة رهيبية ، وقد صنعت جوارح الطير أوكاراً لها في الدوح الداهب في السماء ، ووَكَنتَ^(١) الحدأة بيضها ، وقر الغداف^(٢) جنب صغاره ، وطفقت البومة ترسل في الآفاق صفيها ، وتناثرت فوق الشاطئ أفاحيص^(٣) الطير من كل نوع ؛ وامتدت الكروم عن يمين الكهف وعن شماله مثقلة بالعناقيد ذوات السكر ؛ وتدفقت جداول أربعة عن عيون كوثرية تسقى السندس الجميل المنضّر بأفواف الورد والبنفسج . . . منظر عجب ، وأى منظر عجب يبعث البهجة والانشرح حتى في قلوب سكان السماء !

ووقف هرمز يمتع ناظريه بسحر هذه الجنة ، ثم دلف إلى الكهف ، ولم يكن يسيراً على عروس الماء أن تعرف من هو ، وأى إله خالد طرق بابها . ولو أنها هي أيضاً فرد من أسرة الخالدين . . . ذلك لأن سكان السماء يكونون مثلنا أحياناً ، لا يعرف أحدهم جميع الآخرين ، لبعد الشقة ، ونأى الدار . وانقطاع المزار . . . وأرسل عينيه في كل شق من شقوق الكهف ، بيد أنه لم يقف لأوديسيوس على أثر . . . فأنثنى ، ويمم نحو الشاطئ ، واستوى على صخر عظيم ناتئ ، وشرع ينثر من عينيه الدموع الغوالى ، يطفئ بها في القلب سعيراً سرمدياً يلزمه أبد الدهر . . . وكأنما عرفت كالبسو من هذه الآية أنه هرمز ، فراحت تسائله ، إذ هي مستوية على عرشها الممرد العظيم :

« هرمز ! يا صاحب العصا السحرية ، يامن طالما أحببته وبجلته ، حدثني فيم أقبلت ، وقد ندر ما قدمت إلى هنا . هلم فقل ، سل حاجتك فسأقضيها إن تكن في وسعي . . . ولكن هلم أولاً لنؤدّي لك مراسم القرى وواجبات الضيافة . . . هلم ! »

(١) رقدت عليه .

(٢) الغداف يضم الغين غراب القبط الأسود

(٣) جحور

ومدت عروس الماء سماءاً حافلاً بأشهى ألوان الطعام وصنوف
الشراب ، وأقبل هرمز فاغتنى وروى من هذه المائدة القدسية ، ثم توجه
بالكلام فقال : « تسألين أيتها الربة فيم أقدمت ! ألا فاعلمي أنني ما
أقدمت عن أمرى ، لكنه أبى ، سيد الأولب وكبير الآلهة ، هو الذى
أرسلنى . إذ أية حاجة لآله فى هذه القطعة المنعزلة من الأرض يحيط بها
الملح من كل مكان ، حيث لا عباد ولا خلق يؤتون الزكاة ، ويقىمون
الصلاة ، ولا أثر لعبادة زيوس العظيم ! إنه جل جلاله ، يقول إنك
تحتجزين هنا أتعس مخلوقاته ، البطل الكبير الذى نزع عن بلاده إلى اليوم
فقطى ثمة تسع سنين ثم أبحر عنها بعد سقوطها فى العاشرة مع محاربى
هيلاس الذين تفرقوا فى البحر شذَر مَدَر ، فمنهم من غرق ومنهم من
قتل ، ومنهم من وصل إلى بلاده . . . إلا إياه . . . فقد هلك كل رجاله ،
وقذفه البحر فوق جزيرتك النائية . . . إن جوف يأمرك أن ترديه ، ففى
كتاب المقادير أنه لا يهلك هنا . . . بل يعود إلى بلاده ويلقى بها آله »

وزلزلت كالبسو زلزالا وقامت تنجييه : « ها . . . الظلم والحسد . .
دائماً . . . هذا دأبكم يا آلهة . . . كم تأكل قلوبكم الغيرة كلما ضمت ربة
إلى ذراعها أحد بنى الموتى ! وهل نسيتم يوم ثرتم عندما علقت ديانا ذات
الأصابع الوردية هذا الفتى الجميل أوريون ، وكيف دبّت الغيرة فى قلب
أبوللو ففكر هذا المكر السئ . ودبر قتل الفتى بىدى حبيبته ديانا ! ؟ هل نسيتم
أيضاً كيف أرسل أبوكم جوف إجدى صواعقه على أياسيون المسكين لأن
سيرس ربة الربيع قد هويته فأوته إليها حين شغفها حبا ؟ كذلك أنتم معى
اليوم ، وكذلك أنتم غيرون دائماً ، فما أقساكم إذ تنفسون على رجلى
وحببى ؟ ! لقد أنقذته بنفسى من هذا اليم الذى التقم سفينته بمن فيها حين
شطرها أبوكم بسهمه فى عبثة من عبثاته ! حببى الذى أهواه من أعماق
وأفتديه بروحى ، والذى أمهد له حياة الخلود . . . ولكن . . . وأسفاه !
كيف أطرده من عندى ؟ ويحى ! إن تكن هذه مشيئة زيوس فلاأحدثنَّ

أوديسيوس ليرى بنفسه ، إذ ليس عندي مركب يأمن فيه غائلة هذا البحر
المضطرب ، وإني لناصحة له ، . . . »

وكلمها هرمز فأنذرها غضبة سيد الاولب وحضها أن تعمل على إبحار
البطل .

ورفّ هرمز الرسول في لازورد السماء ، وانطلقت عروس الماء
تبحث في الجزيرة عن أوديسيوس ، حتى لقيته فوق صخرة ساهماً واجماً ،
تقرى قلبه الهواجس ، ويعبث به محال الأمانى ، وقد انهمرت فوق خديه
عبرات حرار ، واللحظات تذبل فتسقط من حياته في ظلام اليأس كأوراق
الخريف ، وقد ملّ هذا المقام الطويل البائس في جوار عروس الماء التي
كانت تلخع عليه حبها البارد ، وتقصره على أن يقضى ليالیه عندها في ذلك
الكهف السحيق . . . وكلما فكر في وطنه ونظر إلى الموج المتوالب في أفق
اليم وعرف أن لا قدرة له عليه بكى وأنّ . وتوجّع وتصدّع ، وأرسل في لا
نهاية الماء والسماء آهات وآهات . . . » .

واقتربت منه عروس الماء في رفق وحَدَب ، وقالت له .

« أيها التعس لا تنتحب هكذا ، ولا تصهر حياتك الغالية في تنور من
الآلام ، هلم . . . هيا إلى عمل مجيد . . . أمامك الدوح العظيم والأيك
الذاهب فاقطع منه ما شئت واصنع لنفسك رَمَماً يحملك فوق هذا العباب
المتلاطم . وسأزودك بكل ما يكفيك من طعام وشراب ؛ وسأمدك بأثواب
جديدة ثقيل الحر والبرد ، وسأسخر لك الريح تُهَدِّدُكَ إلى بلدك
البعيد . . . هذا قضاء من آلهة السماء التي تُقَدِّرُ فتعدل ، وتقضى فلا يرد
لها قضاء . . . » .

وتفرّج أوديسيوس لهذه المفاجأة ثم قال : « أوه يا عروس . بل في الأمر سر
تحاولين إخفاءه عني . . . أى رَمَث يحملني في ذلك البحر اللجى ، وأى
ريح تُسَخِّرُني من أجلى ، وإن السفينة العظيمة لتمخر عبابه وهى لا تدرى

أتسلم أم يكون أهلها من المغرقين ؟ لا . . . لن أفعل حتى تعطيني موثقك ،
وحتى تقسمي القسم العظيم ، أنك لا تبطين لي شراً ولا أذى ! » .

وتبسمت الربة الهيفاء ، وراحت تربت على خديه وهي تقول .

« وبحك ! كيف تسيء بي الظن يا أوديسيوس ؟ أية حجة تملأ بها يديك
على ما قلت ؟ ولكن أصنع إلى . . . أقسم لك بقسم الآلهة في الأرض
والسماء والدار الآخرة . . . بالقسم العظيم الذي يقشعر لذكره كل
شيء . . . إني لم أضمر لك فيما عرضت عليك شراً ولا أذى . . . إن الذي
تبكي من أجله ، أبكي أنا أضعاف ما تبكي من مثله ، فلقد كنت ضرورة
من ضرورات حياتي هنا ، ولقد علق بك قلبي ، وهامت بحبك نفسي ،
وليس قلبي من صخر فيحتمل البعد عنك ، بله الإضرار بك » .

وانطلقا سويا إلى الكهف ، وجلس أوديسيوس فوق المتكأ الذي كان
يجلس عليه هرمز منذ هنيئة ، ثم أقبل جوارى الماء يحملان شيئاً كثيراً من
اللحم والشراب فأكلا ورويا ، ثم شرعت كاليسو تحدته وتقول :

أهكذا يا ابن ليرتيس العليم ، أيها الحكيم الصانع ، لا تفتأ تحن إلى
وطنك ، وتعتزم الرحيل إليه ؟ ولكن . . . لا بأس يا أوديسيوس . .
فوداعاً ! ولكن هل فكرت أيها الرجل في الأهوال الجسام التي لا بد أن
تُصلى بها قبل أن تصل إلى بلادك ؟ أليس خيراً لك أن تظل إلى جانبي ،
وتقاسمني كهفي ، فتصبح من الخالدين . . وتنسى هذا الجلال الفاني الذي لا
ينفك يُصْبِيك ويَسْبِيك ، والذي أحسب جمالي وفتنتي لا يقلان عنه سحراً
إن لم يزيدا عليه فتوناً ؟ ! »

فيجيبها أوديسيوس الحكيم . أيتها الربة المخوفة ! هوّني من حفيظتك !
فأنا أعلم أن بنلوى العزيزة لا تزن من جمالك وفتونك مثقالاً لأنها هالكة ،
ولأنك من الخالدين . بيد أن الذي يُصْبِيني وَيَشُوقُنِي هو وطني . . وطني
الحبيب الذي أحن إليه وأهيم به ، وفي سبيل العودة إليه لن يخيفني هذا اللُج

المتلاطم ، فلقد بلوت الأعاصير في البر والبحرفي خَبَار المعمة ؛ وفي
الفلك تحت كللك الزوبعة . . . إلى ، إلى ياخطوب ، وأقْدِمى بكل
حولك يارزايا . . . »

✧ ✧ ✧

وتوارت الشمس بالحجاب ، وأرخى الليل سدوله فوق الجزيرة .
ونامت الربة في سريرها الوثير ، وهى تفكر طول الليل في هذا الفراق
المفاجئ . . . حتى إذا نُصِرَتْ أورورا بالورد جبين المشرق ، هب الإلفان
وتدثرا ؛ هذا بثوبه الخشن ، وتلك بشفوفها الرقيقة الثلجية الناصعة ، التى
كأنما نسجت من نسجات الصباح العطرى ، وراحت تخطر فيناذة ريانة ،
وقد اتشحت حول وسطها النحيل بقرطق^(١) جميل ، وألقت على رأسها
بجُمَار صفيق رقيق ؛ وقدمت إليه فأساً ذات حدين أحدهما كالساطر ،
ركبت فيها يد من خشب الزيتون المتين ، ثم إزميلاً حاداً مرهفاً . . . وسارت
بين يديه حتى كانا عند غابة عظيمة مُحْرِف^(٢) لا حبة شاحبة ، بسقت فيها
أشجار الحور والسنديان والشرين^(٣) ، وتركته ثمة ، وعادت أدراجها إلى
كهفها .

ولم يهدأ للبطل المسكين بال ، بل شرع من فوره يقطع كل أيكة عظيمة
حتى اجتث عشرين من أكبر دوح الغابة . . . ثم أقبلت كالييسو وقد حملت
إليه آلات ساعدته على تشذيب الشجر ، واستطاع بعد لأى أن يضم بعض
الجدوع إلى بعض ثم كلبها بكلابات كبار ، وأفرغ في وسط الرمث له ولما
يحمل مكاناً أميناً ، كأحسن ما يصنع السفانون . . . ودعم ذلك جميعاً
بألواح ودُسر ، وصنع قِلْعاً وجعل في القلع شراعاً ثم سوى السُكَّان
مكانه ، وجعل في الباطن صباره^(٤) كبيرة تقي الرمث الانقلاب ، ولم

(١) القرطق بضم القاف وفتح الطاء ثوب يشتمل به .

(٢) محرف أى أدركها الخريف ولا حبة لاورق فيها .

(٣) ١١٢ (٤) أو صيرة بفتح الصاد قطعة حجر كبيرة يتزن بها المركب في البحر وتسمى في

مصر (صابورة) .

ينس أن يجدل جوانبه بفروع وأغصان تزيد في قوته وتضاعف من
مُتَّته^(١). وأتم صنع مركبه في أربعة أيام . وأنزله إلى البحر في الخامس ؛
ثم أدخلته عروس الماء حمامها فغسلته وضمخته بالطيوب والعطور ،
وخلعت عليه من ديباج ثمين ، وزودته بزقين من خمر وماء ، وأمدته بشئ
كثير من طعام وأثواب .

وودَّع عروس الماء المحزونة ، وجلس عند السكان ، ثم دفع الرمث في
البحر ، وابتعد رويداً رويداً .

وكان قلبه يفيض بالبشر ، وصدره يمتلئ بالانشراح . . وظل الفلك
الصغير يحرق به سبعة عشر يوماً ، وعيناه في كل ليل ما ترميان عن الثريا في
علياء السماء ، وما تفران تنظران إلى نجوم الدب الأكبر التي تقف
للجبار^(٢) ، بالمرصاد ، كما علمته عروس الماء قبل أن يبرح ، أن يجعل هذا
النجم إلى شماله أبداً .

ثم بدت جبال فيثيا الشَّم كأنها دروع مسرودة فوق صدر الأرض
الشاحبة . . ولكن ! وأسفا ! . لقد كان الجبار نبتيون ثانيا عنانه من
سولما^(٣) فلمح أوديسيوس فوق رمثه يتواثب على هام الموج ، ويقرب
من الشاطئ ، فينجو إلى الأبد من بطشه . . وثار في نفس نبتيون - إله
البحار ، وأعدى أعداء أوديسيوس - ثورة من الغضب ، وظل يعلك هذه
الكلمات في نفسه من فوق بطاح إيثوبيا :

« وى ! أو قد تبدلت مقادير الآلهة إذن ، وتحركت فيهم عواطف
الحنان من أجل هذا الرجل أوديسيوس ، فقفوا فيه ما قفوا لأنهم
يسكنون السماء . ولم يبالوا بي لأنني أسكن الأرض في إيثوبيا ؟ إنه يرى
شاطئ فيثيا قيِّد وثبات منه ، وهو إذا قفز إليه أصبح بنجوة من هموم

(١) قوته

(٢) الجوزاء Orion

(٣) إحدى مقدّمات آسب الصعري وكانت تدعى بيسيدا .

ترصده في كل موجة من موجات هذا اليم . . . ولكن . . . لا . . . لألهبته
بألف سوط عذاب قبل أن يصل إلى البر . . . »

ثم إنه لاعب السحاب بصولجانه ذى الشعب الثلاث - فانعقدت منه
ظلمات في أرجاء السماء ، وطفق يهز أعماق البحر فهاج وماج ، وتلاطم
بالأمواج ، وصباح صبيحة برياح المشرقين ورياح المغربين فاجتمعت إليه من
كل مكان سحيق . . . ثم هبت ريح الشمال الثلجية اللافحة فانطفأ للألاء
النهار ، وأظلم الليل فجأة ، وطفى العباب وشابت نواصيه بالزبد ، وتناوح
الموج الغضوب حول الرمث ، وهلع فؤاد أوديسيوس وأصبح قلبه فارغاً ،
وطاشت أحلامه وذابت أمانيه العذاب ، وراح يتحدث نفسه
هكذا . « يالتعاستى ! أى قدر قاسٍ يترصدنى ؟ لقد أنذرتنى ربة الماء مغبة
هذه الرحلة الهوجاء في البحر فما صدقتها ، وتنبأت عن الشدائد التي تعتور
طريقي إلى الوطن ، فها هي ذى تتحقق ! أية أعاصير هُوج وأى موج
ينتفض من الأعماق قد سلطه جوف على هذا البحر ! بعد لحظة أغوص في
ظلمة هذه القبور التي ينشق عنها الموج ! ألا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً
تحت أسوار اليوم ، يوم أوشكت أن أقضى ثلاثاً في سبيل إنقاذ الأتريدس^(١)
أو يوم أوشكت أن أصرع برماح الطرواديين إذ أدفع جموعهم عن جثة
أخيل ! ! أجل ! لو أننى مت ثمة لأقيمت من أجلى الطقوس الجنائزية ،
وأديت لى الشعائر الدينية ، وذرف فوق قبرى كل يونانى أغلى دموعه وأعز
عبراته . وتفاديت هذه الموتة المجهولة التي تكاد تلتقمنى ! » .

ثم كانت الطامة . . . فإن موجة كالطود فجأت . . . فبعثرت
الرمث . . . وأفلت مقبض السكان من يدي أوديسيوس ، فانتثرت في
اللجة ، ثم غاص في أعماقها ، وعبثا حاول أن يطفو . . . لأن الرياح
تكالبت عليه من كل مكان ، وكلما نجا من موجة فغرت له فاهها موجة
أخرى . . . ثم حدثت المعجزة . . . فقد وسعه بعد لأى وعناء شديد أن يدفع

(١) هو بيت أجامنون .

بنفسه دفعة اليأس إلى السطح ، وأن يملأ رثتيه المنهوكتين بتنفسه من الهواء كانت تمتزج بالماء الأجاج المتصبب من جبينه ، حتى لأوشك أن يغصّ بها . . لولا أن لطفت به الصدفة ، فرأى الرمث قريباً منه ، وقد انتزعت العاصفة قلعته وشراعه ، فسبح إليه وأمسك به ، ثم استوى عليه ، وتركه للموج ، تلعب به واحدة ، وتعبث به أخرى ، وتجتمع عليه الرياح عن شماله ويمينه ، ومن خلفه وقدامه ، حتى قبضَ له القدر عروس الماء (إينو) ابنة قدموس ، التي كانت تعيش في البر ، وتُعرف فيه بهذا الاسم ، والتي اتخذت اسم (ليوكوتيا) بعد أن نزلت إلى البحر وأحبها أحد الآلهة فوهبها الخلود . لقد تفجرت في قلبها شآبيب الرحمة من أجل أوديسيوس لما رآته في هذا الروح الذي ليس كمثله روح ، فسحرت نفسها ، ووثبت على الرمث في صورة غطاس الماء ، ثم قالت له : « ويحك أيها البائس ! فيم أثرت غصبة نبتيون عليك حتى ليتبعك سرباً في شعاب البحر » ويصب عليك كل تلك الرزايا . . ؟ على أنني أنصح لك أن تدفع هذا الرمث ، تتدافعه الرياح حيث تشاء ، ثم تخلع ملابسك ، وتقفز في الماء ، وتسبح بقوة وجلد حتى تصل إلى شطآن فيثيا ، حيث تسلم بنفسك ، وتكون بمأمن من بطش هذا الجبار . خذ ، هالك زناراً^(١) من حرير من حياكة السماء ، لُفّه تحت صدرك ، فإنه يجعلك بمأمن حتى من مجرد التفكير في الموت ، فإذا وصلت سالماً إلى الشاطئ فارمه بكل ما أوتيت من قوة بعيداً في البحر ، وأدر وجهك بمجرد أن تفعل ، بشرط ألا تنظره إليه وهو يسقط في الماء .

وسلمت إليه الزنار الموعود . ثم غاصت في الماء ، وبقي أوديسيوس مكانه في حيرة شديدة وحزن عميق ، ثم أفاق من غشيته وجعل يهرف هكذا : « أوه ! ترى ؟ أذاك شرك آخر تدبره الآلهة لي ! ولكن لا . . لن أبرح مقياً فوق الرمث ، فالبر بعيد ، ولأظل مكاني مادامت الجذوع مكلّبة

(١) الزنار مايلبسه القيس حول أوساطهم .

هكذا ، فإذا حطمتها يدا الحدثان فلا فعلن كما أشار الإله الذى كان يكلمنى منذ لحظة . . . » وما كاد يفرغ حتى أرسل عليه نبتيون موجة جارفة حطمت رمثه ، وتركته عالقاً بأحد الألواح . . . وأسرع أوديسيوس فخلع الرداء الجميل الديباجى الذى خلعتة عليه كاليبسو ، ولف الزنار الموعود حول صدره ، وقذف بنفسه فى الماء . . . وراح يسبح !

وكان نبتيون الجبار يرى بعينه ، ويشفى حرّده ^(١) ، ويقول فى نفسه : « ذُقْ يا أوديسيوس وبال أمرك فى هذا الطوفان ، قبل أن تصل جبالك بجبال الشعب الذى هو حبيب الآلهة ، وسترى ثمة هل تنتهى آلامك ! »

وحثّ مُطيه حتى وصل (إيجيه) حيث يشرف قصره المنيف

* * *

وكانت مينرفا تشهد الكفاح أهائل بين أوديسيوس وبين اليم فأطلعت من عليائها ، وداعبت الرياح حتى استنامت وونت ، ثم أطلقت بوريس ، ريح الصبا الشمالى الكريم فجرى ^(٢) رخاء ، يدفع أمامه البطل العظيم الذى ظل يناضل الموت ويصرعه يومين أطول من دهر ، وليلتين أحلك من غيابة جب ، حتى إذا غابت أورورا فى اليوم الثالث ، استطاع أن يرى الشاطئ على مرمى البصر ، وهو فوق موجة عالية .

ما أحلى الأمل الذى يحيا بعد يأس ! لقد كان أوديسيوس ينظر إلى التلال والجبال القريبة ، والغابة النائمة فى أجيادها ^(٣) ، كما ينظر الأطفال الأبرار إلى أب لهم أنهكتهم العلة . . . ثم تماثل للشفاء بعد تسليم وقنوط ! وتحسس الأرض بقدميه . . . ولكن . . . وأأسفا ! الأعماق الهائلة ! والصخور والأواذى ! والموج الذى يرتطم بأقدام الجبال فيُرغى ويُرَبَد . . .

(١) غصبة وعيظه . (٢) الضمير عائد على بوريس وهو مذكر

(٣) جمع حيد وهو جانب الجبل .

لم يكن بهذه الجهة مرفأ ، ولم تكن تجوس خلالها سفن . . . ولقد ظل أوديسيوس يكافح ويكافح . . . حتى غُمّ على قلبه ، وكاد يتغشاها طائف من الخور ، بعد أمل وطيد !

وجاشت الوسوس في قلبه ، وطفق يحدث نفسه حديث الهلك في هذه اللجة الرجراج . . .

وكان أخوف ما يخشاه أن يدفع الموج على نتوء الصخر فيحطمه ، أو أن تلمحه أمفريت ، زوج نبتيون ، عدوه اللدود ، إله البحر ، فتسلط عليه من وحش الماء ما يلقفه ، أو يقذف به إلى أعماق الأعماق . . . كرة أخرى .

وبينا هو في بحرين من ماء ومن هواجس ، إذا موجة هائلة يضطرب بها اليم فتدفعه في قوة وعنق إلى الشاطئ ذي النتوء والنوى فتكاد تدق عنقه ، وتذرو عظامه ، لولا أن قبض بذراعيه الجبارتين على حافة صخرة بارزة . . . فظل معلقاً ثمة حتى أقبل جبل آخر من موج البحر فاحتمله إلى الأعماق كأنه أحد سراطين الماء . . . وجاهد المسكين ثانية وثالثة حتى تدافع الموج من خلفه فقفذه في مسيل من مسايل الماء المنتشرة على الشاطئ ، وعندها ظن أوديسيوس أنه بنجوة لولا تيار النهر الذي كاد يسلمه بدوره للمحيط ، مما جعله يضرع لرب النهر ويبتهل . . . ويدعو من أعماق قلبه ويصلي ، حتى استجاب الرب الرحيم لصلاته ، فكسر حدة التيار ، وفلّ من غرب الماء ، واستطاع البائس المنهوك أن يصل إحدى العدوتين^(١) وأهياً مهالكاً محطماً . . . فانطرح على الثرى يقبله . . . ويلهث ويقول :

« ويح نفسي ماذا تبتغين يا آلام ! لقد أقبل الليل وأنا عبي مصدع ، ولا قبل لهذه البقية من حشاشتي بطلّ العشاء وصقيع الفجر . . . فلو أنني استطعت أن أتسلق هذا الحدور فالوذ بأجمة من هذه الغابة ! ولكن ! وى ! أي وحش ضار يغتذى بلحمي ثمة ؟ »

(١) الشاطئ

بَيَدَ أَنَّهُ تَوَقَّلَ^(١) فِي الْجَبَلِ حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَضْرِبَ فِي الْغَابَةِ ؛ ثُمَّ كَانَ بَيْنَ زَيْتُونَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مَثْمَرَةٌ ، وَالْأُخْرَى عَقِيمٌ ، كُلُّ مَنَّهُمَا لَفَاءً شَجَرَاءَ حَتَّى لَا تَنْفُذَ الرِّيحُ بَيْنَهُمَا ، وَلَا تَنْسَرِقَ أَشْعَةُ الشَّمْسِ خِلَالَهُمَا ، وَلَا الْمَاءُ بِوَأَصْلِ إِلَى مَنْ اسْتَدْرَى بِهِمَا .

هَنَا . . . وَجَدَ أَوْدَيْسِيُوسَ مَأْمَنَهُ . . . فَرَّاحٌ يَمْهَدُ الْأَرْضَ ، وَيَلْمَلِمُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ قَشٍّ وَيَحْتَطِبُ ، حَتَّى صَنَعَ لِنَفْسِهِ مَنَامَةً تَكْفِي اثْنَيْنِ غَيْرِهِ ، مِنْ الضَّارِبِينَ الْمَشْرِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَدَعَمَ حَفَافِيهَا بِفُرُوعِ الشَّجَرِ . . . ثُمَّ أَسْلَمَ عَيْنِيهِ لِنَوْمٍ هَادئٍ عَمِيقٍ ، سَكَبَتْهُ مِينْرَقًا فِي كُلْتَا مَقْلَتَيْهِ .

فَلَلَهُ مَا كَانَ أَرْوَعَهُ غَارًا فِي هَذَا السَّفْطِ مِنَ الْقَشِّ ، كَشَعْلَةٍ مِنْ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ، يَعْتَرِجُهَا رِيْفٌ شَابٌ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ^(٢)

* * *

نَامَ أَدَيْسِيُوسَ مَنَهُوكَ الْقَوَى .
وَذَهَبَتْ مِينْرَقًا تَدْبِرُ لَهُ أَمْرًا فِي شِيرِيَا ، بِلَدِ السَّلَالَةِ ذَوَى الْمَجْدِ مِنْ أَبْنَاءِ فَيَاشِيَا - مُلُوكِ الْبَحْرِ الَّذِينَ فَرَوْا مِنْ وَجْهِ جِيرَانِهِمُ الْجَبَابِرَةِ السِّيْكَلُوبَسِ - فِي الْعَصْرِ الْخَالِي ، وَنَزَلُوا بِهَذَا الْبَلَدِ ، فَشَادُوا حَصُونَهُ ، وَأَقَامُوا أَسْوَارَهُ ، وَتَوَزَعُوا أَرْضَهُ الْمُخْصَبَةَ ، وَأَسْكَنُوا الدُّورَ وَالْقُصُورَ ، وَأَنْشَأُوا الْمَعَابِدَ لِلْآلِهَةِ عَرَفَانًا وَشُكْرَانًا .

وَقَصَّى مُلْكُهُمْ وَزَعِيمُهُمْ نُوْزَيْتُوسَ . . . ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مِنْ بَعْدِهِ أَلْكِينُوسَ ، حَبِيبَ الْآلِهَةِ ، وَصَفَى السَّمَاءَ .

* * *

كَانَتْ الْأَمِيرَةُ الْحَسَنَاءُ ، نُوْزَيْكَا ، ابْنَةُ أَلْكِينُوسِ الْمَلِكِ ؛ تَغَطُّ كَالْمَلَكِ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ بَيْنَ وَصِيفَتَيْنِ رَاضِعَتَيْنِ مِنْ وَصِيفَاتِهَا ، فَوْقَ سُرِيرٍ وَثِيرٍ فِي مَخْدَعِهَا الْمَلَكِيِّ الْفَاخِرِ .

(١) صَعِدَ .

(٢) كَانَتْ أَلْتَارُ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ أَعْلَى مَا يَعْتَرِجُ بِهِ النَّاسُ .

وكان رِتا ج الباب محكما كأنه رتا ج باب الجنة ، ولكن ذلك لم يقف بسبيل ربة الحكمة مينرفا ، التي خطرت إلى الداخل كنسمة نادية من نسبات الصباح ، ووقفت لدى رأس ابنة الملك تزخرق لها هذا الحلم الفضى الجميل ، وإنما تبدو لها في المنام في صورة صديقتها وأعز أترابها ابنة ديماس الكريم :

« نوزيكا ! يا ويح لك أيتها النؤوم المكسال ! أهكذا تهملين ملابسك وأنت موشكة أن تُزفى إلى عروسك ، وعليها بتوقف مظهرك ومنظرِك ورؤؤك » ورواء حاشيتك ووصيفاتك ؛ كما يتوقف عليها زهو أبويك بين الناس . مع الفلق^(١) فاذهبي بمطارفك^(٢) إلى المغتسل عند ضفة النهر فاغسلها وأعديها ليوم زفافك ، يوم تودعين مَرَح هذا الشباب الخالى ... هلمى ! إني سأعاونك ، أنت ياساحرة ألباب شباب الفياشيين ! سلى أباك أن يرسل لك عربة وبغالاً تحمل ثيابك ومطارفك إلى عُدوة النهر حيث لا شاهد ولا رقيب .

وانفتلت مينرفا ذات العينين الزبرجديتين ، ورقت أسباب السماء حتى كانت فوق ذروة أولب ... حيث السكون والهدوء والصمت ، وحيث مستقر الآلهة ، وحيث لا تعصف ريح ولا يتلبد سحب ولا تدمع عين مطر ... وحيث السماء لا زوردية صافية إلى الأبد .

* * *

وخطرت أورورا فوق عرش المشرق ، وأرسلت من لديها أميناً من رسل النور يداعب جَفْنَي نوزيكا ، فهبت وحلمها الجميل لما يفتأ يساور رأسها الصغير ، وهرعت من فورها تبحث عن أبوايها تقص عليهما أنباء مارأت ، وقد ألفت أمها لدى المدفأة مكبة على غزل من صوف أرجواني موشى

(١) الفلق أول ضياء الصبح .

(٢) جمع مطرف بضم الميم وفتح الراء الرءاء .

بصبح بحرى ، ومن حولها وصيفات يساعدها ... ثم لقيت أباهما يكاد
يذهب ليتأسس مجلس شيوخ المملكة ، فاستوقفته وكلمته فى العربة ،
واحتجت بملابس إخوتها الخمسة الذين يستحيون أن يراقصوا العذارى فى
الحفلات بملابس لا تليق بأبناء الملوك ... وعقد الخجل لسانها فلم تذكر
مطارف زواجها وشفوف^(١) زفافها ... ولم يبخل أبوها بما طلبت ، بل
أمرها بعربة كبيرة عتيقة ودواب ، وزودتها أمها بأشربة وآكال وطيوب
ومروخ^(٢) .

واستوت مع وصيفتها فى العربة وساطت البغال فانطلقت تطوى الرحب
إلى النهر حيث وقفت عند منعرج يترقق فيه بلور الماء ، متدفقا من نبع
قريب ، وسرحت الدواب لترعى العشب الحلو النامى على جفافى الماء ثم
أخذن فى غسل المطارف ونشرها فوق حصباء الشاطئ الذى طممه المد
ونضحه الجزر ، واغتسلن بعد ذلك وتضمخن ، وجلسن على شفا النهر
يتبّلغن بلقبات ، ثم نهضن فتلاعبن بالأكر ، وتغنّت ابنة الملك أعذب
الأغاني ، وتشتت كما تشتت ديانا فى شعاف الجبال وفى يدها القوس
والترس ، تصيد الجنازير فى أريمانت - ومن حولها ربرب من عذارى
الآلهة ، وابنة لا تونا^(٣) تتيه عليهن وتدل .. ، كذا كانت تيمس ابنة
الملك فيكسف لألاؤها جمال الأخريات .

وهنا ... شاءت ميرفا أن يهب أوديسيوس من نومه ، ليشهد الغادة
الهيفاء التى كتب فى الأزل أن تقوده إلى المدينة ، ففما كانت نوزيكا تضرب
الكرة لتلقفها إحدى وصيفاتها ، إذا هى تعلو وتعلو ، ثم تدوم كما يدوم
الطائر فى العباب المصطخب ...

وصرخ العذارى صرخة مدوية ، قانتفض أوديسيوس وهب مذعورا
مشدوها ليرى هذا المنظر العجب !

(١) جمع شف بفتح الشين التوب الرقيق جدا .

(٢) مايسمح به الجسم من ذهن أو طيب أو غيرها .

(٣) هى ديانا .

ويحي ! أيّ بنى الموتى قُطان هنا ؟ ليت شعري أشوس عراييد أم كرام
أجاويد ! أوه ! إنهن عرائس ماء تفرّعن فرجّعت الغيران أصداء
صراخهن ، وتراقص الحجاب فوق العباب من جرّسهن ، وتثنى الكلا نشوة
في الوادي ! لأدلفن نحوهن فأرى إليهن ... » .

وخطر من دغيلته ^(١) خطران الأسد هاجته العاصفة ، فاتقدت في
عينيه جمرتان من غضب ، أو ظمئ فاشتدت غلته إلى الدماء ... ونشط
نحو العذارى ، فما إن رأيته حتى تفرّعن ووّلين مذعورات في الشاطئ ذى
النوى .. إلا نوزيكا ! فقد نفخت فيها ميزقا من روحها ، ونزعت من
فرائصها رجفة الخوف ، فوقفت شماء الأنف تنتظر القادم ...

وارتبك أوديسيوس ولم يدر ماذا يصنع ؟ أيجثو تحت قدميها يتوسل
ويتفرع ، أم يقف عن كذب يستعطف ويسأل الفتاة دثاراً ، ويرجوها أن
تهديه إلى المدينة ! وآثر الثانية فتلطف ، ثم قال :

« عَمْرُكَ الله أيتها الملكة ! أربة من الخالدات ، أم حسناء من بنى
البشر ؟ أضرع إليك أن تجيبي ! فإنك إن كنت ربة ، فما إخالك إلا ديانا ،
ابنة سيد الأولب ! ولم لا ؟ ولك قسامتها ووسامتها ^(٢) وقدها المشوق ،
وحسنها السيوى وجالها الروى ! أما إن كنت إنسيةً فما أسعد آلك بك ،
ولشد ما يزهون بجمالك ! كلما خطرت في ملعب ، أو بدّحت ^(٣) في
مرتع ... ثم ما أسعد الزوج الذى سيحظى بكل ذلك الجمال ، لا يضارعه
في العالم جمال ! ! ألا ما أروع ما تبدين كالنخلة اليانعة في ديلوس عند
مذبح أبوللو ، أيتها الأميرة ! ألاكم أتمنى أن ألتئم قدميك ، لولا ما يتتابنى
من روع ، ويؤودنى من فزع - أنا - ذلك المعنى الحزون المشجون - أنا -
ذلك العيى الموهون الذى أفلت من يد المنون أمس ، بعد إذ كشر له عن

(١) الدغيلة والدغل الشجر الملتف .

(٢) القسامة والوسامة الحسن

(٣) مشية الحسنة

نابه في ذلك البحر اللجى ، بعد سفرة عشرين يوماً من أوجيجيا ، وسط أنواء وأهوال ، وموج كالجبال ، حتى شاءت العناية أن تطرحنى بشطآنكم الحبيبة ! ولست أدري ما خبأت إلى المقادير بعد ! ولكن ، هل ترى مليكتى من أجلى ، وهى أول من لقيت في هذه الأرض بعد طول عنائى ، فترشدنى إلى مدينتها ، وتسبغ على - أسبغت عليها الآلهة كل ما تمنى من هناء وبلهنة^(١) وقران قوى العرى لا تتناول إليه أعين الأعداء - دثاراً يستر سوءى ؟ » .

وأجابته نوزيكا : « حباً أيها الغريب النازح وكرامة ! إن سيالك تدل على نبل ، وسمتك ينبئ عن رفعة ! اصطر على ما ابتلاك به كبير الآلهة الذى بيده العزة ، يشقى من يشاء ، وهب لمن يشاء ، وإنى سأدلك إلى المدينة ، مدينة الفياشين ملوك البحر ، التى أنا ابنة ملكها العظيم ألكينوس ، رب نعمائها ومصدر رخائها » وأومات إلى وصيفاتها تقول : « مكانكن يا عذارى ! فيم فراركن هكذا من إنسى كريم ؟ لقد أبت الآلهة أن تطأ قدم عدو أرض أحبائها ، بلادنا المقدسة ، التى انعزلت فى لجج هذا الخضم عن كل العالم ، إنه غريب يا عذارى ، جَوَّاب آفاق ، قذفه البحر إلى شاطئنا ، فحرباً به ضيفاً من لدن زيوس . وأهلاً بوفادته وسهلاً ... هلم إذن يا صُويحبات فقدمن له طعاماً وشراباً ، ثم هيئن له حماماً فى منرج ظليل عند حفافى النهر » .

وأهرع البنات فقُدن أوديسيوس إلى منرج ذى ظلالٍ وأفياء ، وأعددن له ثوباً وكساءً ، وهياناً طيوباً يتضمخ بها إذا فرغ من حَمَّامه ، وسألن أن يذهبن بعيداً حتى لا يتعرى أمامهن ، إذ « ... لشد ما ينجلى أن أبدو عارياً أمام الخُرْد^(٢) الخفرات ! » ... وتهادين إلى مولاتهن يحدثنها بما قال : بينا هو قد انقذف فى الماء يغسل كاهله وحِقْوِيَّه مما جمد

(١) سعة العيش .

(٢) جمع حريدة . الحساء

عليهما من ملح اللجة ، وصعد فتصمخ بالطيب الثمين ثم أسبغ على بدنه العتيد ذلك الكساء التي منحته إياه نوزيكا، ومن أعجب العجب أن منيرفا نفسها كانت تعاونه في تجميل خلقه ، وتزيل من شعره الكث الأشعث تلبداته التي كانت تبدو كأنها أزهار الخزامى .. ثم هي بعد كل ذلك تضي عليه أمواها من البهاء تظلل بها صدره ، كأنما هي فلكان الصنّاع يعمل حلية من فضة وذهب ، وجلس على الشاطئ في رونق وروعة ، حتى إذا لمحت الأميرة العذراء أذهلها جماله ، وقالت لوصيفاتها . « تالله يا صوبيجات لقد شككت في حال هذا الرجل أول الأمر ، ولقد حسبته آفاقاً من رعا ع الناس ، ولولا أنني أثق أن الآلهة لا تسوق إلى بلادها الحبيبة هذا الصنف من البشر... أما هو الآن ، فلشد ما يشبه أرباب السماء ! أواه ! لوددت أن يكون لي زوج في بهائه وحسن سمته ، على أن تبقى آخر الدهر هنا .. هلم يا وصيفات ... قدمي له طعاماً وخمراً ».

ومددن أمامه سماً كبيراً ، وزودنه بأحسن الأشربات والآكال ، وأخذ أوديسيوس في إكلته حياً متأدباً ، يرد عنه تلك المسبغة الطويلة التي أنهكت قوته .

ووضعت أحمال المطارف والثياب فوق العربة ، وشدت البغال ، واستوت الأميرة في مكانها ، ثم هتفت بأوديسيوس فقالت له « هلم أيها النازح الغريب ! إلى المدينة إذن ! إني سأرشدك إلى قصر أبي ، حيث تلقاه في جمع من أشراف الفياشين وسنطلق وسط هذه الحقول ، وإن لي معك من أجل هذا لكلمة .. لقد بنيت مدينتنا فوق صخرة راسية ، وأحاط بها سور عظيم ، ثم وصل بينها وبين فرضتها جسر ضيق تقرر على جانبه سفائننا ، رابضة متراصة ، ثم ينهض عندها معبد نبتيون العظيم ، وبحواره سوق المدينة المبنى من الحجر الصلد ، حيث تباع حبال السفن وشرائعها ، وحيث تصنع بمخاديفها أو أكثر عتادها - لأن الفياشين لا يعنون بشئ عنايتهم بهذه المنشئات في البحر كالأعلام - والذي أخشاه أن يرانا الناس ثمة فيستهنؤا

بنا ، وقد يسلقوننى بألسنة حداد ، قائلين فى سفاهة وتندر : ترى ؟ من يكون هذا الغريب النجيب الهرقلى الذى يقص أثر الأميرة ابنة الملك ؟ أى صدفة جمعت إشمليها ياترى؟.سرعان ما نراها تزف إليه عروساً كاعباً ... قد يكون ضعيفاً غير محمود من أرض نائية ؛ أو ربما صادت بصلاتها وتسبيحها واحداً من الآلهة أبى من السماء ليقر معها إلى الأبد ... الحمد لله الذى من عليها بزواج سعيد من بلاد غريبة يشيع أمانها الجائحة بعد أن رفضت الأيدى الكثيرة التى تقدمت إليها من أبناء الفياشين « ... هكذا سيقول الناس إن رأونا أيها الرجل ، ولهم الحق ، فأنا نفسى لا اعنى من اللائمة فتاة عذراء تستبيح أن تمشى مكشوفة مع رجل غريب قبيل عرسها ... ولكن أصغ إلى : إنك واصل حتماً إلى أبى إذا اتبعت نصيحتى ... بعد قليل سيصل ركبنا إلى حرج أشجار الحور المقدس النامى فى تخوم الطريق باسم ربة العدالة والحكمة مينرفا .. وإن عنده لنبعاً يترقرق وسط كلاً وأعشاب ... وإن عنده لحديقة أبى ، الجنة الضحوك الغناء ! قف ثمة حتى إذا دخلنا نحن المدينة وحصلنا فى بيت أبى ، فتقدم أنت وادخل المدينة وأسأل أيّاً من الناس ، ولو طفلاً يافعاً ، عن قصر الكينوس الملك ، أبى الحبيب ، فإنه معروف مشهور لا يضارعه منزل آخر فى سعته وأبهته . فإذا دخلته فلا تتوان لحظة ، بل سر قدماً حتى تلقى أمى جالسة لدى الموقد المتأجج بجانب عمود مرمرى ، مكبة على غزلها الصوفى الموشى بأصابع البحر ، ومن حولها وصيفاتها يعاونها فى إنجازها - وقريباً منها ترى أبى مستوياً على عرشه يطعم ويشرب كأحد آلهة الأولمب ... لا تكلمه ... بل جاوزه إلى أمى الرؤوم ، ثم سل حاجتك تقضيها لك ، وتُعِدك إلى وطنك مها كان سحيقاً نائياً ... أثر فى صميمها عامل الخير والمحبة ، تردك إلى آلك وذويك وبلادك ... وسلام عليك »

ثم إنها ألهمت ظهور البغال فانطلقت تعدو مولية عن النهر الذى صار يبتعد قليلاً قليلاً ... وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها ، حتى لاتفوت أوديسيوس من ورائها .

وكانت الشمس تصبغ بالورس^(١) جبين المغرب حينما وصل الركب
إلى حرج مينرثا المقدس ، الذى نهض حوره الباسق فى السماء نضراً ملتفاً
كأنما يناجى ابنة جوف ، المدرعة بإيجيس^(٢) .

وهنا ... وقف أديسيوس يصلى لمينرثا :
« يا ابنة جوف القوى المتعال اسمعى لى ! أصيخى الآن ياربة ! لقد
تصاممت عنى إذ كانت اللجج تلقفنى فراعينى الآن ! اجعلى لى مرفقاً من
أمرى ، وهبى لى محبة ورحمة فى قلوب أبناء الفياشين أنسى بها آلامى ...
آمين آمين !

ولبت ربة الحكمة واستجابت لدعائه ، بيد أنها ، احتراماً لعمها
(نبتيون) الذى لا يفتأ يقتنى أثر أوديسيوس عدوه الأكبر ، لم تشأ أن تبدو
له .

وفرغ أوديسيوس من صلاته ، ووصلت عربة الأميرة إلى القصر فلقبها
إخوتها الأمراء الخمسة الثُجْبُ ، فحلوا الدواب وحملوا المطارف
والثياب ، وصعدت هى إلى مخدعها حيث كانت خادمتها العجوز الشمطاء
(يوريمديوسا) تُعنى بنار المدفأة .

ولم تكد يور ترى سيدتها حتى حيّت وبّيت ، وانطلقت تُعدّ لها وجبة
المساء .

أما أوديسيوس فقد هب من مجلسه ، ويمم شطر المدينة ، وقد نشرت
حوله مينرثا - صفيته الوفية - ظلالاً وغماماً يحجبه عن أعين الناس حتى
لا يضايقه أحدهم بسؤاله من هو وفيم أقبل ومن أى الأقطار جاء ... بيد
أنها لاحت له قبل أن يلج باب المدينة فى هيئة فتاة قروية كاعب تحمل فوق
رأسها جرتها ... وتعمدت أن تعترض طريقه فانهزها فرصة وراح يسألها

(١) الورس صبغ بين الأحمر والأصفر .

(٢) كانت ميترثا تلبس درعا تسمى إيجيس .

هكذا : « يابنية ! أسمحين فتدلينى على بيت رب هذه البلدة ، ألكينوس الكريم ؟ لقد نال منى الونى ^(١) وطول السفر ، وحللت عليكم يا أهل فيشيا الأجويد ضيفاً غير معروف ، من بلد سحيق ، فهل تفعلين ؟ »

وقالت مينرثا - ذات العينين الزبرجديتين - وهى تجيبه :

« حباً أيها الغريب الوقور وكرامة ! سأدلك على بيت ألكينوس بنفسى ، فهو غير بعيد من بيت أبى ... ولكن لى إليك وصية ... أصمت ما دمت سائراً ، ولا تتحدج أحداً بنظرة ، ولا تكلم من أهل هذه البلدة إنسياً ، فقد جبلوا على ازدراء الغرباء وقلة إيلافهم ، وتلقيهم فى فتور وبرود طبع ، وقد أحبه نبتيون رب البحار فأذل لهم أعناق الموج وأسلس لسفهم أعراف الماء ، فهى تخطر فيه كالطير حين تزف أو كالفكرة حين تخطر فى الخلد » .

وتهادت ربة الحكمة بين يديه ، ودلف هو وراءها ، ولم تره جموع البحارة الحاشدة التى كان يسير بينها ، لأن مينرثا ضربت على أعينهم غشاوة عجيبة حجبه عنهم ؛ وكان ينظر بعين الدهش إلى مينائهم وسفائهم ورحبة السوق التى يأوى إليها أبطالهم ، وإلى تلك القلاع المحدقة بالمدينة فى أبهة وجلال ، ثم بلغا بيت الملك ، فقالت مينرثا .

« هاك يابناته القصر الذى سألت أن أدلك عليه . وستلقى فيه رؤساءنا وأمرأنا أصحاب السمو يولون ويقصفون ، فهلم فالقهم بقلب رابط وجأش ثابت ، فهم أشد الناس إعجاباً بشجاع جرئ ، وأكرمهم للاجئ غريب . وستكون الملكة أريتا - سليلة الشرفاء الأجداد آباء ألكينوس الكبير ، وحفيدة المردة الجبابرة من ذرارى نبتيون ^(٢) - أول من تلقى ، إنها سيدة قومها ، وهى محبوبة مبعجلة إلى درجة التقديس من زوجها وأبنائها ومن جميع الفياشيين ملوك البحار ، الذين طالما تككبوا حول موكبها فى

(١) الضعف .

(٢) آثرنا ألا نثبت هنا ما ذكر هومر من انساب بحارة الإملال .

شوارع المدينة هاتفين داعين . . . إنها تجلس وقوراً كإحدى ربات الأولمب
فتغمر بالحبة أبناءها ، وتقضى فيما يشجر بينهم . . . لك الله ياسيدى إن قدر
لك فاستطعت لقاءها . . . إنها إذن تمنحك برّها وتُسبغ عليك من بركاتهما
فتعود إلى بلادك راضياً ، وتلقى آلك وخلانك عزيزاً مكرماً »

ثم غابت مینرفا عن الأنظار ، وغادرت أرض شیریا الحبيبة إلى
مرثون - ومن ثمة رفّت رفّة فكانت في أثينا حيث أوت إلى قدسها الكريم
إركتيوس .

ودخل أوديسيوس قصر الملك هياباً متخاذلاً ، غارقاً في بحر لجى من
الوهم والفكر ، لأنه ما كاد يطأ بقدمه وصيد الباب الكبير حتى بهرهُ لألاء
شديد خاطف ينبعث من الداخل ، يزيد في شدته ولمعانه تلك الجدران
المصنّعة بالنحاس ، يزينها إطار من اللازورد الأزرق ، وتلك الأبواب
الهائلة من الذهب الخالص ، والعماد السامقة من الفضة المجلّوة ، تكللها
تيجان من النّضار الثمين ، وعلى اليمين وعلى الشمال ربضت كلاب من
ذهب ، صنّعة فلكان ، صنّاع السماء الخالد ، وخالد أبد الدهر كل ما
صنعت يدا فلكان . ثم تلى بعد ذلك ردهة فسيحة مترامية صَفّت إلى
جدرانها كراسى كأنها عروش ، وبشت فوقها نمارق ذوات أفواف وشفوف ،
صنّعة وصيفات القصر ، وهنا . . . يولم الملك لأمرء شیریا . . . فيقف
الولدان في جلاليب من ذهب ، وفي يد كل شعلة تسكب الأضواء من
فوق المذبح على جموع الطاعمين في كل ليلة . . . ياللقصر كأنه جنة
الخلد ؟ . . . إن خمسين من غيد شیریا الرعايب يخدمون الملك ثمة ،
يطحنّ القمح وينخلن الدقيق ، ويندفن الصوف ويعملن على التّول . . .
مائسات كأفنان الدوح يداعبن النسيم الحلو . . . حاذقات في الغزل
والنسيج كأحذق ما يكون بحارة شیریا في عنفوان العاصفة . . . قد ثقفن
صناعتن عن مینرفا فافتننّ وأبدعن إبداعاً . ثم تكون البوابة الكبرى ،
حيث فردوس القصر الينع ، وجنته دانية القطوف ، ذات الأسوار المنيعة

المحيطة بهذه الأربعة الأفدنة . . . للآلهة هذا الدوح قد بسق في جنباتها ،
وللآلهة أشجار الرمان المثقلة بأثمارها مفترة عن شفاه الأقاح ^(١) ، وحمرة
الخجل قد خضبت حدود التفاح والكثرى ، وسالت قطرات من الشهد في
ثمرات التين ، وتأججت أنواراً زاهية في أفنان الزيتون . . . فأكهة شهية
جنية لا مقطوعة ولا ممنوعة شتاء وصيفاً ، يانعة أبداً ، تداعبها أنفاس زفير
رب الصبأ فتشيع فيها النضج والفاء ، كلما قطفت يد من جناها ثمرة نمت
مكانها في الحال ثمرات ، فما تقل آخر الدهر قطوفها وما تنقص .

وخلال هذه الجنة المثمرة تمتد الكروم ذوات الأعناب والرطاب
والعناقيد من نور ، بعضها يعصر فتقطر الخمر منه ، وبعضها يجف على
سوقه فيكون زيباً جنياً . . . ثم توشى أطراف الحديقة أحواض من الزهر
المشدب المنسقى ، وتنفجر في وسطها عيان نضاختان ، يترقق الماء من
إحدهما كاللجين في مسایل هذا الروض ، وتندفق مياه الأخرى في نهر
صغير ينساب إلى المدينة من تحت عتبة القصر ، فيرتوى الأهلون منه .

ملك كبير وآلاء وافرة أسبغتها الآلهة على الكينوس الملك !

* * *

وقف أوديسيوس مسبوه اللب ، مشدوه الفكر ، يردد طرفه في هذا
المنظر العجيب ، ثم أفاق فخطر إلى الداخل ، حيث اجتمع زعماء المدينة
وشيوخها يصبون الخمر باسم هرمرسول السماء تقدمةً وقرباناً وصلابةً لخاتم
أرباب الأولب قبل أن يأووا إلى مضاجعهم ، ولم يتلبث عندهم ، بل
تقدم في خطى حثيثة برغم إعيائه ، وكانت ميزقاً تحجبه في ظلال كثيفة من
أعين الملاء ، حتى وصل إلى حيث الملك والملكة ، فكشيف عنه غطاؤه ،
وجثا عند قدمي الملكة يبث شكاته بين دهش الملكين الكريمين وشدة
تحيرهما :

(١) زهر الرمان الأحمر .

« أريتا يا ابنة ركتور صني الآلهة ! أتوسل إليك وإلى المليك العظيم ، وأضيافكم النبلاء ، من الله عليهم ، وضاعف لهم آلاءه ، وأنعم على ذرارهم وألف بين قلوبهم وقلوب رعاياهم ، أتوسل إليك ياسليلة المجد ضارعاً أن تعطيني عليّ ، وأن تُكرّمي مثواي ، وأن تعينيني على الرحلة من فوري إلى بلادى التى أتحرّق إليها شوقاً ، والتي فصلتني عنها أهوال وأهوال ! » .

وساد سكون عميق وصمت ، وظل البطل المسكين جاثياً عند حافة الموقد المتأجج ، حتى تفجرت شآبيب الرحمة والحنان في قلب إخنيس ابن الملك البكر ، فراحت الكلمة الطيبة تتدفق من فمه الجميل العذب في فصاحة وتبيان . وحكمة تقليدية ، وخير ، حيث قال :

« حاشا لمجذك أيها الملك أن تدع هذا الغريب جاثياً هكذا في غبار الموقد وفي وهج النار ، وأن تترك أضيافك ينتظرون أمرك . . . وما تُكلم منهم أحداً ! ألا فخذ بيد الغريب وأقعده مقعد الندى ، ومُرّ النّدمان يسقه من كأس جوف كبير الآلهة ، وحبيب الغرباء وذوى الحاجات ، والنادل يهين له عشاء مما تبقى من وليمة الليلة » .

وما كاد الأمير يفرغ من قوله ، حتى أنهض الملك أوديسيوس وأجلسه على كرسى فخم جانب ولده الحبيب الحكيم لأوداماس . . . ثم أقبلت . لإحدى وصيفات القصر فصبت الماء على يديه من إبريق فضي ، ثم أحضرت مائدة حافلة بأشهى الأكل وأطيب اللذائذ والأشربات ، فأكل أوديسيوس وارتوى ؛ وأمر الملك كبير السقاة بونتونوس ، فزج الراح وقدمها إلى الجميع حيث صبوها مقدمة لجوف رب الصواعق وكبير الآلهة ، وحبيب الغرباء ، وحامى ذوى الحاجات ، ثم شربوا بعد ذلك حتى روّوا .

وقال الملك : « أيها الرؤساء والشيوخ الفياشيون كلمة عفوّ الخاطر ، فاسمعوا وعوا . . . لقد طعمتم جميعاً وستفرون إلى مضاجعكم . ثم نجتمع

عند مطلع الفجر ، نحن ومن لم يحضر من نواب الأمة الأجلاء ، فننظر في شأن هذا اللاجئ الغريب ، بعد أن نضحى للآلهة . . . إنه يطلب أن يعود في حمايتنا إلى وطنه كيما يصل سالماً غانماً من غير أن يمسه أذى ، إلا أن تكون ربات الأقدار قد قضت عليه أمراً ، وإلا أن يكون من أرباب السماء الخالدين . . . لقد وصلت بيننا وبين الآلهة وشائج القرى ، وطلما غشيت مجالسنا وشاركت في ولائنا وهي تبقى على محبتنا ، فلا تمس بأذى رجلاً منا يضرب في الأرض ، وليس ما بيننا وبينها أقل مما بينها وبين السيكلوبس^(١) ، أو المردة الجبابرة ، وفي ذلك فخارنا وهو آية بمجدنا .

ونفض أوديسيوس الحكيم فقال : « غَفْراً غَفْراً أيها الملك ! ما أنا في الآلهة ؟ ! أين لي خلقها السوي ، وكيانها السماوي ؟ بل أنا شقي من أبناء هذه الغبراء ، أثقلت كاهله أحوال هائلة من الكوارث والآلام ، حتى لا يعرف الناس من شقي شقاءه ، ولا من تحمل مصائبه وأرزاءه . . . بل لا صبتها على رأسه الآلهة فصبر وأتاب . . . أوه ! أبداً لا أنتهى إذا سردت عليكم طرفاً يسيراً منها ! ولكن لا داعي الآن . . . أرجوكم . . . أتوسل إليكم . . . دعوني أتبلغ بهذه اللقبات في هذه اللمحة الحاملة من الراحة التي لم أنعم بمثلها منذ بعيد . لشد ما يصرخ الجوع في أذن الجوعان ، ولشد ما يعذبه الطوى ! إنه يلح عليه بكل صنوف الألم حتى ينسيه آلامه وأشجانه . إن له لشهية عالية الصخب تطلب العون في جوار وجنون ، حتى ليضيع في ضجيجها هتاف جميع الآلام ، إلى أن تكتفى . عفواً أيها السادة ! إني أفئأضرك إليكم أن تيسروا لي عوداً أحمد ، وأوبة سالمة ، بعد طول العناء ، والشقاء الذي ليس بعده شقاء ؛ إنه لا أحب إلى من أن أودع الحياة بعد نظرة واحدة أتزودها من أهلي ووطنى . »

(١) الكلوبس أو الكيكلوبس كنطقها اليوناني مارد بعين واحدة .

وتأثر القوم من أجله فأثنوا عليه ، واتفقت آراؤهم على معاونته حتى يعود إلى بلاده ويلقى ذويه ، ثم نهضوا فصبوا خمر الصلاة باسم الآلهة ، وشربوا نخب رب الدار ، ثم تفرقوا إلى منازلهم ؛ إلا أوديسيوس ، فقد ظل جالساً ساهماً واجماً ، كما ظل الملكان إلى جانبه ساهمين واجمين ، والنذل فيما بين ذلك يحملون أطباق المائدة وأكوابها ، حتى إذا فرغوا أخذت الملكة تتحدث إلى أوديسيوس ، وقد لفت نظرها هذا الثوب الفضفاض الذى كان يلتفع به :

« والآن جاءت نوبتى فى التحدث إليك أيهذا الغريب الكريم ، فمن أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأنى لك هذا الصدار وذلك الدثار ؟ ألسنت قد قلت إنك غريب نازح أفلتتلك المنايا فى لجج البحار ؟ » .

وقال أوديسيوس يجيب أريتا : .

« أيتها الملكة ! قد لا افرغ من الحديث إذا حاولت أن أسرد قصتى بحذافيرها ! بل ليس أشقّ على من ذلك ، فقد كرثنى الآلهة بكل أنواع الهموم وصنوف الآلام ، بيد أنى أَلِمَّ بمأساتى الحزنة فى كلمات فأقول : « فى أوجيجيا - إحدى الجزائر القاصية التى لم تطأها قبلى قدم بشر ولم يخطر بها إله - تقيم عروس الماء المفتان - كليسو - البارة الرائعة الصناع ، ابنة أطلس الجبار التى قدّر على أن أكون أول لاجئ إلى جزيرتها بعد أن سلط جوف صواعقه على سفينتى فشطرها وأغرق كل رجالى ، وظللت أنا متشبهاً بالسارية ليالى وأياما ، حتى دفعتنى المقادير فى الليلة العاشرة إلى ساحل الجزيرة حيث آوتنى كليسو الجميلة الريانة ، وأنقذتنى من موة أكيدة ، وأطمعتنى وأكرمت مثنوى - ثم عرضت أن تهبنى الحياة الخالدة والشباب الأبدى ، لولا أننى تأبيت ... ثم أقمت عندها سبع سنوات لم يرقاً طوالها دمعى الذى نضحت به أثوابى وما خلعت على من دثار ... وفى الثامنة أرسل إليها جوف كبير الآلهة من يأمرها بإطلاق سراحى ، فأبحرت على رمث زودته بالأطياب والأذخار ، والأشربات والآكال ، ثم أرسلت بين

يدى ريحاً رخاء ما انفكت تجرى بى فى عباب من بعده عباب ، طيلة سبعة عشر يوماً... وفى الثامن عشر لاحت قمم جبالكم الشَّم فخفق قلبي فرحاً... بيد أنه كان أملاً خلباً لم يطل أمده ... فقد أبى نبتيون الجبار إلا أن يقف بسبيلي ، وإلا أن يرسل ريحاً معاكسة تثير الموج وتهيج اللج ، وتمزق ما التأم منى ومن فلكى الصغير - الذى كان أملى ... ولم يعد بد من أن أكافح الماء . وأذرع اليم بالسباحة ، حتى تضافرت الريح والموج ، فقذفاني إلى ساحلكم ذى الثوى ... ولم احتمل صدمة الصخور ، فنضحني السيل الراي إلى الأعماق كرة ثانية ... وشرعت أكافح مرة أخرى ، حتى نثرتني موجة مُزبدة فى نهر وديع متطامن ... فسبحت إلى إحدى عُدوتيهِ ، واستلقيت على الشاطئ ، خَفِقَ الأحشاء موهون القوى ... وأقبل الليل فتهاكت على نفسى إلى دَغيلة^(١) مهدتها بعساليح وشئ من القش وفروع الشجر ، ونمت ليلاً طويلاً وضُحوة متعبة وظهيرة كلها نصب وإعياء ... ثم أيقظتنى صيحات قريبة مرَّنة ، فإذا ابنتكم الأميرة الحبيبة الحُسان فى ررب من أترابها يتلاعبن كربات الأولب على رمال الشاطئ ... وجشوت تحت قدميها ، ومازلت بها أتملق شبابها الغض بدعوات معسولات ، وأثير نخوة صباها الفينان حتى أمرت لى بطعام شهى وخمر معتقة ، وأشارت إلى منعطف فتوجهت إليه فغسلت ما على جسمي من خَبَث ، ثم منحتني هذا الصدر وذاك الدثار ...

تلك قصتي أسردها عن قلب محزون .. ما فيها أثارة من مَيَّن^(٢) قال الملك : « لشد ما أخطأت بنيتي إذ لم تصحبك إلى هنا فى جملة حشمها مادمت قد رجوتها فى ذلك أول الأمر » .

وقال أوديسيوس^١ يجيبه : « إنها لم تخطئ أيها الملك الكريم وما عليها من ملام . لقد كلمتني فى مثل ذلك فأبيت لأنى خفت أن يسوءك ذلك منها ومنى ، ولأنى أعلم أن الناس فى كل مكان ظنانون قوالون » .

(١) أشجار ملتفة . (٢) كذب

فقال الملك : « كلا أيها السيد ، إن صدرى لا يحمل مثل ذلك القلب التّزق ... إن الرصانة والأناة أفضل ميزات الخلق الكريم ... تالله يا بني إني لأوثرك كولدى ، وبودى لوقبلت فصهرت إلى وتزوجت ابنتى ، وعشت معنا كواحد منا ... وإني - إن رضيت - لمقطعك الأقطاع الشاسعة ومأنحك المنزل الرحب . هذا وليس فى فياشيا كلها من يجسر أن يقسرك على شئ تأباه نفسك . معاذ الله يا بني ... إن هذا إلا عرّض مجرد عرض منى لما أنسته فيك من سمو ورجاحة ونبل ... فإن لم يرّفك أن تفعل ، فإني مُعدّ لك أسباب عودتك غداً ، وستنام ملء عينيك بينما يكون الفلك ينهب اليم ويطوى العباب ، متسرباً فوق الموج بقوة الأذرع الفتية التى تعمل فى المجاديف حتى تصل إلى وطنك سالماً غانماً . بل حتى تصل إلى أبعد منه . ولو إلى ماوراء أيوبيا أبعد الجزائر منا ، حيث يحمل بحارتنا ردمنتوس ^(١) ذا الشعر الذهبى لزيارة تتيوس ^(٢) جبار الأرض ... إنهم يبحرون به إلى هذه الجزيرة ويعودون فى يوم فى غير عناء أو إعياء ، وستعرف سبب فخارى بسفائنى وبحارتى الذين يذرعون البحار ويضربون أكبادها حين يبحرون بك » .

وشاع البشرى أسارىر أوديسيوس ذى التجارب فقال : « أيها الأب الخالد ! لله محامدك الغرّ ! أنجز يا مولاي يسرّ ذكرك فى البلاد ، وألق أهلى وأنشق نسمة من وطنى » .

هكذا تشقق الحديث بينهما ..
ثم أمرت الملكة بعض وصيفات القصر فأعددن فراشاً وثيراً فى الرواق

(١) ابن زيوس من زوجته أوربا وقاصى العدالة فى الدار الآخرة « هيدز »

(٢) أحد مردة طار طاروس ويغطى جسمه مساحة تسعة أمدنة .

ذى الأعمدة ، وهيأنه بوسائد من دِمَقَس ^(١) ، وبثثن فوقه الأرائك
والحشايا ، وعلقن الستائر والأسجاف ، ووضعن البرانس ^(٢)
واللحف ... وكانت كل منهن تحمل شعلة كبيرة تتوهج في جوانب
القصر ... حتى إذا فرغن من كل شئ ، دعون أوديسيوس في أدب وظرف
أن ينهض لينام ... وغفا بطل هيلاس ... وأسلم عينيه لأحلام سعيدة .
ونهض الملك والمكلة لينعما بطيب المنام .

(١) حرير .

(٢) البرانس بمعناه المعروف عربى فصيح .

حفل أولمبي

وصبغت أورورا بمثل حمرة الخجل وجنات المشرقين ، فاستيقظ الملك ، وهب أوديسيوس من نومه ؛ وذهبا إلى الشاطئ حيث تُلقي السفن مراسيها ... وهناك ... فوق مقعد حجري أملس ، جلسا يتحدثان ، بينما كانت مینرًا تدق البشائر في شوارع المدينة ، وقد بدت في صورة منادى الملك وطيلسانه ، تدعو سادات الفياشين وشيوخهم إلى مجلس الملك للنظر في أمر هذا الغريب الكريم اللاجئ الذي حل عليه ضيفاً ... « كأحد آلهة الأولمب ، برغم ضربه الطويل في عرض البحار » .

وازدحم سادات المدينة وأشياخها في قاعة المجلس ، وكانوا يقبلون في أوديسيوس نظرات الإعجاب والدهش ، وكيف لا ؟ وهذى مینرًا قد أضفت على صدره الرحب وكتفيه العظيمتين ، وجسمه السامق ، رؤاءً علوياً من الأبهة والجلال ، كان ينعكس وقاراً ورهبة في قلوب الفياشين .

ولما انتظم عقد القوم نهض الكينوس الملك ، فقال : ياسادة الفياشين وشيوخ الأمة ، كلمة مرتجلة ، فاسمعوا وعوا : لقد حل هذا الضيف الكريم الذي لا أذكر اسمه في بيتي بعد أن شَرَّق في آفاق العالم وغَرَّب ؛ وإنه ليرجو أن تمدوا له يد المعونة فيعود أدراجه إلى بلاده في كنفكم سالماً ، إذ طالما كان هذا دأبكم . إكرام الضيف ، والإحسان إلى الغرباء اللاجئين ، وردُّهم إلى ديارهم مهما كانت سحيفة آمنين .. فالبدارَ إذن .. هلموا إلى سفائنكم فتخيروا أحسنها حالا ، وأصلحها لمجالدة هذا البحر ، ولتُعدوا لها نخبة ذوى بأس من أصلب فتيانكم عوداً وأشدَّهم مراساً . إثنين وخمسين عدداً من أئنيع زهرات شباب هذه الأمة ، ثم تعالوا إلىّ فإنني مولم لكم تحية لهذا الضيف ، فلا يتأخر منكم أحد أبداً ... وليحضر معكم أحب

المنشدين دمودوكوس الإلهي ، صاحب الألحان الخالدة ، والصوت
السماوي الساحر ، فليشف آذاننا بحلو أنغامه التي لا يقدر عليها إلا هو .. »
وانصرف الملك وفي إثره شيوخ الفياشين ، وانطلق رسول إلى منزل
المنشد دمودوكوس الإلهي ، واختيرت النخبة ذات البأس من شباب
الملاحين وأُعدت السفينة في مكانها الأمين من اليم ، فُنُصبت القلوع ونُشر
الشراع وصُفَّت المجاديف .. ثم مضى الجميع إلى بيت الملك ، حيث كانت
الجاهير الحاشدة تَكْظُ الأبهاء ، وتزدحم في الدهاليز ، وتملأ الصالة
الكبرى ... وجئ بالذبائح ... فهذان ثوران كبيران ذوا خُوار ... وهذي
اثنتا عشرة شاة سميئة ، وتلك أربعة خنازير كَنَاز ^(١) ما كادت تَذبح وتنتزع
أنيابها حتى أخذ الجميع فيما أقبلوا له من طعام وشراب ... ثم أقبل منادى
الملك يقود المنشد الإلهي الأعمى ، رخيم الصوت ، صفى رباب الفنون ،
اللائي عدلن له بقسطين من خير ومن شر سواء ، فوهبته التطريب المعجز ،
وسلبته النور من عينيه العزيزتين ... وأُقيم له عرش مُمَرَّد في وسط الصالة
الكبرى ، عند عمود مرمرى عظيم ، فاستوى عليه ، وأعلمه يونتونوس
بمكان قيثارته المعلقة فوق رأسه ، ووضع بين يديه سلة من طعام ومزة ^(٢) .
وما كادوا يفرغون من آكلهم حتى رقصت عرائس الفنون في فم المنشد
المطرب . فأرسل غناء سحر ألباب الناس ، ورقى بها إلى أثير الآلهة في قبة
السماء ... لقد تغنى هذه الأغنية التي تروى النزاع الذي شجر بين أخيل بن
بليوس ، وبين أوديسيوس بن ليرتيس في أثناء الوليمة الإلهية ، والذي
جاءت به نبوءة أبوللو (في دلفوس) حينما استوحاه أجاممنون عن يوم
سقوط طروادة في أيدي اليونانيين .

وسكت المغنى ، ودفن أوديسيوس وجهه الساهم في ذيل ثوبه
الأرجواني الفضفاض خشية أن يلحظه أحد ... وطفق يبكي ...

(١) كَنَاز جمع مفردة مثله كثيرة الشحم واللحم .

(٢) خمر .

ويستخرط في البكاء ثم كشف عن جبينه ، وسقى الثرى كأساً من خمرٍ صلاةً للآلهة ... ثم عاد إلى بكائه حينما واصل المطرب غناؤه ، وكان يرسل عبراته في كسائه غير ملحوظ من أحد إلا من ألكينوس ، الذى عز عليه ما رأى وما سمع من عبرات ضيفه ، ومن تنهداته فقال : « حسبنا ياسادة ما طعمنا وما سمعنا ... هلموا جميعاً نشهد الضيف الكريم بعض ألعابنا - ليذكر في العالمين أن الفياشيين خير من يجرى ومن يشب ، وأمهر الناس في الملاكمة والمصارعة ! » .

ونهض الملك ، ونهض فى إثره كل أضيفه ، وتقدم المنادى فقاد دمودوكوس ، وقصد الجميع إلى ساحة السوق الكبرى ، حيث احتشدت كواكب الشجعان والشباب اليافع من ذوى القوى والفتوة والبأس الشديد ، أتوا من كل حذب لهذا الحفل المشهود ... وفى وسط الحلقة وقف الأبطال آكرون وأوكيال وإلاتريوس ونوت وپرمينوس ؛ ثم وقف خلفهم الأبطال أنخيال وأنايسين وإرتيموس وپونت وپرور وأمفيال وتون ... ثم نهض حليف مارس المهبوب يوريالوس ، ثم فخر شباب الفياشيين نوبوليد ... وقف كل هؤلاء ... ثم هب أبناء الملك الثلاثة ... لوداماس ولده البكر ، ثم هاليوس ، ثم كليتون الأصغر ، وشارك نفر من أولاء فى سباق الجرى ، فأخذوا أهبتهم ، ثم انطلقوا يثيرون التراب فى إثر كليتون - ابن الملك - الذى شآهم ^(١) جميعاً ، وتركهم يتعثرون وراءه كما تتعثر الثيران فى إثر البغال ... وتلقاهم النظارة بالهتاف العالى والتصفيق الشديد ، ثم كانت المصارعة التى برز فيها يوريالوس على كل أقرانه ، كما برز أمفيال فى الوثب الطويل ، وألاتريوس فى قذف القرص ... أما فى الملاكمة فقد تفوق لوداما النبيل ابن ملك شيريا ، وكان فوزه مسك ختام المباريات ، ثم نهض لوداماس فقال :

(١) سبهم .

والآن أيها الأصدقاء نسأل ضيفنا الكريم عما إذا كان يحذق شيئاً يفخر به من هذه الألعاب ؟ ! إنه لا يزال غريز الشباب ، بادی الفتوة ، مكتنر العضلات ، عظيم منّة الساقين والفخذين ، مفتول الساعدين وإن له لعناً أى عنق . . . كل ذلك بالرغم من بدوات الضنى وأمارات العناء ، وما حطم البحر من جسمه الخصب ، وهل أهلك لجسوم الرجال من جبال العباب !! » .

وكأنما راقّت هذه الكلمات البطل يويالوس فطلب إلى لوداماس أن يدعو الضيف إلى النزال ، فنهض لوداماس ثانية وقال : « هلم أيها الضيف فأرنا هل تجيد من هذه الألعاب شيئاً ؟ ما استحق أن يعيش من لم يعمل بيديه ويسع بساقيه . . . هلم ؟ حاول إذن ! فإم احترازك هكذا ؟ إنا لن نؤخر قط ، فالسفينه معدة والملاحون على أهبة » .

وقال أوديسيوس يجيبه : « أتخذنى هزواً حين تدعونى للعب يالوداماس ؟ ! أى لهو وأى لعب وأنا نضو أسقام وطريح آلام ، لا أمل له إلا أن يعود إلى بلاده ، وفى ذلك ما يضرع للملك وللناس ! » .

وهب يويالوس يصيداً^(١) ويقول . « كلا أيها الصديق . . . إني عذيرك ، فسماك لا تنبئ عن رجل رياضى ، بل أكبر الظن أنك من رجال الأعمال أو حَفَظَةِ المخازن . . . أو . . . إن لم يحب حدسى . . . من أدلاء السفن فى الثغور ؛ ومن يدرى ؟ فقد تكون عياراً أو قرصاناً !! » .

وعبس أوديسيوس وبسر ، وانتشرت فوق جبينه ظلمات من الهم ، وتهدج صوته فقال : إنك لم تحسن كيف تتكلم أيها السيد ، وإنك لم تبال أن تُطْلِقَ فى لسانك بُهْجَرِ القول كأننى رجل لا اعتبار لى . . . على أن الآلهة - جلت وعلت - لم يتفق أن منحت أحداً من العالمين كل آلائها فى وقت معاً . . . بساطة الجسم ورجاحة العقل وقوة البيان . . . فقد يلوح لك هذا الرجل مُهْدماً محطماً فى حين قد وهبه جوف بياناً متيناً مبيناً حتى

(١) يجهر بالقول .

ليخلب ألباب سامعيه ، وحتى ليرتفع في نفوسهم إلى مصاف الآلهة . . .
وقد تنظر إلى ذاك الرجل كأنما تتدفق في عضلاته قوى السماء وهو لا يحسن
أن يقول كلمة . . . مثلك . . . مثلك تماماً . . . فلقد أوتيت بسطة في
الجسم ، حتى لتوشك في ذلك أن تكون مثالا تقيس عليه الآلهة ، إذا
أرادت أن تخلق مارداً جباراً . ولكنك - وأسفاه ! - لم تؤت بياناً ولا
حكمة ! فلقد أثرت ثائري بكلماتك الغلاظ . . العجاف ! إني - أيها
السيد - كما ذكرت - لا أحسن من هذه الألعاب قليلا ولا كثيراً . . .
ولكني كنت فتاها وفارس حلبتها أيام كنت شاباً يافعا غص الإهاب ريتان
الشباب . . . أما أنا الآن ! فوا أسفاه ! ! إن حدثان الزمان لم يبق
منى . . . ولا علي ! لقد ذبل شبابي في نفع الحروب وسُوح
الوغي . . . وفي هذا البحر اللجى يغشاه موج من خلفه موج . . .
كالجبال . . . بيد أنني . . . على الرغم مما ينقض ظهري من ويلات ،
سأثبت في سجل شجاعتكم قوتي ! فإن لما هَرَفْتُ به من قول السوء لأنياباً
تعضني وتنهشني . . أو أدُلُّ على قوتي وجبروتي . . . » .

وكان إلى جانبه قرص القذف الذي يستعمله أبطال الفياشين في
مبارياتهم فانقض عليه واحتمله بيده القوية المفتولة ثم دفعه دفعة هائلة كان
لها هزيم وقصف . واستهوها بحارة الفياشين الشجعان فخفضوا رؤوسهم
حتى استقرت بعيداً خلفهم . . . وهنا بدت مینزفا بين الملأ في صورة
أحدهم ، وهبت عجلانة تقيس مدى القذفة ، ثم قالت : « ألا أيهذا
الغريب ! الأعمى نفسه لا ينكر برهانه الدامغ القوى ! إنه مدى
لايستطيعه أحد غيرك ، فته على هؤلاء الفياشين ! إن منهم من لا يستطيع أن
يباريك في أى من هذه الألعاب فادعهم إليك وما عليك من بأس » . وشاعت
الكبرياء في نفس أوديسيوس حين سمع هذا الهاتف من صميم الفياشين يطريه
ويثنى عليه ، وينصب من نفسه قاضياً له ، فقال ، وقد انكسرت حدة غضبه .
« هلموا أيها الشباب فاخذفوا هذه القذفة ، أقذف أبعد منها وبقرص

أكبروزنا ! ! هلموا ! ! ليأت أقوى ملاكميكم فإني له ! وليقف أضري
مصارعيكم فأنا أخوه ! وليجر معي أسرع عدائيكم فلن يلحق بغباري !
لقد هجتم ثائري فهلموا ! إني أتحداكم جميعاً إلا لوداماس فإنه مضيفي
وصاحبُ قرأى ، وليس بي أن أنازل من أكرم مثواي في دار غربتي وليس
بي من النزق ما يحملني على شيء من ذلك . . . أما غيره فأنا له ، وسيعلم
منازلي مهما يكن مبلغ قواي . . . إنه ليس من ألعاب الناس ما
يعجزني . . . فأنا رب القوس ، وطالما صرعت الألوف من الأعداء تحت
أسوار طروادة ، وأبدأ ما رمي أحد سهماً كما رميت إلا فيلكتيتس يوم حاز
قصب سنبقها دوني . . . على أنه من ؟ ؟ إني لم أبلغ من الحول ما بلغ هرقل
أو يوريتوس الذي نفس عليه أبوللو مهارته في الرماية فقتله . . . هذا . . .
وإلى الرمح السمهرى ، فإني أبلغ به المدى الذى لا تبلغه سهامكم ! !
على أننى لا أطمع أن أبلغ خفتكم ورشاقة حركاتكم - فلقد قاسيت من
الأرزاء ما قصم ظهري ، وصارعت موج هذا الخضم حتى حطمني
وأوهانى ، ولقيت من الطوى ما برانى ! ! »

وصمت الفياشيون ولم ينبسوا . ثم تكلم الملك فقال : « عَمَرَك الآلهة
أيهذا النازح الكريم لقد جلجلت في آذاننا كلماتك فدلّت على شجاعة
وعفوان ، وأفحمت هذا الشاب الذى جرح عزتك وأهان كبرياءك أمام
الجميع ، ثم سكت عن تحديك . . . ولكن تعال فانظر إلى مانريك من
ضروب الخفة وفنون الرقص وفنون الغناء والسبق في العدو ، ومهارتنا حين
نسوس الفلك فوق أعراف الموج ورُغَاء الزبد . كما تتحدث بهذا كله إلى
أقرانك وبين ظهرائي قومك ، وتحكيه لأطفالك . عَمَرَك الله أيها الغريب
المكرم إنه لا فخر لنا في ميدان الملاكمة والمصارعة . بل غاية المتاع عندنا
ثوبٌ مُوشَّى وطعام ملوّن وقيثار مُرنة ، ورقصة خاطفة ، وحمام دافئ
وفراش وثير والآن . . . هلموا أيها الفياشيون فاهلّوا أمام
ضيفكم والعبوا ، وأروه من رقصكم وشنفوا أذنيه من غنائكم . فلسوف
يتحدث بكل ذلك في الآفاق . وحسبكم أن يذكر عنكم أنكم أمهر من

ركب البحار ! هلموا . . . لِئَحْضِرَ أَحَدُكُمْ دمودوكوسَ الإلهي . . . يعزف
قيثاره ويلعب قلوبنا بغناؤه . . . ابجثوا عنه في بعض ردهات القصر . . . »
وانطلق منادى الملك يبحث عن المطرب الإلهي ، وانطلق آخر يعد
قيثاره ، ثم نهض تسعة فياصل^(١) يمهّدون أرض الملعب ويهيئون الحلقة
ويزحزون الجماهير . . . وأقبل المنادى والمطرب يسعى بين يديه ،
وجلس في وسط الحلقة حيث أحدق به الولدان اليوافع اليوانع يمسون
ويرقصون بسيقان تخطف كمثّل خطيف البرق ، بين دهش أوديسيوس
وشدة تعجبه ، والمطرب فيما بين ذلك يوقع لهم النغم الحلو ، والموسيقى
العالية . . . وفرغوا من رقصهم ، فشرع المنشد يتغنّى أسطورة مارس
ومعشوقته الآئمة سيتريا^(٢) ، إذ أغواها رب الحروب المستهتر بمعسول الكلام
ومطلول الغرام فلانت له . . . وكان أبوللو - إله الشمس - يرقبهما من
مركبته الذهبية في علياء السماء ، فطار بالفضيحة المشؤمة إلى الزوج
التعس . . . فلكان . . . الذي استطير وثار ناثره ، فراح يصنع أنشودة
كبيرة كالشرك من حلق الحديد المفرغ الذي لا يقوى عليه أحد ، حتى إذا
فرغ منها حملها إلى داره ودسها حول سريره ثم ألم بالمنعرج النجس حيث
أوى مارس إلى فينوس - الزوجة الآئمة - وكان مارس يغالب في عينيه
أخريات غفوة الضحى ، فلمح فلكان يطوى الرحب إلى أرض لمنوس -
أحب المدائن إلى قلب الإله الحداد . . . وطرب مارس أيما طرب . . .
وأيقظ معشوقته قائلاً : « هلمى فينوس . . . انهضى أيتها الحبيبة : لقد
ذهب زوجك إلى لمنوس أرض البرابرة . . . هلمى إلى البيت . . . » وهبت
فينوس . . . وانطلق الأثيان إلى دار فلكان ، ولكن . . . وأأسفاه ! إنها
ما كادا ينطرحان حتى انطرحت فوقهما الأنشطة الهائلة . . . وأمسكت بهما
إمساكاً شديداً . . . لم يجدا منه مفراً ، ولم يجدا منه مخلصاً . . . وكان

(١) الفيصل الحكيم

(٢) فينوس (الأسطورة وكتابا أساطيا الحب)

أبوللو يرقبها كذلك ، وقد حدث فلكان بما رأى . . . فعاد الإله الحداد على عجل ، ولم يكن قد بلغ شطآن لمنوس بعد . . . وكان قلبه يديق . . . لا . . بل كان قلبه يكاد ينخلع ، فوقف في البهو الكبير ثم أرسل صيحة مدوية يستصرخ بها الآلهة : يا جوف العظيم ! يا آلهة الخلود جميعاً ! انظروا ! إشهدوا كيف تخون فينوس زوجها ! ولمية ؟ لأنه محطم موهون ! ذنب من ؟ إنها جريرة من أنسلوني وجاؤوا بي إلى الحياة » .

ولم يكد يفرغ من صرخته حتى اجتمع في بيت جوف ذى الأرض النحاسية جميع الآلهة . . . وكان أول من أقبل نبتيون رب البحار ، ثم تلاه هرمز | رسول الآلهة وصاحب القوس ، ثم أبوللو . . . ثم غيرهم وغيرهم . . . ولم يحضر من ربات الأولب واحدة ! فقد احتجزهن الخجل عن شهود هذه الجريمة ! ثم هاهم الآلهة يقهقهون ويضحكون . . . ويتلهفون بهذا المنظر العجيب ، ويقول بعضهم لبعض : « يا للإثم ساق إلى أوخم العواقب ! وبالأعرج الأكسح ، يشالئ^(١) السَّبَّاقَ المُجَلَّى ! ! لقد استطاع فلكان أن يمسك بتلابيب مارس ، الذى هو من هو . . . ! مارس ! أسرع العدائين ! إن عليه أن يؤدي الغرامة الفادحة للإله الأعرج . . . » . . . ، وتضاحك سكان السماء . ولكن نبتيون الذى ساءته هذه الحال خاطب فلكان فقال « هلم فلكان ففك هذه السلاسل والأغلال ، وإني زعيم لك ، كفيل بأنه مؤد إليك كل ما تفرض عليه من غرم ! » . . . ورفض فلكان أن يطلق فريسته . . . « من يضمن ألا ينطلق مارس وهو لا يلوى على شئ ، غير عاجئ بكل ما عساه أن يعبد ؟ » . وقال رب البحار : « ليطمئن قلبك يا فلكان فوعزتي وجلالى لئن لم يف مارس لأنجزن أنا ، ولأؤدين عنه غرامته ! ! » . فأجاب رب الحديد الصنّاع : « إذن ، فلن ينجب رجاؤك ، ولن يُردّ طلبك ! » وتقدم ففك الأغلال عن المجرمين الأثيمين ، وانطلق مارس إلى مأواه بأرض تراقية ، وانطلقت فينوس إلى

(١) يسابقه فيسبقه .

مرتعتها الجميل بأرض بافيا - حيث تلقاها ربرب من أترابها بالبشر والترحاب ، فغسلنها ، وضمخنها بالطيوب القدسية ، وأسبلن عليها شفوف الصبا وأردية الشباب .

وفرغ دومودوكوس من إنشاده بين تأثر أوديسيوس وتلهف البحارة الفياشيين ، ثم أوما الملك إلى أبنائه فوثبوا وسط الساحة ، وأخذوا يرقصون في خفة ، ويتقاذفون كرة غالية من صنع بوليب ، فكان أحدهم يرسلها عالية حتى تدنو من السحب ، فيشب الآخر فيلتقطها وهو معلق في الهواء ، ثم يتقاذفها أحدهم بعد الآخر ، بين تهليل الفتيان وتصفيقهم الشديد وسر أوديسيوس مما أبداه أبناء الملك في الرقص ، وأثنى عليهم لأبيهم ، ورجاه في الذى رجاه فيه من تهيئة عودته ، فتوجه الملك إلى زعماء شعبه وقال : « يازعماء الفياشيين وأشياخ الأمة ! جدير بنا أن نكرم مثوى هذا الضيف الذى بدا لكم من وقاره وحكمته وأثير أرومته الشئ الكثير ، هلموا إذن ... إنكم اثنا عشر زعيما ، وأنا الثالث عشر ... فليحضر كل منكم يدرة من الذهب وصداراً مَقُوفاً فتكون من الجميع هدية سنية له ... أما يوريالوس فعليه هدية كذلك ، وعليه أن يعتذر ممافاه به » ، ووافق الكل على ما اقترح الملك ، وأرسلوا رسلهم يحضرون البدر والصُّدُر ؛ ثم نهض يوريالوس يعتذر ويقدم لأوديسيوس سيفاً جُرازاً ^(١) له مقبض من فضة ، وقِرَاب مطعم بالعاج ؛ ودعاه أن تكلأه الآلهة بعين الرعاية حتى يرى زوجه وولده وبلاده ، بعد كل الذى احتمل من عناء ونصب . وتقبل أوديسيوس الهدية ، ودعا لصاحبه بحياة الأمن والسلم والرفاهية . ثم علق الجراز فوق كاهله الضخم .

ووصلت الهدايا الأخرى مع غروب الشمس ، فنهض أبناء الملك يتسلمونها ، ويحملونها إلى داخل القصر ، حيث أمهم أريتا الملكة ... ونهض الملك فتوجه إلى الداخل كذلك ، وسأل الملكة أن تحضر ثوباً

(١) سيفاً قصيراً والقِرَاب بكسر الكاف الغمد .

وأكسية ، وأن تعد صندوقاً يتسع لهدايا الزعماء ، وملوك البحر ، التي خلعوها على الضيف ؛ وقدم هو هديته ... كأسه الخاصة من الذهب الخاص ، المحلاة بأبهج الطُرفِ وأبهى التصاوير ... « ليدكرني بها ، كلما أفرغ منها الخمر تقدمة للآلهة » . وسألها أن تعد للرجل حماماً ينعشه ، وأن تعطيه الأثواب والأكسية كما يتدثر بها .

وأمرت الملكة خدمها فأعددن الحمام ، وأحضرت هي ثوباً فضفاضاً فوضعت فيه يدّر الذهب وكأس الملك وسائر الهدايا ؛ ثم تلفت إلى أوديسيوس فقالت له : « والآن أيها السيد هلم فعلق هذا الصندوق فهو لك ، لتكون آمناً عليه إذا غفوت في السفينة » . ولبي أوديسيوس وأغلق الصندوق ثم ربطه بحبل طويل عقده تعقيداً . ثم دعت ربة البيت إلى حمامة ؛ ولله كم ألفت عيناه حين رأى الثوب الديباجي العظيم ، الذي لم يلبس مثله منذ فارق كليسيو ... ثم اغتسل وتدثر ، وتضمخ بأحسن الطيوب ، وبرز كأحد آلهة الأولمب ... وبينما هو يطوى الأبهاء إذا صوت جميل ذو غنة يهتف به ... وإذا هي الأميرة الفينانة - نوزيكا - واقفة خلف عمود وهي تقول : « س . س ... أيها الغريب التازح اذكرفني دائماً ، أنا ، أول من لقيك هنا ! ! » وتبسم أوديسيوس وقال : « نوزيكا ! ! أنت ؟ ابنة أكرم الملوك ألكينوس ؟ ؟ لك الله ! ألا حق جوف رب الصواعق لو صحت الأحلام ووصلت سالماً إلى بلادى لظلمت آخر الدهر أعبدك عبادة أيتها الجميلة العذراء كما أعبد الآلهة أربابي ! » . وبلغ مجلس الملك فاستوى إلى كرسي بجواره ، واجتمع الفياشيون مرة أخرى ، ودارت الأقداح ، وأجلس المطرب الأعمى الالهى ، فخرشيراً ، قريباً من العرش . وقدم إليه أوديسيوس جزءاً من شواء حملة أحد النذل ، فأقبل عليه المطرب حتى اغتذى . ثم توجه إليه أوديسيوس بالحديث فقال : « كم أنت جدير بالثناء يادومودوكوس . بل أنت أولى به من أكثر الناس ! ليت شعري هل ثقفت موسيقاك عن عرائس الفنون ، أم أنت قد حذقتها على أبولو نفسه ؟ لقد أنشدت ما كان من جيش الآخيين كأنك كنت شاهد

عيان ، أو كأن شاهد عيان قد قصه عليك ! أنشد لَعَمْرُكَ ! تحدث عن الحصان الهولة الذى صنعه إيبوس بإرشاد مينرفا ، والذى حملة أوديسيوس الجبار هو وصحبه إلى قلاع طروادة ، ثم اختبأ هو وهم فيه ، فكانوا أول خراب إليوم ! ! تَعَنَّ ! إني سوف احمل اسمك فأنشره فى الآفاق أيها المطرب المعجز الذى لا يباريه إلا عازف موسيقى السماء ، أبوللو ! تقدس اسمه » .

وتنزل أبوللو على لسان المنشد فراح يقص الوقائع الطروادية منذ حرق اليونانيون معسكرهم ، وبعد إقلاعهم من شطآن إليوم ، وذلك الانقسام فى الرأى بين الطرواديين بسبب الحصان الهولة أيقصمون ظهره أم يدقون عنقه أم يحفظونه تذكراً لهذا الحرب ونُصباً للآلهة ... على كل حال لقد نقلوا الحصان داخل أسوارهم ليكون القاضى عليهم بمن فيه من هذه النخبة أولى القوة من أبطال الإغريق ... وهكذا قدر عليهم فى الأزل أن يهدموا قريتهم بأيديهم ... تغنى الشاعر المُقَنَّ بكل هذا ، وأثنى أيما ثناء على أوديسيوس الذى كان يكر كأنه مارس ، ومنلوس الذى كان يفر كالصاعقة ، وعلى بقية الأبطال الصناديد الذين فازوا بالنصر فى ظل مينرفا ربة الحكمة وكان أوديسيوس ينصت إلى غناء المطرب وإنشاده ، ودموعه تتحدر غزيرة على خديه ، والآهات العميقة تشق صدره شقاً . . كأنها آهات تلك الأم الرؤوم التى وقعت فوق جثمان زوجها الباسل تبكيه وتنعيه ، وقد سقط فى الحومة يدفع عن مدينته أعداءها ، وقد وقف من خلفها أبنائها خُصراً يتامى كأفراخ القطا . . ثم يقبل الأعداء فيخمدون أنفاس هذه الأم بضربة لازبة ، فتنظر مرة إلى زوجها القتيل ، ومرتين إلى أبنائها التعساء ! كذلك كان أوديسيوس ، وكذلك كان يخفى دموعه فى طرف رداءه فلا يراها أحد إلا ألكينوس الملك الجالس قريباً منه . وقال الملك متحدثاً إلى رعاياه : « أيها الزعماء والأشياخ الفياشيون ، أولى للمنشد ثم أولى أن يفرغ من إنشاده ، فلقد تصدع قلب ضيفكم ووهنت روحه مما يسمع من القصص الحزين ! لقد أحببنا فيه أخا ، ووهبنا له محبتنا وودنا وصافى أخوتنا لا ليحزن أو يأسى . . والآن !

هل يسمح ضيفنا فيذكر لنا اسمه الذى يعرفه به آله ويدعونه به ؟ لقد كنتم هذا
عنا ، فهل ولد أحد ولم يحمل اسماً ؟ من أنت أيها العزيز ، وما بلادك ؟ وإلى أين
تعملك سفينتى ويبحر بك رجالى ؟ لقد منحنا نبتيون - رب البحار - الأمن فى
ذلك المم وذلل لنا غواشيه ، ولكنه ليس أشق عليه من أن تحمل سفننا أغراباً
مثلك لا نعرفهم ، فنبحر بهم إلى بلادهم !! إنه يغضب علينا ، وقد يغرق سفننا
تشفيا وانتقاما حينما تعود أدراجها إلى بلادنا ، فتھوى إلى الأعماق ثم
يسحرها إلى جبل ناتىء فوق العباب ، قَبِلَ شيريا ! تكلم أيها السيد !
أصدقنا ! من أنت ؟ ومن أى البلاد قدمت ؟ وأين ضربت بطون
الركائب ؟ وأى الأمصار شاهدت ؟ وماذا يفجر هذا الأسى فى أعماقك كلما
سمعت عن جنود الآخيين ، وكلما ترددت فى أذنيك أغنيات طرواده ؟ إن
الآلهة تمحك من حاضر المرء طيلسان الهموم لغده ؟ أقتل أبوك ثمة ؟ أم صُرع
أنحوك تحت أسوارها ؟ أم قَضَى حموك فى ساحتها ؟ أم أودى أصدقاء لك
أحباء فى أحلبتها ، كنت تعدهم كبعض أهلك أو أعز أهلك ؟ تكلم ! »

فى أرض المردة (السيكايوس)

وشرع أوديسيوس يجيب عما تساءل عنه الملك فقال : « أيها الملك تعالى جددك ، لشد ما يطرب ما تغنى هذا المنشد غناء الآلهة ! ولقل ما تعدل الدنيا بأسرها هذا المجلس الشادى ذا الأضياف والآكال والأشربات ! على أننى مجيبك على ما بدّ هك من دموعى وهمومى ، وما لقيت وما سوف ألقى مما قسم لى من أتعجان وأحزان ! إذن فاعرف اسم ضيفك الشريد الذى لا يجهل اسمه أحد... ضيفك اللائذ بكرمك ، المستدرى بجمالك ، المتشبت بك ليصل فى ظلك إلى بلاده مهما تقاصت ومهما نأت ... أنا أيها الملك ... أوديسيوس ... أجل هو أنا أوديسيوس ذو الذكر ، المعروف فى السموات بالدهاء والمكر ، ... ابن ليرتيس رب إيثاكا ، وملك نريوس ذى الشعاف السامقة ، والجزائر الآهلة حول ساموس ودلخيوم وزاستتوس ، أم الجزائر التى تصافح تباشير الصباح بكل روضة فيحاء خميلة لفاء ، وجنات ذوات شجر وثمر . . صبغاً لأبنائها الأوفياء ... هناك ... حيث احتجزتنى عروس الماء كليسو فى كهفها ، وراودتنى لأكون بعلمها ... وهناك ... حيث أغرتنى سيرس هى الأخرى ، سيرس صاحبة جزيرة إيايا ... التى حاولت أن تتخذ منى خليلاً فأبيت ، ولم أقبل أن أضحي بأهلى ووطنى ، ولو أصبحت زوجاً لإحدى الربات الخالدات ... ولكن لا ، هلم قبل كل شئ أقص عليك من أنباء رحلتى منذ بارحت إل يوم ، ولأدع ما قبل ذلك فهو معلوم مشهور :

« أقلعت بنا الفلك إلى بلد السيكون (إزماروس^(١)) ، فبدا لى أن أزيد فى ثروة رجالى وما فازوا به من أسلاب طروادة ، فأشرت عليهم بفتح المدينة واغتنام ما فيها من كنوز وأذخار ، وسرعان ما تم لنا ذلك ، فقتلنا

(١) على الشاطئ الشمالى لبحر إيجه .

العسكر وملكننا القرية ، ووزعت السَّيِّ والأسلاب على جنودى . ثم
أشرت عليهم بالرحيل فَعَصَوْا أمرى ، وَعَثَوْا فى المدينة مفسدين ، وعاقروا
من الخمر ، وعقروا من الشاء ما أذهلهم عن أنفسهم ، وأتاح لأعدائهم لم
الشعث ، ففجأونا بجيش عرمرم منهم من جيرانهم ، وناضلونا عن مدينتهم
فأوقعوا بنا ، ولم يغننا أنا قاتلناهم حتى مطلع فجر اليوم التالى ، بل ظل
فرسانهم الصناديد يكرون ويفرون ، حتى قذفوا بنا فى البحر ، فوقفنا فى
سفائنا نناوشهم برماحنا ... وصمدنا لهم حتى توارت الشمس بالحجاب
فانسحبنا نجر أذيال الهزيمة والخزى ، بعد إذ انتزع السيكون فخار النصر .
وعدت إلى الجند .. فوا أسفاه ! ... لقد افتقدت ستة من رجال كل
سفينة .. سقطوا فى المعركة الخاسرة !

وأجئنا الليل ، فجلسنا نتذاكر أسماء القتلى ؛ وماكدنا نفعل حتى سخر
علينا جوف رب السحاب الثقال - ريحاً صرصراً عاتية أثارت البر والبحر ،
وعصفت بمراكبنا فأطاحت بقلاعها ومزقت شراعها ، ففزعنا إلى المجاذيف
وأعملنا السواعد ، مستقتلين مستميتين . حتى نجونا بعد لأى إلى البر ،
حيث تلبشنا ليلتين طويلتين فى أين ^(١) . وشكاة وشقاء ، نصلح القلوع
ونرتق الشراع ... وفى صباح اليوم الثالث تطامن البحر ونام هائج ،
فبادرنا إلى الفلك وأقلعنا باسم الآلهة مجراها ومرساها . وماكدنا نلمح
شطآن ماليا ، حتى هبت زوبعة عنيفة تلاعبت بنا ، وحملتنا إلى جزيرة
سيتيرا ... وطفقنا بعدها نذرع العُباب تسعة أيام أخرى . حتى بلغنا بلاد
(لوتوفاجى) ، هذا الشعب الغريب الذى يقات بالفاكهة فحسب ، من
دون ما تنبت الأرض وما يدب عليها ... ورسونا ثمة ، وأهرع الملاحون
إلى البر فاستراحوا وسَمَرُوا ؛ ثم تخيرت اثنين من أوثق رجالى ، وجعلت
عليهما ثالثاً رئيساً ووجهتهم إلى سكان هذه الأرض ليتعرفوا أحوالهم ،
فاختلطوا بهم ، وقابلهم اللوتوفاجى بالبشر والترحاب ؛ ثم عرضوا عليهم من

(١) الأين الإعياء والتعب .

ثمر اللوتس العجيب ، الذى ينسى آكله ما سلف من حياته ، وَيَبْتَ ما بينه وبين وطنه من وشيجة فما يفكر فيه ، وإذا فكر فيه فما يؤثر أن يرتد إليه ، بل يصبح كل معناه أن يأكل ويأكل ويأكل من هذا اللوتس العجيب ، وأن يعيش أبد الدهر بين أولئك اللوتوفاجى السحراء !... وتنظرت عودة رجالى ، بيد أنهم لم يرجعوا ، فاضطرت أن أذهب بنفسى إلى حيث سحروا ، فحملتهم قسراً إلى الشاطيء بين العويل والضجيج ، وقذفت كلا منهم فى قرة مغلولا مكبلا مشدود الوثاق ، ثم أمرت الملاحين فأبحروا على عجل قبل أن يأكل بعضهم من اللوتس الملعون فيضلوا ضلالهم وينسوا أوطانهم ، ويظلوا فى هذه الأرض جائعين . -

« وما عَتَمْنَا أن وصلنا إلى أرض المردة الجبارة - السيكلوبس - الطغاة العتاة ، الذين لا يخضعون لشرعية ، ولا يأترون بقانون ، الذين تَوَي أرضهم أَكلها رغداً من غير كد ولا عناء . . . حباً وأباً ^(١) ، وحدائق غلباً وقصباً وعنباً ، تُسقى مما يفيض عليها جوف من مائه المعين . . . يعيشون فوضى ، لا تربطهم رابطة ، ولا يقوم بينهم نظام ، يأوون إلى كهوف موحشة ، وغيانٍ سحيقة ، فى قُلل الجبال وأحيادها . . . يُعنى كل منهم بنفسه وزوجه وأولاده وقطعانه ، ولا يأبه للباقيين ، وتلقاء أرضهم توجد جزيرة معشبة أريضة ^(٢) شجراء فيها من الماعز السائم قطعان لا حصر لها ، ولكنها مع ذلك يهماء ^(٣) مُضلة ، لم تطأها فيما غير قدم إنسان ، ولم يُرْش إلى حيوانها سهم صائد ، لأن السيكلوبس لم يحاولوا أن يركبوا البحر مطلقاً ، ولم يعرفوا طوال حياتهم هذه الجوارى المنشئات فيه كالأعلام . لذلك سلمت الجزيرة بما فيها من خير ، وتكاثرت قطعانها حتى امتلأت بها مروجها الخضر السندسية . . . وثمة ، فى جُوف هادئ جميل ، ألقينا مراسينا ، ونزلنا من سفائننا ، فى ظلام الليل الدامس ، وفى حراسة

(١) الأب الكلا والمرعى . وغلبا جمع غلباء أى متكاثرة وقصبا حدائق أشجارها طويلة مبسوطة

(٢) أريضة أى زكية خصبة .

(٣) مضلة لا يهتدى فيها .

الآلهة ، بعد إذ ارتطمنا بسيف البحر . . . ثم نمنا على الشاطئ حتى مطلع
الفجر ، وأشرق أورورا تنضر بالورد مشرق الأفق ، فنهضنا نجوب
الجزيرة ، ونتفياً ظلال الحور ، ونرى عرائس الماء ترعى الماعز ، فبادرنا إلى
سفنتنا ، وأحضرنا الحراب والأقواس ، ثم تفرقنا ثلاث فرق ، وشرعنا نصيد
من هذا الحيوان ، فاجتمع لنا منه الشيء الكثير ، ونال كل من رجال
سفائتنا الإثنتى عشرة تسع أعتر . بعد أن تخيرت عشراً لنفسى ، ولبشنا يومنا
هذا نغتذى بكل شواء حنيد ^(١) ، ونكرع كل كأس روية ، فى غير تخمة
ولا شجى ^(٢) . . . وللآلهة تلك الخمر السلاف السيكونية التى افترعناها
من زقاق أزماروس ! ثم نظرنا ناحية الغرب ، فمارعنا إلا دخان كثيف
يَصْأعد فى الأرض القريبة ، ورُغاء وضوضاء كالرعد تنتشر فى جنباتها ،
وإذا هؤلاء السيكلوبس المردة يتشرون فى الأرجاء ، وأمامهم قطعانهم
من الشاء والأنعام . . . أعداد لا حصر لها . . . عليها إذا عُدَّ الحصى
يتخلف !

ونمنا ليلتنا مُرَوَّعين ، حتى إذا بزعت أورورا نهضنا واحتشدنا فى صعيد
واحد ، ثم قت فى رجالى خطيباً فقلت : « أيها الإخوان ! لتبقى
غالبيتكم فى هذه الجزيرة ، فإنى ذاهب فى نفر منكم نرود هذه الأرض ،
ونعرف من أبناء أهلها ، ونعلم من أحوالهم ، ونرى هل هم ، قوم ظلم
وضيم ونضال أم هم ربيون ^(٣) يهشون للمكرمات ، ويخبثون للآلهة ؟ »

« وأقلعت فى نخبة من رجالى فوصلنا طرفاً من الجزيرة ناتئاً فى البحر ،
فوقه قلاع مشرفة عليه ، فهبطنا فيه ، وذهبنا نروده ، حتى انتهينا إلى كهف
عظيم ضارب فى الصخر ، وقد نما الغار الجميل عالىً بابه الضخم . .
ودخلنا . . . وأثار دهشنا هذه الحظيرة الكبيرة فى وسط الكهف ، تتسع
لقطعان لا عدد لها من الأنعام والأغنام والماعز ، ثم هذا الفناء العظيم المحقق

(١) حنيد أى يقطر دهنه من حسن نضجه .

(٢) الشجى هو الغصص بالشراب . (٣) أناس .

بها يفصله عنها سور عتيد من الحجر الصلد ، مُتَرَسُّ بِجَذْوَعِ الحور
والسنديان ؛ ولقد عرفنا فيما بعد أن صاحب هذه المغارة مارد جبار من
أراذل السيكلوبس ، لصق بهذا الطرف من الجزيرة يعسف ويظلم ويملؤه
بغيا وعدواناً . . ثم هو إلى الجانّ والشياطين أقرب منه إلى أى خلق آخر ،
فوجهه مبرد عبوس أبداً ، وهو إلى ذلك هولة تحسبه إذ تراه قطعة من
الصخر نحت منها ناطور ^(١) فوق ناصية الجبل وتوقلنا ^(٢) وكان
معى زق من خمر معتقة مما أعطانيه مارون بن إيفانت ، قَسَّ فوبوس ،
رب إزماروس ، لقاء ما أبقينا عليه وعلى زوجه وأولاده يوم غزوتنا
لقريته . . ياله من كاهن سمح طيب القلب ؟ ! لقد نفخني بأكرم اللّهي ^(٣)
وأجزل الهبات ، وهل أنسى ما حييت تلك البدر السبع من الذهب
الخالص ، وذلك الدّن من الفضة الغالية ، وتلك الجرار الإثنتي عشرة من
الخنديريس الصرف التي تُشرب باسم الآلهة ؟ لقد كان يفديها بنفسه وماله ،
فلم يكن يعرف مخبأها أحد غيره وزوجه وأمينه . لقد كانت كأس روية
واحدة من هذه المدامة تمزج بعشرين ضعف من الماء القراح ، وهي مع
ذلك سكر ولذة وروح علوى للشاربين ؛ ثم كان معنا رُكُز ^(٤) به أكل
كثير ، وكنا عدداً عديداً من الأبطال الصناديد ، ولكننا مع ذاك كانت
تعترينا رعدة ، وكان يشبع في قلوبنا فرح ، أن يفجأنا هنا الجنى صاحب
المكان ، الذى لا يخشى فينا شريعة ، ولا يردّه عن أذانا قانون . . . ثم
توقلنا كذلك ، فأشرفنا على مغارة سحيقة هي مقام السيكلوب ومنامته من
غير ريب ؛ بيد أننا لم نجده عندها ، فقلنا ربما انطلق بقطعانه يرهاها في
المروج القريبة ورددنا الطرف في المغارة فرأينا مصافى كثيرة معلقة يتز
الحصير ^(٥) منها ههنا وههنا . فعرفنا أن السيكلوب يصنع الجبن من ألبان مواشيه ،

(١) الناطور تمثال لتخويف الطير

(٢) توقل . صعد فوق جبل

(٣) العطايا .

(٤) الركز (المرج) بضم الراء ما يعمل فيه الزاد

(٥) الماء يسقط من الجبن .

سبياً وقد امتلأ المكان ببواط كثيرة مفعمة بالحصير والمخيض^(١) وعلى مقربة منا شهدنا حظائر واسعة لصغار الشاء والحملان والماعز . وقد قسمت فرقا بحسب سننها وقد بدأ لبعضنا أن نذهب بما هنالك من جنب وزبد ، وأن نستاق الحملان والجدعان^(٢) إلى سفائننا ، غير أنى - وأسفاه - تأييت ، لأننى آثرت لقاء السيكلوب ، رجاء أن ينفخنى من كنوزه ، ويسبغ على من آلائه ؛ ولذا ، جلسنا ريثما يعود ، وأكلنا من جنبه وزبده ، وأشعلنا ناراً نستدفئ ، ثم إذا هو يطوى المروج الخضر بقطعانه ، وإذا على كاهله الرحب أثقال وأحمال من الحطب وفروع الشجر اليابس . حتى إذا كان لدى الباب ألقاها فى بطش فاهترت الأرض ودوى المكان ، وانحبس وصيد الكهف ، فانقذف الرعب فى أفئدتنا ، فهورلنا مذعورين صعقين ، واختبأنا كالحفافيث فى زوايا المغارة وشقوقها . . . أما هو فقد أدخل قطعانه ، واحتجز ذكرانها فى الفناء الخارجى ، ثم أخذ فى حلب الإناث فى الرحبة الداخلية . . . ونهض بعد ذلك فسد مدخل الكهف بحجر واحد كبير لو وضع على عربتين عظيمتين لم يستطع عشرون ثوراً ضخماً أن ترحزحه من مكانه . . . وجلس يحلب النعاج والماعز ، وكلما فرغ من واحدة أرسلها إلى جدعانها ترضع ماتبقى فى ضرعها . . . وكان يقسم لبنه قسمين ، فيحتفظ بأحدهما لشرابه ، ويمخض الآخر لزبده وجبنه ؛ ثم فرغ من هذا كله وأضرم ناراً عظيمة ما كادت تلهب حتى رأنا معلقين فوق نوى الكهف . فصاح بنا : « من هنا ؟ وى ! من أتم أيها الغرباء ، ومن أى البلاد نرحتم وفيم خضتم هذا العباب إلى هنا ؟ آفاقيون ؟ أم تجار ؟ أم قرصان تعيثون فى بلاد الناس ؟ » وزلزلنا زلزلاً عظيماً ، وكان صوته الأجش الخشن يلقى الرعب فى قلوبنا فتعتلج اعتلاجاً . . . ثم إني جمعت ما تبقى من وعيى ، وما أبقي عليه الروح والهلع من إدراكى ، فقلت أجييه : « نحن

(١) اللبن الخض

(٢) جمع جذعة صغار الخرفان والبقر . الخ .

إغريقون أيها العزيز وقد ذرعنا البحر اللجى شرقاً ومغرباً ، وتقاذفتنا فوقه كل ريح . منذ بارحنا اليوم التى فتحها الله علينا ، لأننا من عساكر أجا ممنون الملك ابن أتريوس الكريم ، قاهر طروادة ، ومبيد الطرواديين
وها نحن أولاء . قد لذنا بك بعد طول النصب . فنضرع إليك أن تفى علينا بما أفاء خوف عليك . وأن تردنا غانمين فيا مولانا أكرم مثوانا . فنحن الأغراب فى كنف جوف أبداً . وأينما نولّ فإنه معنا »

وتجههم السيكلوب الجنى وقال مغضباً مستهزئاً : « حسبك أيها الأخ المغفل ما خوفت من جوف . فنحن السكلوبس لا نبالى جوف . حامل إيجيس^(١) . ولا سكان السماء قاطبة إنا أقوى منهم بكثير . وأنا نفسى . لن أبه لأىما نذير من جوف كبير الأولب ولكن حدثنى قبل كل شئ متى ألفت سفيتكم مراسيها فى أرضنا ؟ وأين هى ؟ أقرية أم قاصية من هنا ؟ قل الحق ولا تخف عنى شيئاً » وأجبتة فى حيطه ورفق ، وقد عرفت ما رمى إليه : « لقد نسف نبتيون رب البحار مركبتنا فى اليم نسفا وسلط عليها الزوابع فجرت بالواحها بعيداً . بعيداً من ههنا ونجوت مع هذا النفر من رفاق فقط إلى شاطئكم » . ولم ينس السيكلوب الجبار بكلمة بل أقبل نحونا ، وانقض على رجلى كالصاعقة ، ثم أمسك باثنين منهم . وأرسلهما فى الهواء ، ثم ضرب بهما أرض الكهف ذات النوى . فتهشم رأسهما ، وانتثر المخ فوق الحجارة هنا وهنا وألقاهما بعد ذلك فى الجمر المتأجج حتى نضجا واستوى كالسبع الرئبال ، وطفق ينهشها ولم يمض وقت طويل حتى أتى عليهما . غير مبق على عظمة واحدة ، أما نحن فيا لآلهة السماء ! لقد كان هذا المنظر الفاجع يعصف بنفوسنا ، ولم نملك إلا أن نرفع الأكف فنبتهل إلى جوف أن ينجيننا . وأن يرحمنا ؛ ولم يكن لنا مع ذاك من أمل فى نجاة !
وبعد أن أشبع الجبار نهمة من اللحم الآدمى الغريص . وبعد أن

(١) درع .

شرب من اللبن شرب الهيم^(١) ، انطرح بين قطعانه ، وجعل يرسل في
الكهف شخيراً مزعجاً . . . وقد حدثني نفسى أن أنقض عليه فأخوض في
لَبته بحرازي^(٢) ولكن فكرةً سوداء طافت برأسى حينما نظرت إلى باب الكهف
فأبصرت الحجر الضخم الذى لا يطيق أحد أن يزحزحه ، وتذكرت الموتة
الجاهلية المفزعة التى ستموتها إن فعلت . . . فقنطت قنوطاً شديداً ،
وأرسلت آهات الحسرة والندامة أنا وأصحابى ؛ وانتظرنا بقلوب فارغة
تباشير الفجر، ورأينا أورورا الوردية ترسل أول أشعتها من الكوى الصغيرة ،
فهب السيكلوب إلى قطعانه ، وأخذ في حلب إنائها ، وكلما فرغ من واحدة
أرسلها إلى صغارها ترضع وتنخب ؛ ثم إنه قبض على اثنين من رجالى
وفعل بهما كما فعل بصاحبينا أمس ، حتى إذا فرغ من إفطاره ، هب إلى
الحجر فزحزحه في سهولة ويسر ، كأنما كان يزحزح غطاء آنية . ثم استاق
قطعانه ، وأعاد الحجر إلى مكانه ، ومضى يرعى بهمه ، وبقينا نحن ندعو
ثبورا . . . وفكرت ألف فكرة في وسيلة أنتقم بها من هذا المارد الوحش ،
وتوسلت بمينرفا أن أستطيع . . . وانفجرت أسارىرى فجأة ، وأشرق
وجهى بنور الأمل . . . ذلك أننى أبصرت بجذع زيتون مشذب أعده
الجنى ليكون عصا يهش بها على قطعانه ، فقلت في نفسى : « ولم لا
يكون في هذا الجذع خلاصنا ؟ » ، ثم إنى أمرت رجالى ببرى أحد طرفيه ،
وكان الجذع طويلاً جداً ، يصلح سارية لسفينة كبيرة يعمل فيها عشرون
بحاراً . . . فأقبلوا عليه ينحتون ويبرون ، وأكبت أنا على نهاية الطرف
أحدده . . . ثم انتهينا من عملنا وأخفينا الجذع تحت القش الكثير الملقى في
الكهف ، وجلسنا نتخير من بيننا أشجعنا وأكثرنا أيداً وقوة . وأشدنا
استعداداً لحمله وغرزه من طرفه المحدد في عين السيكلوب . . . وانتهينا من
ذلك إلى أربعة ، وكنت أنا خامسهم . . . ثم عاد الجنى في موعده فأدخل

(١) الإبل الطامئة

(٢) السيف القصير . واللبة قرب الرقعة

قطعانه وأرجع الحجر إلى مكانه وجلس يخلب الإناث ويقسم اللبن ويمخضه ، ويرسل كل جذع إلى أمه ؛ ثم نهض إلينا فبطش باثنين منا وتعشى بهما . وقبل أن يستلقى على الأرض ليستریح أفعمت كأساً كبيرة مما كان معنا من خمر مارون وتقدمت بها إليه وأنا أقول : « ألا أيهذا السكلوب ! هالك كأساً من الخمر إذا تحسيتها بعد أكلتك الهنية من اللحم البشرى عرفت أى خمر فقدنا فى سفيتتنا المغرقة ! لقد كنت أحضرها تكرمه لك إذا أنت أكرمت مثوانا وأطلقت سراحنا وساعدتنا على العودة إلى وطننا سالمين ! ولكن ! أواه ! إن سورتك طامية أيها القاسى الجبار ، وإن أحداً من البشر لن يجسر على أن يقترب من جزيرتكم بعد اليوم ! » وأخذ الكأس فعبها عباً . وسر بها سروراً كبيراً ، ثم سأل أخرى فقال . « أيها الفتى ما اسمك ؟ » أعطنى كأساً أخرى وإنى مثيبك عليها . إن لدينا خمرأ صرفاً من أكرم ماتعصر العناقيد ، يسقيها جوف من شآبييه . ولكنها أبداً لا تبلغ هذه الخمر البكر جودة » وأعطيته ثانية وثالثة وراح المجنون يشرب ويشرب ولما شهدت النشوة ترقص برأسه قلت له فى ظرف : « أيها السيكلوب لقد تساءلت عن اسمي ؛ ألا فاعلم أنه أوتيس^(١) ؛ وبه أسمى فى بلادى ! ولكنك وعدت أن تثنىنى على ما قدمت لك من خمر ؛ فهاذا عساك مانحى ؟ » فاستهزأ السيكلوب وقال : اطمئن يا صاح ؟ سأهب لك أن تكون آخر من آكل من إخوانك . . . هذا هو جزاؤك ! وتشاءب ؛ ثم انطرح وسط قطعانه يغط فى نوم عميق . . . وكان يُصعّد أنفاسه بقوة فتقذف من بلعومه شوائب من خمر ، ممتزجة بقضما من لحم بشرى وقفزنا إلى جزع الزيتون فوضعنا طرفه المحدد المبرى فى الجمر المتأجج حتى تأجج مثله ، وبكلمات قليلة أثرت النخوة فى نفوس إخوانى حتى لا تخذلهم قواهم . ثم استعنت الآلهة فابتعثت فينا قواها السحرية ، واستجمعنا كل ما فينا من مُنة اليأس . ووضعنا الطرف

(١) أوتيس Ouis معناها (لا أحد) ولم يستحسن مترجمو هومر ترجمتها . لأنها قد تعنى (ذو الأذنين الكبيرتين) ولم تؤثر ترجمتها كذلك .

المشتعل في عين السيكلوب المقفلة ، وحركنا الجذع وطفقت أنا أقلبه فيها من مكان علٍ . كما يفعل السّفان الصناع بمثقابه في خشب السنديان وانبجس الدم من عين السيكلوب العمياء ، وجحظ إنسانها كأنه عين حمئة من دم وعلز^(١) . . . وقصاراى : لقد كنت كالحداد الماهر الذى يطفىّ سلاحا محمى في ماء بارد ! ! ولقد صرخ السيكلوب صرخة ردد أصداءها الكهف . . . ثم رددتها الغيران والجبال المجاورة ؛ وذعرنا نحن ، فلصقنا بالشقوق والزوايا ؛ وراح الجنى الجبار يخبط في ظلام العمى بعد إذ انتزع الجذع المشتعل من عينه ، وهول كالجبل نحو الباب فوقف عنده . وطفق يولول ويهتف ويصيح . ويدعو جميع إخوانه السيكلوبس كلاً باسمه ، فاجتمعوا إليه من كل فج عميق . . . وقال قائلهم : « ماذا دهالك يا بوليفيم حتى تروعنا هكذا في ظلام الليل وحتى تقض مضاجعنا بصراخك الفظيع ؟ هل خِفْتَ أن يستاق أحد قطعانك ، أم خشيت أن يقتلك أحد بقوة أو غدر ؟ » وقال بوليفيم وهو يتصدع : آه يا أصدقائى ! إنى أموت ! ولقد قتلتى أوتيس ! » فقال قائلهم : « إن كان أوتيس - الذى هو لا أحد - قد ألحق بك أذى فما صنع بك هذا إلا جوف ؟ تجلد يا صاح ، وادع أبانا نبتيون ليساعدك ، يأتك من أعماق اليم » ثم تركوه وانصرفوا لشأنهم ، وضحكت أنا في سريرتى لأنى استطعت أن أعمى عليهم بهذا الاسم الملقق المفترى : وما برح بوليفيم يبكى ويَعُول ويهزه الألم والأسى ، حتى زحزح الحجر الذى يسد الباب ، وجلس عنده . ماداً ذراعيه ليمنع أحداً منا أن يفلت أو أن يذهب ببعض أنعامه . . . إنه يحسبنا بُلهاً مثله ! ! . وجلسنا نعمل الفكرة بعد الفكرة ، ونرسم الخطط تلو الخطط لنجاتنا . . . حتى تاحت لى فكرة حسنة ، أيقنت أنها تفلتنا من هذا السجن السحيق إن كان شئٌ مستطيعاً أن يطلق سراحنا منه ، لقد فكرت وفكرت ، فبدا لى أن لدى السيكلوب

(١) العلر الدم المتجمد

كباشاً كنزاً^(١) تستطيع أن تحملنا إذا رُبط كل منا تحت بطن واحد منها .
لقد كانت الكباش سميئة حقاً ، ذات فراء كثة وقوة كبيرة . فقمّت من
فورى فجذلت من أغصان الصفصاف التي كان السيكلوب الشنيع ينام
فوقها ، وجعلت من كل ثلاثة حبلاً واحداً ، ثم ربطت كل رجل تحت
بطن كبش كبير قوى جعلته بين كبشين لا يحملان أحداً ، بل يكونان وقاية
للكبش الذى يحمل رجلاً بينهما . . . أما أنا فتعلقت بصوف الكبش الأخير
وبقيت ساكناً صامتاً ، ومكثنا هكذا ننتظر الفجر المقدس الرهيب ، بعيون
واكفة^(٢) وقلوب واجفة^(٣) . حتى بزغت أورورا فهرولت الذكران
كعادتها للمرعى ، وبقيت الإناث لكى تحلب ، وتهادت
الكباش بالأنثى المعلقة تحتها وهى تكاد تنوء بها ، وكان السيكلوب لا يزال
يُغول ويشكو بثه إلى غير سميع . وكان يلمس بيديه ظهور الكباش وهو لا
يدرى ما تحتها ، حتى إذا برز كبشى ، زلزلت زلزالاً ، وسمعه يقول له وهو
يتحسسه : « يا كبشى الحبيب مالك أستاذيت هكذا وكنت دائماً سباقاً إلى
المرعى على رأس القطيع تقضم الكلاً الحلو . . . سباقاً إلى الغدير ذى الخزير
تنهل من مائه السلسيل ؟ بل كنت سباقاً كذلك إلى مأواك هنا . . . فى كل
مساء ؛ ويحك ويحك يا كبشى الحبيب ! لقد أسيت لى وحزنت من أجلى .
وشعرت بما دهى صاحبك من التعس الرجيم أوتيس ، وأتباعه اللؤماء
المفلوكين... أوتيس الذى سحرنى بخمره... ويل له ؟ إنه لن يفلت من الموت
اليوم ! آه لو كان قلبك مثل قلبى ، وآه لو كان لى بصرك الحديد فيدلنى أين
اختبأ أوتيس الثَّعَس ! إذن كنت أحطم رأسه فوق هذا الصخر ، أوتيس
الوغد . . . الذى اسمه لا أحد ! ! فهو لا يساوى شيئاً ؟ » .

ثم أفلته المغفل فانطلق الكبش فى إثر رفاقه ، حتى إذا كنا بعيدين من
الكهف ومن صاحبه قفزت من مكمنى ، وعدوت فأطلقت سراح رفاقى ،

(١) سمانا كباراً .

(٢) دامة .

(٣) خائفة .

وسقنا نخبة من أحسن النعاج إلى حيث سفيتتنا المختبئة في الجون الهادئ ... في ظلال الحور والسنديان ... ثم أبحرنا من فورنا فوصلنا إلى إخواننا في الجزيرة الأخرى ، الذين هناؤنا بقدر ما ذرفوا الدموع على ضحايا يوليفيم ! ! واعتزمتنا الإبحار فاستعد كل في سفينته ، وأقلعنا لائلوى على شئ . حتى إذا كنا على مبلغ الصوت من الشاطئ ، نهضت وجعلت أهتمف بالسكلوب يوليفيم هكذا : « يوليفيم ! لقد بؤت بما صنعت يداك ، وكان جزاؤك وفاقاً ، أيها النذل الخسيس ! لقد حسبت أنك تغتال رجال قائد لا سلطان له عليك ، ولا قدرة له على الانتقام منك ، فرحت تغتذى كالوحش بلحم ضيوفك الذين لجأوا إليك وتفيأوا ظلالك .. فاهناً الآن أيها الهولة بما حل بك ! » وما كدت أصمت حتى ثار ثائره وغلّت مراجله ، وانترع صخراً كبيراً من شعاف الجبل ، وقذف به في قوة وعنفوان ناحية الصوت ، فهوى الصخر على مقربة منا ، وكاد يهشم سكان السفينة ، وقد انفرج البحر ، وانشطرت أمواجه . وارتدت السفينة خو الشاطئ حتى لكادت أن تغوص في رماله وتتحطم على أواذيه ^(١) . لولا أن أمسكت بالسارية الكبرى وجعلت أدفع وأدفع حتى عادت السفينة إلى مكانها في البحر ... وابتعدنا قليلاً ... وجاهد رجالى بمجاديفهم حتى كنا على مسافة هي ضعف المسافة الأولى ... وهنا ، حاولت أن أصبح بالسيكلوب مرة أخرى ، غير أن إخوانى حالوا بينى وبين ذلك ، وسمعت بعضهم يقول : « ويك أوديسيوس ! لم تهيج الجنى بكلماتك ، وقد كاد الحجر الذى قذفه إلينا يودى بنا جميعاً ويحطم سفيتتنا على الشاطئ ؟ أما نحمد الآلهة التى أنقذتنا من ساعديه الجبارتين ، وهو لو سمع ركزاً من أحدنا لهشمنا جميعاً قبل أن تغادر غاره ؟ » على أننى ما أصحخت لهم ، بل هتفت بالمارد الجبار أقول : « أيها السيكلوب الطاغى ! إذا سألك أحد عن عماك فقل له أعمانى أوديسيوس ابن ليرتيس الايتاكي ! » وتأوه المارد حتى كاد يتصدع وقال :

(١) جمع آدى الموج

« ويلي منك ! لقد صدقت النبوءة ؟ وتحقق ما قال تلموس يوريميد النبي الذى شب بيننا وطالما تحدث إلينا معشر السيكلوبس عما خبأ القضاء فى صحف الغيب لنا ؛ لقد قال لى إنى سأفقد بصرى على يد رجل من البشر يدعى أوديسيوس ، فظلت أنتظره ، وكنت أحسبه مخلوقا طويلا عظيم الجسم بادی القوة ... فإذا هو أنت أيها القزم - اللاشئ ! - الذى قهرتني أولا بالخمر ثم أذهبت بصرى وأطفأت النور من عيني ! أوه ... ولكن ... عد إلى يا أوديسيوس وحل على ضيفاً من جديد . أكرم مثواك ... وأصل من أجلك لأبى ... نبتيون ... الفخوري ، أن يمهد لك البحر ، ويظامن من تحتك الموج حتى تصل إلى بلادك سالما ... إنه وحده هو اللطيف بى ، وليست قوة فى الوجود غيره تستطيع أن تشفينى وترد على بصرى ! » فقلت له : « بنفسى لو استطعت ففقدت بك من حائق إلى قرار جهنم فلا يقدر أحد على رد بصرك إليك - حتى ولا أبوك هذا ! » وغيط السيكلوب وحقيق ، ورفع كفيه إلى السماء يصلى لأبيه هكذا : « أبتاه نبتيون المحيط بالأرض ، اسمع دعائى ، يا صاحب الشعر اللازوردى ، اذا كنت حقاً أبى ، وإذا كنت حقاً تفخر بينوتى فاحرم هذا القزم المدعو أوديسيوس بن ليرتيس الايثاكي من العود إلى بلاده ، إلا أن يكون هذا قضاء فى الأزل فأقم العقاب فى طريقه ، وشرد به طويلا فى البحر ، وأغرق سفائنه ، واقبر فى الأعماق أصحابه ، وأحوجه إلى ذل السؤال وطلب المعونة من الناس ليمدوه بمركب يعود عليه ؛ وإذا عاد فليلق الهم والغم مقيمين ببابه ... آمين ! » ولبنى نبتيون ، ورفع السيكلوب حجراً أضخم من الأول ، وجعل يهوم به بكلتا يديه ، ثم قذفه قذفة هائلة ، فذهب يُرْتَق فوقنا ، وسقط وراءنا بمقربة من السكان ، فانشطر البحر فرقين كل فرق كالطود العظيم ، ثم انحسر الماء فجرت السفينة إلى الشاطئ مرة أخرى ، ولكنها هذه المرة أرسى على الشاطئ الآخر الذى أرسى عنده سفائنا الأخرى ، حيث أقام إخواننا يشهدون المعركة الهائلة ويجزعون ... ثم إننا نزلنا إلى البر ، وفرقنا الأنصبات من النعاج السيكلوب بيننا . وكان من نصيبى ذلك الكبش المفدى الذى

نجاني ، فذبحتني على رمال الشاطئ قرباناً لجوف المتعالى ... وأسفاه ! إن
أكبر ظنى أنه لم يقبل قربانى ، لأن أكثر سفائننا أغرقت فيما بعد ... وأكلنا
هنيئاً . وشرينا مريضاً . وانتظرنا مد البحر ، ولكنه استأنى علينا ، فمنا حتى
نضرت أورورا جبين الشرق بالورد ، ونهضنا ... ونشرنا الشراع وأصلحنا
القلاع ، وأبحرنا ، بقلوب واجفة ، ونفوس نال منها الهلع ، لائذين
بالفرار .

أوديسيوس يروى قصته

(أ) إيولوس وجعبة الرياح الأربع

(ب) في جزيرة الجبابرة

(ج) غرام سيرس

« وبلغنا جزيرة الأيوليين حيث يحكم الملك إيولوس بن هبوتاس . حبيب الآلهة . وهي جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسي الهائل ، وشطآننها التي يتكسر فوقها الموج . ولقد زوج الملك أبنائه الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم في قصره المنيف ، في فيء وارف من حب الملكة ، وفي بُلْهنية ^(١) ورغد ، وعيش واسع مخفرج ^(٢) ، ونعمى طائلة ، ولذائد شتى ... يقضون وقتهم في لهُو برئ ومرح ، ويأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضونة ^(٣) وزراى ^(٤) مبهوثة ... وأرائك من حرير .

ولقد لقينا الملك بالبشر والايناس وأقنا في كنفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ، ثم سألني فقصصت عليه قصة (إليوم) وكيف سقطت في أيدينا . وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا في ذلك العباب ضارين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يعيدنى في خفارته إلى بلادى ، فأجاب سؤلى . وأمدنى بكل ماييسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معى إلى البحر ، حيث قدم إلى جعبة مصنوعة من جلد عجل كبير جسد ^(٥) ، خيل إلى أنه ذبح في سن التاسعة ، وهي جعبة من صنع جوف سيّد الأولب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع . وأحكم رباطها بسلك فضى متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا بإذن ...

(١) حياة ناعمة سعيدة .

(٢) واسع

(٣) مسوحة ومرصعة باخواهر .

(٤) وسائل وضايف حريرية

(٥) قوى لايعى ولا يبير .

وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس - رب النسيم الحلو - فحلاً شراعنا ،
وهباً بين أيدينا ... وأسفاه ! لقد كانت هباته اللطيفة الرخية عبثاً ،
وضاعت في غفلة من رجالى سدى ! فلقد جرت بنا الفلك آمنة مطمئنة
طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا شطآن إيثاكا فخفقت قلوبنا فرحاً ،
واستطعت أنا نفسي أن ألمحَ مواطني الأعزاء يوقدون النار في شعاف ^(١)
الجبال ... بيد أنى كنت منهوكاً موهوناً من كثرة العمل ووعثاء السفر ،
وطول السهر والمراقبة ، فداعبت عيني سنة من الكرى ، لأنى كنت أسهر
على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ، ولم أكن آمن أحداً من رجالى على
الاضطلاع بها خشية الوَنَى ^(٢) . ومخافة التأخير ... وبينما كنت نائماً ،
لعب الوسواس في صدور رجالى ، زاعمين أنى أحمل أذخاراً من الذهب
والفضة أسبغها على إيبولوس الملك ... قال قائلهم : « يالآلهة ! أبداً
ماوطئت قدماً أوديسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا عليه فرحين معجبين
مكبرين ! وهو اليوم يعود من طروادة ومعه من طرفها وسلبها الجم
الكثير ... أما نحن فوأسفاه علينا ! لقد شاركناه تلك الرحلة المشثومة ،
وهانحن نرضى من الغنيمة بالإياب ، ونعود منها صفر الأيدي ، لا أماننا
ولا ورانا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا برغد ملك الرياح ، إيبولوس
العظيم ، هلموا يرافاق ! البدار إلى هذه الجعبة ننظر ما احتوت من أصفر
وأبيض . وأعطيات وهبات ... ولُهِىَ ^(٣) ! » ، وأقبل بعضهم على
بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجعبة فحلوا رباطها ... واحسرتاه ! لقد
انطلقت الرياح الحبيسة ، وزججت العواصف الهوج في كل صوب ،
وظفقت تكسحنا في شدة وعنف ... بعيداً ... من إيثاكا ! ولقد قفزت
من غفوتى خائفاً مذعوراً ... حتى خيل لى أن طوفاناً قد غمرنا ! ...
وظللت برهة في ذهول ودَهْش ، وطغت الأحزان على قلبى ، ورائت

(١) رؤوس خيل

(٢) الفتور ونقص

(٣) هدايا .

الهموم على نفسى ، وفَتَّ اليأس فى عضدى ... ولكنى لم أجد من الصبر
 بدأ ؛ فتحملت الكارثة فى هدوء وصمت ، وعصبت رأسى بثوب شِفِّ ،
 وانبطحت فى قمرى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول فى غير هودة ،
 حتى بلغ شطآن الأيوليين مرة أخرى ... وهناك بكى صبحى ... ولات
 حين بكاء ! وهبطنا الشاطئ ، وكان ههنا أن نرتشف من ماء إيوليا العذب
 رشقات ، ثم جلسنا نعد أكلة عجلى ولنلهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق إلى
 قصر الملك ثانية ... وقد كان يجلس لوليمة كبيرة هو والملكة الحسنة
 المصون ، وأبناءؤ الغر الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول النأى ،
 فحدجنا وقال : « ويك أوديسيوس فيم عدت أدراجك ! وأى سلطان
 مشئوم لوى عنانك بعد إذ أرسلناك مزودا بخير زاد لتصل إلى بلادك ، وتلقى
 آلك ؟! » ، وكان فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : تبارك الملك ! لقد
 خانتى رجالى اللؤماء ، وخانتى معهم طائف من الكرى ! فإذا شاء الملك
 فليجبر ما انصدع منا ، وهو لا يزال صاحب الحول والطول ! .. وهكذا
 شاءت المقادير أن أقف ضارعا إلى هذا الملك مرة أخرى ... وقد تلبث
 أبناء صامتين لا ينسبون ... واكفهر وجه الملك وقال : « أيها الرجل
 انطلق ... أغرب عن جزيرتنا هذه يا أتعس الناس ! انطلق فوالله إني
 لأستغفر الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو نفسه ، ممقوت من
 الأرباب ، مغضوب عليه من السماء ! » وهكذا طردنى الملك شرطردة ،
 فضيت على وجهى ، ولقيت أصحابى ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب
 بمجاذيفنا ، ونسكب فى هذه الأعماق المضطربة قوانا ، لا أمل لنا فى
 الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء فى الخلاص من هذه البؤوس ! ووصلنا
 مدينة ليستريجونيا بعد نَصَب ستة أيام بلياليها ... تلك المدينة الموحشة التى
 بناها منالاموس العظيم ... والتى تغزو الحشرات مروجها نهرا ، فيخرج
 الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء الكثة التى تحمى الحيوانات من ذبابة الماشية
 وتدفع عنها غائلتها ، فإذا جَنَّ الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرهم ، وذهبوا
 بالنعم لترعى فى هدأة الليل ، ولتكون بمأمن من غوائل الذباب الذى يكون

قد غلبه النعاس ... وصلنا إلى هذه المدينة فألفيناها محصنة بسور عظيم من الحجر الصلد . ينحدر قليلاً قليلاً إلى الميناء . ممضيقي صغير لا تعلو فيه موجة . ولا يتحرك فيه الماء ... وقد أدخل رجالي سفائنهم في هذا البوغاز . وآثرت أنا أن أظل بسفينتي عند فمه مما يلي البحر . فالقيت مرساى . وثبتها في حجر كبير ، ثم وثبت إلى الشاطئ . وتسمنت ربوة عالية . وأخذت أجيل نظري في الجزيرة ... ولم أقف لإنس أو حيوان على أثر . وبدت الأرض جرداء بلقعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يصاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالي جعلت عليهم ثالثاً رئيسياً . ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة . وليتحسسوا أخبار أهلها ... وقد قص هؤلاء آثار العربات التي يستعملها السكان في نقل الأخشاب من الغابة إلى مدينتهم ؛ ولقوا عند مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ، فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك أنتيباتاس ملك هذه البلدة ... ومشت بين أيديهم حتى كانوا في قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة . فلم يجسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيتهم من الفزع ، وكانت هذه هي الملكة التي صاحت عند ما لحت رجالي ، بزوجه ، فأقبل يهتز وتزلزل الأرض من تحته وما كاد يلمح هؤلاء الغرباء حتى أمسك بواحد منهم وخبط به الأرض فحطمه ... كأنما أقبل ليخوض معمعة ... ؛ وانطلق الآخرون لايلويان على شيء ؛ حتى بلغا سفائننا ... ثم زجر الملك بصوت قاصف كالرعد يدعو إليه رعاياه . فأقبلوا إليه من كل حذب . مردة جبارين كالأغوال . لاعدد لهم . ولا تقع العين على أبشع منهم ... ثم تهاووا إلى الشاطئ حيث أرسى سفننا ، فجعلوا يقذفونها بحجارة من سجيل . جعلت رجالنا كعصف مأكول ، وجعلت مراكبنا حطاماً كان يهوى إلى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبابرة ينشلون قتلانا بخراهم ليعودوا بهم إلى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم ... وهكذا استمرت هذه المذبحة الدامية ... وكنت واقفاً في مركبي . وجرأى إلى جانبي . فاسرعت إلى حبال المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالي إلى مجاديفهم

فأعملوا فيها بأيديهم ... وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التي كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتهاوى عن شمائلنا وعن أيماننا . فتشيع في فرائصنا خطر الموت ... وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ، ومع ذلك . فقد كانت قلوبنا تعتلج هماً وأسى على إخواننا ... ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ، حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات الشعر الكهرماني . أخت إيتيس الحكيم من أيها الشمس . وأمها پرس ابنة أوشيانوس . وكأنما مشيت عناية السماء بين أيدينا فرسوناً في جو هادئ ساكن في غير جلبة ولا ضجيج . ثم هبطنا إلى الساحل فلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح مما بنا من أين ^(١) وجهد . وكلنا فرائس لما في أضالعنا من شجو وهم وشجن . ثم إنني تسلحت برمحي وسيفي وحشيت خطاي في أسناد الجبل حتى كنت في ذراه الشاهقة ، ووقف ثمة أنظر وأتحسس ، فلمحت في البعد دخاناً يصاعد بين الدوح والزهر من قصر سيرس وبدا لي أن أتوجه إليه من فوري عسى أن أجد عنده خيراً . ولقد ترددت بعد ذلك كثيراً وكدت أعود أدراجي إلى السفينة لأرسل نفرأ من رجالى يكشفون لي الطريق إلى القصر . وما كدت أخطو خطوات حتى ساق إليّ أحد الآلهة ظلياً غريباً شرد من المرج المعشب الخلو ليستقي مما ألح به من ظمأ فارسلت إليه رمحي فقصم ظهره . وسقط يتخبط في دمه . وقطعت شيئاً من عساليج الصفصاف وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أرجله واحتملته على ظهري . ومضيت قدماً إلى رفاقي متوكئاً في كل خطوة على رمحي إذ لم تعد شيخوختي تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالي في مرح وظرف أن : « هلموا يارفاق فلن نقضى قبل أن تحين آجالنا ! هلموا إلى ظبي فنيق ^(٢) وشراب عتيق ، واطرحوا ما بكم من هم وضيق ... » وأقبلوا فرحين وشمروا عن سواعدهم وهم يتعجبون من هذا القمص الغريص ، وظللنا يومنا هذا نطعم ونشرب ، حتى إذا أرخى الليل

(١) تعب

(٢) كريم تربي و عز وأمر

سدوله انكفأنا على الشاطئ نعط في سُبات هادئ ... وذرت أورورا ابنة
 الفجر الوردية فهتفت برجالى فهبوا . ثم جلسنا ساعة نتشاور . وأنا أقول
 لهم : أيها الرفاق ! ياإخوان الشدائد ! هانحن أولاء قد لصقنا بهذه الأرض
 ولسناندري أيان نذهب ؟ هل نُشرِّق . أو نُغرب . أو نظل هنا أبد
 الدهر ؟ ! ولكن هلموا ننظر لأنفسنا مخلصاً مما نحن فيه ... فلانى حينما
 تسنمت ذروة هذا الجبل أجلت الطرف في أرجاء هذه الأرض فعرفت أنها
 جزيرة تترامى إلى مدى البصر ؛ ثم إني آنست دخاناً يعلو في الجو من
 وسطها . ينبثق من سُرّوات طوال فيها ، فرؤا لأنفسكم أثابكم الله -
 وكأنا اسقُط في أيديهم ، وكأنما حاقت بهم ذكريات آتينا ناس وقومه
 اللسترنجون . وما لقوا من هول السَّكالب أكلة اللحم البشرى ، فبكوا
 ساعة من الزمان . ثم استرجعوا حيث لا يحدى البكاء ... ثم قسمتهم
 فريقين . جعلت على أحدهما يوريلاخوس ، قرْن الآلهة ، وجعلت نفسى
 على الفريق الآخر . وجلسنا نقترع على من يذهب لارتياذ الجزيرة فوضعنا
 الرقاع في خوذتى ، ثم كانت القرعة على يوريلاخوس . فمضى ، وتحت
 إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا . كانوا جميعاً يذرفون الدمع خوفاً وفزعاً مما
 وجهوا إليه ، وكنا نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاء ببكاء ... ووجدوا قصر
 سيرس في بطيحة^(١) منخفضة ، فإذا رأوا ؟ ! قصر مُنيف مُمرّد تحديق به
 تماثيل حية من سباع وذؤبان سحرتها سيرس بعقاقيرها ذات القوى الخارقة
 الخفية ... ولم تؤذهم تلك الوحوش . بل كانت تثب على أرجلها الخلفية
 في دل وتلطف ، ثم تبصص بأذنانها كأنها كلاب السادة العظماء حينما
 تتملقهم في ولجة من أجل لقيات ... وتسمعوا . فإذا سيرس تتغنى بصوتها
 المعجب المطرب وهى تعمل على نولها ، مشغولة بنسيج سابرى عبقرى
 عجيب . ليس يقدر على مثله إلا الآلهة ، وكان في رجال الفريق أمير عظيم هو
 عندى أربطهم جأشاً فقال : « أسمعون أيها الأصدقاء إلى هذا الغناء احلو
 تردده جنبات القصر ؟ إنه لاشك غناء ربة الدار التى تعمل على نولها .

(١) لأ ص التسعة

ولست أدري أربة خالدة هي ، أم من بنات حواء ... وعلى كل هلموا نهتف بها » . وتنادوا . وأقبلت سيرس فهشت لهم وبشت . وأذنت لهم أن يدخلوا ... فدخلوا ، وأسفاه ، إلا يوريلاخوس فقد خشى أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ثم قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش فخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقى بخمر وعسل ثم جئ بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعى آكليها ، وتشيههم ماسلف من أمورهم ، بل تسليهم ذكريات أوطانهم ، ثم ضربت كلا بعصاها السحرية بعد إذا أكلوا ورووا ، واستنأقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا فكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألباهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز ^(١) الكلابى . وما إلى هذا وذلك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة .

وأقبل يوريلوخوس ينتفض من الذعر ، وينعقد لسانه فما يكاد يبين . ثم هدا روعه قليلا فطفق يصعقنا بأنباء ما رأى : « أوديسيوس ياذا المجد ! لقد ذهبنا نتحسس كما أمرتنا ، ونرود هذا الوادى الأثيب ^(٢) فوجدنا قصرأ مشيدأ فوق أكمة عالية . وسط بطيحة منخفضة ، ذا قبة سامقة جلست تحتها امرأة أوربة - لا أدري - ولا تفتأ تعمل على منسج بخفة صنعة . وترسل ألحانأ حنونأ حلوة ، وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت فلقيتهم بالبشر وفتحت بابها على مصراعيه فدخلوا جميعا - حاشأى - فقد أوجست خيفة ، ووقرفى قلبى أن ثمة شركأ نوشك أن نتردى فيه ؛ وقد راقبت رفاقى إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة . ثم هالنى ألا أراهم فجأة ! » وما كاد ينتهى حتى قفزت إلى سيفى فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدى إلى حيث ذهبوا من قبل ، ولكنه ركع أمامى وتعلق بساقى وجعل يرجو ويلحف فى الرجاء ألا أذهب . . . « فإنك لن

(١) الكريز: وجمعه الكراز بالضم الأقط . والمراد هنا فاكهة الكريز .

(٢) النضر

تفشل في إعادة رفاقنا فقط . بل قد تفشل في أن تنجو بنفسك . فانطلق
 بمن بقي منا ، وياحبذا لو استطعنا الفرار ! » ولكني أجبته أن له أن يبقى هو
 فيأكل ويشرب في السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه أما أنا . فلم أر
 ضرورة لبقائي .

وانطلقت لا ألقى على شيء . ولكني قل أن أبلغ الطيحة التي بها
 القصر . لقيني هرمز الحبيب إله العصا السحرية . وكانت مخايل الصبا
 وبدوات الشباب تتدفق في بردتيه . وحمرة الورد نلتب في خديهِ ؛ لقيني
 فصافحني متلففا وقال : « أيها التعس أبان تضطرب وحدك في هذه
 الأرض . وقد حسنت سبرس من أرسلت من رجالك في حظائرها بعد إد
 سحرتهم إلى خناير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم
 إلى الأبد ؟ ولكن اصغ إلى : إني سأحبط ما فعلت . وسأحميك
 وأحفظك . خذ هذا العقار ^(١) ولا يهملك بعد أن تدخل قصر سبرس فإنه
 ينقذك من كل خطر . . . وهلم أعلمك ما عندها من السحر . إنها ستمزج
 لك كأساً من الشراب بما عندها من رجز . وستضع لك منه في طعام
 تقدمه لك فكل وارو ولا تبال . فهذه البقلة العجيبة التي أعطيك ستحبط
 كل ما نحيك لك فلا تقدر على مسخك كمن مسخت من رفاقك . . فإذا
 عاجلتك بعصاها السحرية فاهجم عليها بسيفك غير هياب . وأرسل إليها
 شرر الغضب من عينيك فإنها حينذاك تنقادلك . وتقودك إلى غرفتها .
 وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى . فإياك أن ننصاع لها .
 واطلب إليها أن تبطل ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا تمسك
 بأذى . واحذر يا صاح أن تدلس فصل خيرك بما ركب في طبعها من
 شر . » وانخني رسول الآلهة فالتقط عشباً من الأرض ثم وضعها في يدي
 وأخذ يكشف لي أسرارها ويقص عليّ قواها الخارقة وذكر لي أن
 اسمها (مولى) . وبه يدعوها في السماء . وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف

(١) واحد العقاقير د .

يشفون بها رُقَى السحر . . . وكانت جذورها سهداً حالكة السواد . أما زهرتها فكانت بيضاء ناصعة البياض كاللبن . . . وودعنى هرمز تم رِف ورف . وعرج في السماء وانطلقت أنا أخبط في طلمات من هواجسى حتى كنت لدى باب ربة السحر التي وجدتُها تعمل كما ذكر لي صاحبي على نولها . . . وصحت صيحة عالية . فأقبلت تتهادى نحوى وفتحت مصاريع أبوابها . ودعتنى . فدلقت وراءها . حتى كنا عند عرش عظيم مُرد فضي . ذى درج . فاستويت عليه . وذهبت هي فمزجت لي كأساً من الخمر بشئ من عقارها . وفدتمته لي فاحتسبته . بيد أنني لم أغير ولم أنحول عن صورتي . فضربتني بعصاها السحرية وهي تقول : « هلم إلى الحظيرة حيث تفر مع رفقاءك » ولم تكذب تصمت حتى وثبت من مقعدى وامتشقت سيفي . وهجمت عليها . وفي عيني جحيمان من نار الغضب ؟ فرؤعت ربة السحر ، وزُلزلت زلزالا عظيما ، وجرت نحوى ، وركعت عند قدمي ، وتعلقت بساقى . وأخذت تضرع إلى وتقول في بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يامن لم تسحرك جرعتي الهائلة التي لم يدقها أحد وظل في صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً لا تجوز عليه نفثات السحر . . . هلم . . . تعال . . . إلى إلى إلى أعرفك أحسن المعرفة . . . إنما أنت أوديسيوس الصّناع ذو الذكر ، ولقد وصلت إلى هنا من اليوم بدورك فلم يشأ هرمز ذو العصا الذهبية أن يخبرني بمجيئك ! ولكن اغمد سيفك . وهلم ننعيم بالحُب كزوجين . وليفرخ روعك وليهدأ بالك . . . اطمئن يا أوديسيوس ، هلم ! » وصمتُ لحظة ثم انطلقت أجيبها « سيرس ! كيف تتصورين أن يفرغ روعى ويهدأ بالى وقد حبست في رحابك رفاق وشركاء رحلتى بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؟ ثم تخشين إفلان فتخادعينى وتبهجين على بطلاسم الحب ، داعية إياى إلى فراشك لتشوى صفاء فضيلتى برجس رذيلتك . . . لا . . . لا . . . إني لن ألبي لك طلبا حتى تقاسمينى أغلظ الأقسام ألا تلحقى بى أذى ، وألا تحاولى الإضرار بى » وراحت تخلف

وتؤكد الحلف . وتقسم وتغلظ في القسم . ثم إني انطرحت في سريرها
 الفخم الديباجي . وأقبلت أربع من عرائس البحر . خطرن من اليم وأقبلن
 من العيون والخرج ابجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما الأولى فقد أصلحت من
 سريرنا وطرحت عليه مطارف الخز . وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت
 الكراسي . وجاءت الثالثة بزق عظيم من شراب طيب ملأت به الكؤوس
 الذهبية المنضدة فوق الموائد - أما الرابعة فقد أعدت لي حماماً ساخناً
 وضمختني بأحسن الروائح والطيوب . حتى انتعش جسمي الخائر .
 وتأرجحت روحي الفاترة . . . ثم ألبستني ثوبين غاليين من أندر الديباج ،
 ومشيت بين يدي إلى عرش عظيم مزدان بأحسن التصاوير . مطعم بالذهب
 والفضة . فاستويت عليه . واضعاً قدمي على درج من لباد ناعم . . .
 وأقبلت بعد ذلك عروس أخرى فصبت الماء على يدي من إبريق من
 ذهب ، في طست من فضة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى الآكال فوضعتها
 قدامي لكنني ما مدت إلى شيء من ذلك يدي ، لما كان يساورني من
 الهم . وما يشغل بالي من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس أقبلت
 تيمس . وأخذت تلاطفني وتقول : « مالك تجلس ساكناً يا أوديسيوس ،
 كالذي غشى عليه ، ولا تكاد يدك تمتد إلى شيء ، وكأن ألف وسواس
 يخامرک ؟ ألا تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى فيها ؟ ! ألا ما أكبر
 غفلتك يا صاح ! اطمئن . فلقد أعطيتك موثق وحلفت لك بأغلظ الأيمان
 ولن أطلب إليك حراماً ! » وأجبتها قائلاً : « كيف تمتد يدي إلى طعام أو
 شراب ورفاقي لا يزالون في إسار سحرک ؟ أبداً لن أذوق شيئاً حتى ترديتهم
 إلى صورهم . ثم ألتقي بهم » ونهضت تحمل عصاها السحرية وذهبت من
 فورها إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقي . وكانوا لا يزالون في صور
 الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ، فعادوا إلى صورهم البشرية ،
 وبدوا في أنصر شباب وأصباة ، ثم أقبلوا نحوي يلثمون يدي ، ودموع
 الفرح تبلل مآقيهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون وتردد أصداءهم جنبات
 أنقصر . حتى تأثرت سيرس نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن

ليرتيس الصنّاع . هلم إلى مركبك فاشددها فوق البر لتكون بمأمن من غوائل البحر . ثم خيئ كنوزك وأذخارك في غيران هذه الحال . وعد إلى في جميع رفاقك » وطربت لهذه الفكرة فهرولت إلى الشاطئ حيث لقيت الآخرين يندبوننا ويذرفون دموعهم علينا . وما أن رأوني حتى أهرعوا نحوى يرقصون ويطربون ويحيون كهذه البهيم التي تعود في المساء إلى حظائرها فتتلقاها صغارها بالثغاء والرغاء والضوضاء . وهكذا تلقاني أولئك الرفاق . وبدلت دموع أحزانهم بعبرات المسرة . وخيل لهم أنهم رأوا في وطنهم النائي المحبوب إيثاكا . حيث ولدوا وحيث نشأوا وترعرعوا . . . قال قائلهم : « تالله لكأنا رأينا فيك أوطاننا يا أوديسيوس . وتالله لقد طفرت قلوبنا حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا أيها العزيز كيف هلك إخواننا في هذا التيه » وقلت لهم : « هلموا أولاً نجبر مركبنا على هذا السيف^(١) الهادئ . ولنخيئ أذخارنا وسلاحنا في غيران هذه الجبال . ولننطلق جميعاً إلى سيرس حيث ترون جميع رفاقكم في أمنة وعز وطعام وشراب . ونعيم مقيم » وصدعوا بما أمرتهم إلا يوريلوخوس . فقد سمر مكانه . وكأنه لم يخفل بما أخبرت به . ثم حرك شفتيه فقال : « ويح لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين إلى قصر سيرس . وقد تمسخنا جميعاً إلى سباع أو ذؤبان أو خنازير . ونظل إلى الأبد نحرس عرينها مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوس أوديسيوس وقلة بصره . يوم حسبنا السيكلوب من أجل أطاع رئيسنا الطياش^(٢) ! » وأوشكت أن أضرب رأسه بجرازي . قيخر إلى الأرض برغم ما يربطني به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة . لولا أن هب رجالى الآخرون يصرخون ويقولون : « أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس فلكننا ، أما نحن فراحلون معك إلى قصر سيرس . ولو كان ملئه الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من السفينة على الشاطئ . وانخرط يوريلوخوس بينهم منصاعاً لنظراتي

(١) الشاطئ .

(٢) الطائش

المنأججة . . . أما ما كان من سيرس حينذاك . فإنها أدخلت رفاقي إلى حُمامها ثم ضمختهم بأحسن الطيوب . وخلعت عليهم أفخر الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم يطعمون . فما إن رأونا حتى هبوا يعانقون أصحابهم ويبيكون . ثم جلسوا يستمعون إلى قصة ما حل بإخوانهم . وهم يصعدون زفرات الحزن . ترددها قباب القصر ونهضت سيرس فوجهت إلى الخطاب إذ تقول : « ابن ليرتيس العزيز هون عليك . وليرفه رجالك عن أنفسهم ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن . ولترقأ دموعهم جميعاً . . . إني لا أجهل ما تجسموا من أهوال في ذاك البحر المضطرب . وما لقوا من فوادح في كل أرض . بما كتب لهم في لوح القضاء . . . ولكن . تعالوا جميعاً . . . أنعشوا نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح . ولتستشعروا بأسكم الذي كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شيطان إيثاكا العزيزة . . . إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فإنها تفت في عضدكم وتوهي من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم وإلباً عليكم . ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش وبهجة الحياة ! » . ووقعت كلماتها في قلوبنا فأقبلنا على الطعام والمدام ؛ ثم إننا أقننا عندها عاماً بأكملها في أرغد عيش وأحسن حال . متقلبين في أرفه نعيم ؛ ثم استدار الزمان . وهتف بنا قانون الأزل . فدعاني رجالي إلى جلسة خارج القصر فقالوا لي . « تذكر يامولانا وطننا الأول ، فإننا نحن إليه ونتمنى لو ساقطنا المقادير إلى شيطانه » وكأنما نهوا مني غافلاً . فتلبثنا يومنا هذا على مائدة ربة السحر في بلهنية وعيش مخفرج وخمر ، وأقبل الليل فأوى كل إلى فراشه . وأويت أنا إلى سيرس فداعبتها ولاطفتها في صَوْنٍ وطهر ، ثم قلت لها في رجاء وظرف : « سيرس ياربة ؟ حبذا لو وفيت بعهدك فأرسلتنا فوق هذا البحر رحمة بنا . لنقضى حاجات الوطن . ولتنقطع شكاوى صحابي التي مزقت نياط قلبي » . وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ، المعروف بأصالة الرأي ورجاحة الفكر . إني لن أقسرك على البقاء هنا . لا أنت ، ولا أحداً من رفاقك . ولكنك قبل أن تفكر في شد رحالك إلى بلادك ينبغي أن تذهب في رحلة شاقة بعيدة المدى . . .

إلى هيدز^(١) . . . دار بلوتو^(٢) و برسفونية . . . حيث تلقى النبي الصّديق الصالح تيرزياس . الذى احتفظ وحده فى عالم الموتى بكل أسرارهِ وقواه الغيبية الخارقة . والذى يثوى فى رحاب ملكة الفناء يتنبأ لها وتستوحيه وتستشيرهُ فبِعَرَف^(٣) لك عما يهكم ويقفك على ما ينطوى لك من صَحف الغيب » وما كادت تنتهى حتى انحُلِكت الدنيا فى عيني وتدفقت الهموم فى نفسى . وأجهشت وأجهشت . ثم استخرطت فى بكاء طويل . وما كدت أصحو من هذه النوبة حتى قلت لها : «أنى لى ياربة أن أذهب إلى هيدز ؟ ومنذا الذى يحدونى إليها . ولم يسبقنى إليها أحد من أحياء البشر ؟ » فقالت نجيني : يابليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك . ولا يخزنك ألا يكون لك إلى هيدز من دليل . بل هلم إلى سفيتك فأصلح قلاعها وانشر شراعها وستهب الصّبا^(٤) سَجَسَجاً فتَهْدِيكم رويدا . فإذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ^(٥) النز^(٥) الذى تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونية . فادفعوا إليه بسفيتكم ثم تهاوؤا إلى مثنوى بلوتو السحيق الذى يبتدئ عند الصخرة الهائلة التى تتكسر فوق أواذِها أمواه أشيرون^(٦) وستيكس وكوكيتوس فتركوا سفيتكم ثمة . واحفروا عندها حفرة ذراعاً فى ذراع ثم صبوا فى جهتها الأولى قرباناً من لبن وعسل . وفى الثانية خمرأ معتقة من أحسن ما تعصرون . وفى الثالثة ماء قراحا . فإذا كانت الرابعة فاثروا الدقيق فوق الجميع . واصنعوا ذلك باسم الموتى جميعا . ثم انذروا لهم أن تذبحوا يوم تعودون إلى إيثاكا سالمين عجلاً جسداً من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لتيرزياس كبشاً سَمُورِيا ليس فى أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلاداً ، فإذا فرغتم من صلاتكم ونذوركهم وأدعيتكم لجميع الموتى من كل الأمم فاذبحوا فى الحال كبشاً

(١) الدار الآخرة (٢) إله الموتى وروحه (٣) يشكهن من العرافة بالكسر .

(٤) ربح الشمال وسجسجا أى هوباً لطيفاً . (٥) الذى ينزل الماء مصدراً ستعمل صفة

(٦) تنطق الشين كما فى مشددة وقد أثرتا الشين فى كل كتبنا لتسهيل النطق . وهذه كلها أنهار فى العالم

الثانى فى أساطير اليونان .

ونعجة سمورية . على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيحوا بوجوهكم تلقاء الشاطئ . فإذا صنعتكم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتى تقبل نحوكم من كل فج . فسارعوا إلى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها في النار مصلين ملبين داعين كما تهدأ نفسا بلوتو وزوجته پرسفونية . ولا تسمحوا لأرواح الموتى أن تفرب أضحياتكم . وذودوهم عنها بأسيا فكم حتى تلمحوا تيرزياس قادماً فيلقاكم ويحدثكم ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم في هذا البحر الرجراج المتلاطم بالأمواج . وسكنت . وانبج الصبح . فنهضت تصلح من أثوابها وتضني عليها من شفوفا البيض كالندف . وتنثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثلج . أما أنا فنهضت كذلك . واكتسيت صدارى ودثارى ثم توجهت إلى رفاقي فأيقظتهم وحشتهم على الإبحار من تونا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعاً إلا قتي يافعا لم يكن له يدان في هذه الشدائد . بل كان كل همه في كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يعي شيئاً . وكان اسمه أليثور . وكان قد غرق في سبات عميق فوق سطح القصر . وقد أفرعه ما سمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه مخموراً متخاذلاً وساقته قدماه إلى حافة السطح فزلتاً وسقط إلى الأرض . ودُقَّ عُنُقُهُ . فسبقت روحه إلى هيدز . وقلت لأصحابي لما اكتمل جمعهم : « أتظنون أنا مبحرون إلى أوطاننا ! ! كلا يا رفاق ! فأمانا رحلة طويلة شاقة إلى هيدز ، حيث ينبغي أن نلقى تيرزياس النبي الصالح ليُعرِّف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيحتها لسامعون ! » ونخفت قلوب إخواني . ونظر بعضهم إلى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شيء غير هذا ينفعهم . وانقلبنا إلى البحر ، وكانوا لا يزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . . . وفيما نحن ذاهبون . كانت سيرس تسوق إلى السفينة كبشاً عظيماً ونعجة سمورية . . . وإن كنا لم نرها قط . ومن ذا الذي تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة رائحة أو جاثية إن لم تشأ هي أن تكشف عن نفسها ؟ »

رحلة أوديسيوس إلى العالم الثاني

وذهبنا إلى الشاطئ وأنزلنا الفلك إلى الماء ، ثم أصلحنا القلاع ونشرنا الشراع ، ووضعنا القرايين على السطح ، وذرفنا من الدموع ما شاءت لنا الهموم والآلام ... وأقلعنا ... وأرسلت سيرس بين أيدينا ريحاً رخاء كانت خير معوان لنا وخير رفيق في سفرتنا الرهيبة هذه ، حتى لتركنا لها مقابليد الفلك ، وأنسَدَ حُنّا ^(١) فوق السطح من غير ما عمل . ولم تزل تجرى بنا طول هذا اليوم ، حتى إذا أوشكت الشمس أن توارى بالحجاب ، وقارب الظلام أن يلتقِ أردانه على الكون الهادئ ، أشرفنا على تخوم البحر الأعظم ، حيث تنهض مدينة السمريين التي ينعقد من فوقها دَجَن . ^(٢) كثيف وظلمات داجية ، فلا تنفذ إليها شعاعة من نور ، ولا يحییها رسول من شمس هذه الدنيا العاملة الدائبة ، التي يسطع في سماواتنا ركبها الفخم ، فهي أبداً في ليل متصل مد لهم ، لاتنجاها عنها غواشيهِ . وهنا ، ألقينا مراسينا ، وأنزلنا الكبش والشاة إلى البر ، وانطلقنا فوق سيف البحر إلى حيث أمرتنا سيرس ، وتركنا يوريلاخوس بن برميد عند القربانين ، وعنيت أنا باحتفار الوهدة فجعلتها ذراعاً في ذراع ، ثم شرعت أصب تقدمات الشراب باسم الموتى فبدأت بمزيج من اللبن والعسل المصني ، وأتبعته بالخمر المعتقة ، وثلث بالماء القراح ، ثم نثرت على ذلك كله دقيق الشعير وصليت من أجل الموتى ، ونذرت - إن عدت إلى إيثاكا - أن أضحي لهم بعجل عظيم ذى خوار يكون أسمن وأقوى ما في قطعاني ، أذبحه وأحرقه في نار مجللة بكل ما يشوق الأشباح من أرواح وطيوب ، وخصصت الكاهن الطيبي (تيريزياس) فنذرت أن أضحي له بأحسن كباشي وأعظمها مئة ، ثم

(١) انسَدَ : نام وقرج بين ساقيه

(٢) السحاب المظلم

شمرت عن ساعدى ، وذبحت القربانين فتدفق الدم فى الوهدد... وهنا ...
أهرعت الأشباح من كل فج ، وأقبلت مهطعة كأسراب الدّنى ^(١) ...
يا للآلهة !! هنا ، زرافات العذارى جرعن كأس الحمام فى ميعة الصبا ،
وهنا ، جموع الشباب اليانع كأفواف الزهر غالهم عادى الردى ، وثمة ،
عرائس سادرات تسربلن بسواد الحزن ، فجأتهم المنايا ليلة الزفاف ،
وهناك ، أطفال كأكام الورد لما تفتح قطفهم أيدى المنون ، وعن كئيب ،
وقفت كواكب المحاريين الذين لطحوا بالدماء وجه البسيطة ... والآباء
والأمهات والأجداد ... أقبلوا يتدافعون نحو الوهدة صائحين صاحبين ،
قاذفين فى قلوبنا الرعب ... ثم هتفت برجالى فشرعوا يحرقون القرايين
ويصلون لرب هذه الدار - بلوتو - ولزوجه ، ورحت أنا أذود الأشباح
الهائمة عن دم الضحايا بسيفى أضرب به ههنا وههنا ، حتى لمحت روح رفيقى
ألینور ^(٢) الذى تركناه فى أرض سيرس دون أن نقيم له شعائر الموت لما كنا
بسييله من هموم ... لمحت روح رفيقى فتصدعت ، ثم ذرفت عبرات ،
وعبرات وكلمته قائلاً : «ألینور ! يا صديقى ! كيف وصلت إلى ظلمات
هذه الدار الآخرة فى مثل هذه السرعة ولم تحملنا إليها سفينتنا إلا بعد لأى ؟
عمرك الله هل سبحت فى الهواء ؟ أم طويت إليها الرحب ماشياً ؟»
وانهمرت من عينيه دموع ودموع . ثم قال يجيبنى : يا ابن ليرتيس النبيل ،
المعروف فى العالمين بالحكمة ودقة الفهم ، لقد أودى بى السكر فسقطت
من سطح سيرس فدق عنقى وأسرعت من ثمة على درج الظلمات إلى
هيدز ... على أننى استحلفك بكل عزيز عليك ، بببلوب ، بالنار المقدسة
التي تتأجج عن قبسها حياتك ، بولدك الأوحد تليماك أن تجمع ما تبقى
من سلاحى وعتادى إذا عدت إلى سيرس ، وأنتك إليها لعائد حين ترجع
أدراجك من عالم هيدز ، وأن تحرق جثمانى فى نيران هذا العتاد ، ثم تصلى له ،

(١) الجراد

(٢) ألینور الثمل الذى سقط من السطح فدق عنقه (الفصل السابق) .

وتضرع إلى الآلهة من أجلى حتى أقرهنا ، وتهدأ في تلك الظلمات روحى ،
وأن تغرس فوق الكومة التى تشمل رفاقى ، مجدافى العزيز الذى عملت به
فى البحر تحت إمرتك ، وفى ذرى سلطانتك وقيادتك حتى يذكرنى فى العالم
الفانى الذاكرون . ووعده أنى فاعل ثم لم أزل أذود الأشباح عن الدماء
المتدفقة ، وفجأة لمحت بين أرواح الموتى شبح أمى ! أمى المحبوبة أنتكليا ابنة
الشجاع أوتوليكوس ، التى تركتها يوم يمت شطر طروادة قوية ، غريضة
الصبا ريانة الشباب وما وقعت عيني عليها حتى أجهشت وأجهشت ، ثم
انهمرت من مقلتي أحر العبرات ... ومع ما كان يعتلج به صدرى من الأسى
عليها ، فقد ذدتها عن الدماء كذلك ، وبنى من الهم لتلك الفعلة ما أوهننى
وأضوانى . ثم أقبل نبي طيبة وكاهنها الجليل ، يتوكأ على عصاه الذهبية ،
وما كاد يحملنى فى قليلا حتى عرفنى وخاطبنى يقول : « لم غادرت الدنيا
الدافئة المشرقة أيهذا التعس ، وقدمت لترى هؤلاء الموتى ولتضرب فى
ظلمات هذا العالم العبوس ؟! ولكن نَحْ هذا السيف قليلا حتى أخرج من
تلك الدماء ، وإنى لمحدثك حديث الصدق عما جئت من أجله » وأغمدت
سيفى وانحنى الكاهن فعب من الدماء ما شاء ، ثم قال لى : « أوديسيوس !
إنك تجتهد أن تعود أدراجك إلى بلادك ، غير أن طريقك إليها مخوفة
بالمكاره ، ممتلئة بالعقبات ، وإن لك فيها لعدواً يتأثرك ، ذلك هو نبتيون
الذى أسخطته بما سَمَلت عين ولده السيكلوب (بوليفيم) على أنك واصل
بعد أهوال جسام إلى وطنك ، فإنك إن كبحت جماح شهواتك ، أنت
ومن معك ، فإنك واصل يوماً إلى شيطان تريناشيا ، وتكون قد أفلتت من
روح اليم وأرزائه ، فإذا كنت ثمة . فاحذر أن تمس قطعان رب الشمس
السائمة فى الجزيرة بأذى إن كنت جد حريص على العودة إلى بلادك سالماً ،
مهما اقتحمت بعد ذلك من عباب وعقاب . فإذا مسها منكم أحد بأذى ،
فويل لكم جميعاً ! إن فللك تغوص إلى الأعماق ، ويغرق رجالك
أجمعون ، أما أنت فتنجو بعد جهد ، وتلتقطك سفينة عابرة وتعود بك
بعد شقاء وبلاء ، وعناء أياماء ، إلى وطنك الذى ينتظرك فيه ألف

ويل ! وويل ستجد قصرِكَ المنيف محتلاً بطغمة أشرار من خطاب زوجكِ الوفية لك ، يُريغون خيرِكَ ويدبّحون شاءكَ ، ويغرون بنبوب بالعطايا والرّشي لتختار من بينهم بعلاً لها ... ولكنكِ ستنتقم منهم وتنتصف لما قدموا من سوء ، وستبید جموعهم ، فإذا تم لك النصر عليهم فانطلق من فورك إلى الشعب الذي لم ير البحرَ أحد من أهله ولم يذق الملح أحد منهم قط ، وليكن معكِ مجداف عظيم يدلك عليهم فإنهم إن رأوه عجبوا من منظره ، وظنوه مدرأة مما يذرى به القمح ، فإذا عرفتهم فاغرس المجداف في أرضهم ، وضح لنبتيون رب البحار بعجل عظيم وكبش سمين وخنزير كناناً^(١) ، ثم تبتل إليه وأخبت ، وانطلق إلى وطنكِ وضح بأحسن ما تملك من الشاء والنعم للآلهة ، وصلِّ لكل منها واخشع ، تعش آمناً غانماً ، وتمت بعد حياة هادئة مودة قريرة ناعمة بعد حكم عادل طويل ، وشيخوخة هائلة موقورة ... هذا من أنباء الحق عرفتها لك .

وقلت له : « أنا لا أكذبك . ياتيرزياس فيما كشفت لي من أنباء الغيب ولكن جُعِلت فداك : إني ألح شبح أمي جاثماً بالقرب من الدم دون أن تتعطف بكلمة واحدة على ابنها الحبيب ، فمن ذا الذي يشعرها أني - أنا ابنها الأوحد - قريب منها ! » فقال : « لا أيسر من ذلك يابني ! فإنكِ إن تركت أياً من هذه الأشباح يرشف رشفة من ذاك الدم ، فإنه يتحدث إليك بعد ، وينبئك بما تشاء » . ثم غاب شبح الكاهن في ظلمات مملكة بلوتو ، وسُمرت أنا مكاني أنتظر شبح أمي ، التي ما كادت تتذوق الدم حتى عرفتني ، وانطلقت تكلمني في رفق وحنان : « أي بني كيف أتبع لك الضرب في دياجير هذه الدار الآخرة وأنت لاتزال حيا تدب على رجلينك ؟ ! ألا ما أشق هذا على |بني| الموتى من أهل الدار الأولى ! إن ههنا أنهاراً من حميم يدور بعضها على بعض ، وقد تغطي على شطآنها بعباب حميٍّ ، ويحيط البحر الأعظم الذي لاتشق أجياله فلك ، بله قدم سائر

(١) بالكسر سمين .

عابر ! أواه ! لقد ذرعت البحار شرقاً ومغرباً في رحلتك من إيلوم ، أنت ومن معك ، ولما تصل إلى إيثاكا العزيزة ! » وسكتت قليلا ، فسألتها : « الظروف القاسية وحدها يأماء هي التي قادتنى إلى مملكة بلوتو ، ليعرف لى الكاهن الصالح الطيبى تيززياس ، ولقد نجشمت الأهوال الثقال منذ توجهت مع أجا ممنون للقاء أبناء طروادة ... وهأنذا منذ ذلك اليوم لم تطأ قدماى أرض وطنى ... ولكن ... نبشنى يا أماء أية ضربة أودت بحياتك الغالية ؟ هلى سفك دمك أحد ؟ أم أصماك سهم من ديانا ؟ ... وحدثينى كذلك عن أبى السند الشيخ ، وعن ولدى تلياك ، وحدثينى عن ملكى وعتادى ، هل غلب عليها أحد من سادات البلاد ، حين يثس الكل من عودتى ؟ وخبرى عن زوجى ، ألا تزال تعيش مع ولدى مغلصة وفية لى ، أم تزوجت من أحد أمراء هيلاس ؟ » وقال الشيخ الكريم ييجينى : حاشا يابنى ! إنها لا تزال وفية لك مبقية على ذكراك مقيمة فى قصرك وإن تكن تقضى لياليها وأيامها فى حزن ممض عليك ، ودموغ جارية من أجلك ، وآلام ما تنتهى لبعذك ، أما أملاكك فلا تزال لك ، وما يفتأ ولدك يغفلها باسمك ، وما يفتأ يغشى الولائم فى أبهة الأمراء ، ورؤاء الأماثل العظماء ! ولم يزل أبوك مقيا فى مزارعك ، عزوفاً عن المدينة وبهرجها ، وأرائك القصور وزرايئها ، وهو يقضى أيامه يصطلى نار المدفأة فى الشتاء ، قابعاً على فروته الفقيرة المتواضعة ، غاراً فى أثماله ومِرَقه ، فإذا جاء الصيف ، أو فجأه الخريف ، اعتكف فى ناحية ، وانطرح على الهشيم المتساقط من الأشجار ، وراح يعالج من الحزن عليك ، والبكاء بسبك ما يوهيه ويضنيه ، طول تلك السنين السوالف وهكذا هلكت أنا الأخرى من طول التفجع عليك ، والتصددع من أجلك ، فلا ديانا أصمت فؤادى بسهم ، ولا اعتدى على معتد ... بل الحزن وحده يا أوديسيوس ، والوحشة والضىنى ، وطول الوجد ، وذكراك فى كل حين ؛ كل أولئك يابنى اختضر عود حياتى ، وعجّل إلى مماتى ! » وما كادت تفرغ من حديثها حتى أزرقت^(١)

(١) أسرع

إليها أود لو ضمنتها إلى صدرى ، بيد أنى فشلت مرة وأخرى وثالثة ، إذ كانت تقتل فى كل مرة من بين ذراعى كما ينفث الظل ، أو كما يسرى الحطم . ولم أطق على ذلك صبراً فقلت لها : « لماذا تأبين على عناقك يا أمه وقد نتدوى به مما بنا من شجو ، ولو كنا هنا فى مملكة بلوتو ؟ ! أم ياترى أرسلت إلى پرسفونيه شبحاً يبعث بى ويتضحك على ؟ ! » قالت : « أواه يا بنى يا أنعس بنى الموتى ! أبداً ما حاولت ربة هيدز أن تعبت بأحد ، ولكنها طبيعة الموتى هنا فهم لا عضل ولا لحم ولا عظم ، ولا ما ذهبت به النار بعد الموت فى الدار الأولى ... بل هم أرواح تشبه الظلال أو الأحلام فى خفتها وسرعة انفلاتها ... ولكن هلم فعد أدراجك إلى النور ... فلقد جاءك من الحق ما هو حسبك » ، ثم هممت حولي أشباح العذارى والأزواج من بنات هيدز سعين من عند پرسفونيه ، فامتشقت سيفى ، وطفقت أذودهن فلا يقربن الدم إلا بإذنى واحدة بعد واحدة ، لتقص على كل منهن قصة حياتها ، ولقد كلمت نيرى الحسناء ، كريمة الخند ، طيبة الأعراق فذكرت لى أنها ابنة سالمون وزوجة كريتيوس بن إيولوس - وأن آينيوس إله السلسيل ، أعذب أنهار الدنيا - قد كان مشغوقاً بها حباً ، وأنه طالما كانت تنش شطآنه النضر ، وخمائله الخضر من أجل ذلك ، وأنها كانت يوماً تلعب هناك ، فإذا شبح جميل كأنه شبح حبيبها يظهر فجأة ثم يأخذها بين ذراعيه ، ثم يعلو طوفان من اليم فيطويها معاً ، ثم تفيق فتري نفسها بين ذراعى نبتون الجبار رب البحار الذى يشاكيها غرامه هو الآخر ، ويبثها حبه ، ولا عجز قلبه ، ثم يهوى بها إلى أعماق مملكته السحيقة ، ويعاشرها كزوجة ، ثم يرسلها بعد أن يوصيها بولديه التوأمين منها ، ثمرة الحب السرمدى المقدس ... ويغوص فى اليم . وتعود هى إلى بلدها فتضع ولديها العظيمين - وزيرى جوف الأكبر - بلياس ونليوس - ويشب بلياس ويضرب فى الأرض ، فينتهى إلى مروج إياؤلخوس ويرعى ثمة بهمه وقطعانه ، أما نليوس فيسكن البلقع الجذب من أرض بيساوس ... وتتزوج كريتيوس بعد ذلك كله ، فتنجب منه أبناءها الثلاثة الآخرين ،

ذوى الشهرة والمجد . ثم كلمت أنثيوب ابنة آسلوب التى راحت تفخر بما كان بينها وبين جوف - كبير آلهة الأولب - من هوى وصباية وحب ، وأنها أنجبت له ولديه العظيمين أمفيون وزيتوس منثنى طيبة العظيمة ذات القلاع والتلاع والأبواب السبعة ... ولقيت بعدها ألكمين ابنة أمفثريون حبيبة جوف ، وأم هرقل الحديدي الجبار ... وقد ذكرت لى أنها تزوجت من كريون بعد فأنجبت له ابنته ميجارا ، زوجة ابن أمفثريون ... ؛ ؛ ... ولقيت الحسناء يوكاستة أم أوديبوس الملك التعس ، الذى تزوجها وهو لا يدري أنها أمه بعد أن ذبح أباه ، فصبت عليه السماء سياط عذابها ، وذهب على وجهه فى الأرض حيران ، أما أمه فقد سبقت روحها إلى هيدز بعد إذ شنقت نفسها فى سريرها ، تاركة ولدها لربات العذاب يسمنه الخسف ويجرعنه الأوصاب ... ولقيت الغادة الحسان خلوريس التى هام بها نليوس ونثرت تحت قدميها هداياه ، فأسلست له ، ورزق منها أبناءه الثلاثة نسطور وخروم وبركل ، الميامين ذوى المجد ... ثم كلمتنى ليذا زوجة تندار ، أم كاستور الصنديد وبوللكس الملاكم العتيد ؛ إنهما ينعمان بنعمة زيوس أبى الآلهة ، فهما يتبادلان الموت والحياة ، سنة فسنة ^(١) وفاء منهما ومحبة وإعزازاً ... ؛ ... ثم رأيت إفيمديا الحبيبة التى فخرت بهيام نبتيون والتى أنجبت له طفليه الجميلين أوتوس وإفالت اللذين بزا بجملهما كل من دب على وجه الأرض ، باستثناء أوريون ... يالهما من طفلين !! لقد شبا نيران الحرب على آلهة السماء وحاولا رفع أوسا إلى قمة الأولب فجعلا بليون على أوسا ركاما ، وقد أوشكا أن يفلحا لولا أن ذبحها زيوس وولده أبوللو ليكونا عبرة لغيرهما ... فيا للموت ، هذا المتعدى على شباهما الغض ، فأذبل الخدود وأذوى الورود !

ورأيت بعد ذلك فيدرا ، ولقيت آريادن المفتان وپروسيذ اللعوب ، أما آريادن فقد حملها ثيذيوس من كريت إلى فراديس أثينا ... ولكن

(١) وردت عنها أسطورة رائعة ستشرها قريبا فى الجزء الثانى من كتابنا أساطير الحب والجمال عند الإغريق .

وأسفاه ! إنها ما تمتعت ثمت لاقليلاً ولا كثيراً فقد أصمتها ديانا الغادرة
بسهامها ، وشهد فعلتها المنكرة باخوس العظيم ... في ديا .
ورأيت ميلا ... وكليمنيه ... وإريفيلا التعسة التي قبلت أن تنال ثمن
روح زوجها من الذهب .

والآن !! وقد أوشك الليل أن يلقي علينا طيلسانه فما أحسبني أستطيع
أن أحصى زوجات الأبطال العظام وبناتهم اللاتي لقيت في هيدز ، فأرجو
لو أمر الملك فانطلقت لأستريح في سفينتي ... أو هنا إن أذن ... وكلّي ثقة
فيكم وإيمان بالآلهة أنكم ستدبرون أمر إبحاري إلى وطني حتى الصباح ...

* * *

وسكت أوديسيوس ، وصمت الجمع المحتشد في الردهة الملكية فكأن
على رؤوسهم الطير من روعة ماحدث ، حتى نهضت أريتا الملكة ، ذات
الذراعين العاجيتين ، فقالت : « أيها الفيلاشيون كيف أنتم وهذا المهاجر
النبيل الذي زادت الآلهة بسطة في العقل والجسم ، وأضفت عليه هذا البهاء
وذاك الرواء ؟ إنه ضيفي ، بيد أنكم تشركوني في ضيافته والاحتفاء به ،
فخليق بكم ألا تسرحوه على عجل كما يحب ، بل حري بكم أن تستبقوه
أياما حتى تخلعوا عليه ، وتقدموا له أطرف الهدايا وأعز اللهي وتقيثوا عليه مما
حببكم السماء ، فكلكم غني جم الغناء ، مثير واسع الثراء » . وتكلم البطل
إخنيوس ، أكبر أمراء فياشيا وأتلدهم ذكراً فقالت : « إن مليكتكم ذات
المجد والكبرياء يا أصدقاء لا تبدى رغبة فحسب ، بل هي تصدر عن إرادة
عالية وأمر سني ، فحبذا لو أصختم وصدعتم ... على أن كل شيء هورين
بمشيئة الملك ، فلير إذن رأيته » وقال الملك : « إني أوافق على ما رأت
الملكة ، زهرة فياشيا وسيدة البحار ؛ ليق الضيف إلى غد إذن ، برغم ما
يحدوه من الشوق إلى بلاده ، حتى أسبغ عليه ، وأدبر أمر عودته التي يعني
بها الجميع » وكانما صادف مقال الملك هوى في فؤاد أوديسيوس فنهض
وقال : « ألكينوس ! يا ملك فياشيا العظيم ! بودى لو بقيت هنا عاما

بأكمله ليتم الملك نعمته على ، وليدبر أمر عودتي سالماً إلى أرض الوطن . . . فما أجمل أن أعود بالعطايا والهدايا والنعم ، لأملأ عيون مواطني ، ولأكسب احترامهم وأنال محبتهم بعد طول النأى وفدح البعاد .»

فأجابه الملك : « الله ما أروع ما حدثت يا أوديسيوس ! ويكأنما حدثت بلسان ساحر عليم يهرج القصص ويوشى الأخبار ، ويروق ويروق ، في زكانة وفطانة وحذق وترتيب ؟ ! أبداً ما حملت هذه الأرض ألباً منك ولا ألبق في رواية وتحديث ، وأبداً ما تساكبت الموسيقى والنغم الحلو من لسان كلسانك الذرب الحبيب ؟ ولكن ماذا عندك من أخبار الأبطال الإغريق ، الصيد الصناديد ، الذادة المذاويد ؟ حدث يا أوديسيوس ! قل ، قص علينا أخباركم ؛ أرأيت أحداً ممن شهد معك وقائع طروادة ؟ إن الليل لا يزال في عنفوان يا صاح ، وما بأعيننا من سنة فناوى إلى فراشنا في مثل تلك الساعة ؛ هلم فحدثنا ، فبنا إلى حديثك شغف ، وكلنا إليه شوق ، ولو حدثت حتى مطلع الفجر ، إن لم ينل منك وصَب أو يُعَيِّك ملال .»

وقال أوديسيوس : « بورك سيد فياشيا الملك ألكينوس ! لا يزال في الوقت متسع للحديث وللنوم معاً ، وإن شئت حدثتك بطائفة من الأحاديث عن الأبطال الإغريق سواء منهم من ثوى تحت أسوار طروادة ومن أفلت من الموت ثمة فترصدته المنايا في أرض وطنه صَبِيّاً من كف زوجه الأثيم الزنيم ! إليك إذن : . . . وحينما هتفت پرسفونيه - ربة هيدز - بأشباح العذارى وأرواح الحسان إفانتين | عني إلى ظلمات دار الفناء - بدائي طيف أجائمون - ابن أتريوس - ومن حوله كوكبه من أشباح الذين قتلوا معه في داره بيد إيجستوس . . . أهرع إلى الدماء فرشف منها رشقات ، ثم نهض فغرقى ، وكأنما شاعت فيه رعدة من الدهشة والذعر ، وتحدرت دموعه الحرار السخينة فوق خديه ، ثم مد إلى ذراعيه يود لو

عائفتي، ولكن.. وأأسفاه! وهل يعانق الشبح إنسياً؟! ونال منى الحزن فبكيت من هذا المنظر الفادح الأليم، وقلت أكلمه في أسلوب بائس وعبارة باكية. « ويحك يا ابن أترىوس يا ملك الدنيا العظيم ماذا جرعت كأس المنايا؟ خبرني! هل جرعتها في قرار اليم مغرقاً بيد نبتيون أم فوق ظهر الأرض حين كنت تسوق قطعانك، أم قتلت وأنت تحارب من أجل بنات أخايا إذ هن محاصرات خلف أسوار مدينتهن؟! » فقال يجيبني: « أوديسيوس الزعيم النبيل، يا ابن ليرتس الحكيم أبداً مامت مغرقاً بيد نبتيون، ولا فوق ظهر الأرض في حومة حرب زبون، بل ذبحني اللثيم إيجستوس بعد أن دبر غيلتي مع زوجتي الآثمة، حين ملّك^(١) لي وبالغ جهده في الاحتفال بي، ثم ذبحني كما يذبح الثور في مذوده وكر على رجالي فذبحهم كما تذبح الخنازير لوليمة في عرس أوفى حفل لزعيم عظيم. أوه أوديسيوس! لا جرم أنك قد شهدت ألف معركة ومعركة جندلت فيها أبطالاً وراء أبطال، بيد أنها جميعاً لم تك شيئاً في ذلك الحدث الرهيب! لقد هويينا نتخبط في دماننا التي صرجت الأرض، تحت أخاوين^(٢) حافلة بأطيب الآكال وأشهى الأشربات... ثم... جلجلت في أذنى الصرخة الرهيبة وصرخة ابنة بريام، فكانت ما أروع وما أفدح! لقد انبطخت على الأرض إلى جانب كاسندرا، قتيلة بيد زوجتي كليتمسترا... ومع ذلك لم أفقد الأمل يا صديقي بل حاولت أن أمتشق جُرّازي، لكن الخائنة انسحبت كالأفعى، ولم تعبأ بي، بل لم تشأ أن تُغمض عيني، أو تسند ذقني، في اللحظة التي أوشكت أن أطرق فيها أبواب هيدز؟! ويلاه! وويلي على المرأة التي طاوعتها يدها فأتت هذا المنكر، وارتكبت إثم قتل زوجها ورفيق صباها! !

لقد حسبت حين عدت أدراجي أنتى سأقابل بالأهل وبالسَّهل من

(١) ملق فلاتاً وملق له نودد

(٢) أخاوين وخون وأخونه. جمع خوان موائد الطعام

أبنائى وأهلى وحاشيتى ، ولكنها . . . الفاجرة الغادرة ، التى بزت
بفجورها كل صنوف الفجور ، قد سحبت على نفسها أذيال العار
والخزى ، بل هى قد سحبت أذيال العار والخزى على كل أنثى لم تر النور
بعد ، وعلى كل الصالحات الطيبات من بنات جنسها .

وسكت أجامنون ، فقلت بدورى : « يا سماء ! ! ما أقسى ما قضت
يد زيوس على بيت أتريوس منذ البدء ! كله من الأنثى دائما ! لقد قتلنا فى
غير رحمة ولا رفق من أجل هيلين ^(١) ؛ وتدبر لك كليتمسترا تلك الفعلة
بينما أنت نازح بعيد عن ديارك ! ! »

قال : « من أجل ذلك أوصيك ألا تلين عريكتك لامرأة قط ، وألا
تجعلها موضوع سرّك ومحل ثقّتك ، بل إن أسرت لها بشئ ، فخبئ عنها
أشياء ، هذا وإن تكن زوجك وفيه خالصة لك ، لا يخشى عليك منها
رَهَق ، ولا غدركه هذا الغدر ، لأنها ابنة إيكاريوس وحسب ذات الحصافة
واللب ، لقد غادرناها ولما تزل عروسا يوم غادرناها إلى اليوم ، وعلى
صدرها الوفى ولدك الحبيب ، الذى ينتظرك لهفان ليضمك إلى صدره يوم
تعود إلى إثاكا . . . وإنك إلى إثاكا لعائد ، وبذا قضت الآلهة . . . أما
أنا فوأسفًا على أورست ، ولدى المسكين ، الذى قتلتنى الغادرة قبل أن
أتزود منه بنظرة ! اسمع يا أوديسيوس ، أصغ إلىّ ، إلى سافى عليك من
كنوز خبرتى وتجاريى ، عليك بالسرفى أوبتك إلى وطنك . واستعن على
رحلتك بالكتان لأنه لا ثقة فى امرأة بعد اليوم ^(٢) . . . ولكن أصدقنى بربك أين
يأوى ولدى الآن هل يقيم فى بيلوس ؟ أم يثوى فى أرخومينوس ؟ أم هو يستدرى
بذرى جدته أُمى الحبيبة ، فى قصرها المنيف بأسبرطة ؟ إنه لا يزال حياً
يرزق ، ولم يأو بعد إلى دار الظلال هيدز . واعتذر إليه أنى لا أعلم إذا كان
حياً يرزق أو أنه غدا من أشباح هيدز » وظللنا نتحدث شجون الحديث ،

(١) التى مر بها باريس وكانت سببا فى حروب طروادة (اقرأ قصة الإلياذة لنا)

(٢) وهكذا عاد فاستمسك برأيه فى النساء حتى فى بلوب

ونذرف الدموع على كل ذكرى حتى وافى شبّح أخيل البطل ، ابن بليوس العتيد ، وفى إثره شبّح تر به بتروكلوس العظيم وبمقربة منه طيف أنتيلوخوس يتدهدى مع طيف البطل المغوار أجاكس الذى امتاز ببسطة الجسم وجبروت المظهر على الجميع ما عدا بيليدس وحده . . . وعرفنى شبّح العداء الكبير إياسيدس^(١) فقال يخاطبني فى خفة وظرف « أوديسيوس يارجل الدهاء والخدع : أى تدبير ليست فيه تدابيرك الماضية وحيلك السوالف شيئاً ما ، أئنى بك إلى هذه الدار ؟ أضيف أنت ؟ أم هو طيشك وقلة مبالانك جعلاك تضرب فى دياجير هيدز ؟ هيدز الرهبة بيت الأرواح والظلال والأشباح ؟ » فقلت : « أخيل يا ابن بليوس العظيم ، يا أشجع أبناء أخايا قاطبة ، لقد سعت إلى شطآن إيثاكا الصخرية ، لأنى عيت بالزوابع والعواصف فى عرض اليم ، فما استطعت أن أصل إلى أخايا أو أن أرسو فى بلادى . . . إنى أغبطك يا أخيل من أعماق ؟ فلقد عشت فى هناء وعز ، ويَجَلُّك الناس كأحد آلهتهم ، وما أنت ذا تحكم هنا وتنهى وتأمّر على جميع هؤلاء الموتى ، فما أجدرك ألا تأسى لأنك مت هذه الموتة فى الدار الأولى » وأجابنى على الفور ، : « أوديسيوس ذا الذكر ، لاتخالنّ عزاء يخفف من وطأة الموت ؟ لقد كنت أؤثر أن أعيش فى الدنيا كأحقر الأجراء الأذلاء ، وأتبلغ بلقعات قليلات لا تقيم أود الشيخ الفانى ، على أن أقيم هنا مُمَلِّكاً فى جميع هذه الأشباح والتهاويل ! ! ولكن تعال ، هلم فحدثنى عن ولدى الحبيب ، هل وصل ما انقطع من حياق الحرية ، أم هجر السيف وطلق المعمة ؟ وحدثنى عن أبى بليوس الكريم ، ألا يزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم وحب الميرميدون^(٢) وفدائهم ، أم تجرد من الأبهة ونزل على حكم المشيب والكبر ، وإلا أيام التى أوهنت عظامه ؟ أو اه ياأبتاه ! ليس لك اليوم أخيل كان ينشر الرعب فى جنبات طروادة ، أو اه لو

(١) قد يكون هذا من أسماء أخيل

(٢) جنود أخيل فى حروب طروادة .

وسعى أن أعود إليك لحظة ، إذن لقسرت الناس على الخضوع لك ،
ولأرغمت كل جبار عصي على تمليكك وبذل العبودية لك ، بدل الثورة بك ، وقلة
الاحتفال بشيخوختك ! «وقلت أجيئه أنا أعلم بما كان من أمر بليوس
أيك ، ولكني ذاكر لك ماترأى إلى من أخبار ولدك نيوبتلوس^(١)
لأنى حملته على سفائى من سكيروس إلى الجيوش الحاشدة من أخايا ؛
ولقد كنا نجتمع للشورى^(٢) تحت أسوار اليوم فما كان يتكلم إلا لماماً ، وما كان
ينطق عن الهوى إذا فعل ، وإذا استثنينا نسطور . . . وأنا . . . فما
كان أحد ينهض إلى مقامه ، أو يقارن به من جميع الأبطال الإغريق . . .
وكنا نكر حول طروادة ونفر ، فما أعرف أن أحداً كان أجراً منه كراً ولا
أحذق قرأ . . . ولقد جندل من أبناء طروادة الصناديد أقراناً وفرساناً حتى ما
أستطيع سرد أسمائهم جميعاً ، بيد أننى أذكر منهم يوريبيلوس
بن تلفوس البطل الذى أغرى (پريام) نساءه بالرشى ليقنعه بخوض غمار
الحرب إلى جانب الطرواديين ، فما زلن به حتى خاضها هو وجنوده
السيتيون . . . لله ما كان أجمل وما كان أروع ! ! أبداً ما رأيت زعيماً ولا
سيد قوم ، باستثناء ممنون ، أبهى منه ولا أصفى جمالاً ! وما أنس يوم
حصان إيبوس الخشبي ، يوم قتت أتخير الصناديد المذاويد من أبنا هيلاس
ليكونوا معى داخله . وكنت على أن أظل عند بابه السرى لأرى فى فتحه أو
إغلاقه ما أرى . . . لا أنس ما كان من هلع أبطالنا وذعرهم وذهاب
نفوسهم وتحذر دموعهم من هذه المهمة رعباً وفرقاً ؛ أما ولدك ، فيأما كان
أشجع ، ويأما كان أربط جأشاً ! ! إن عبرة واحدة لم تنسرق من عينيه ،
بل إنه كان يحثنى ويحرص جد الحرص على أن أختاره ، حتى إذا فعلت
تقدم متبخرأً يجر رحمة الظمئ ، ويغلى صدره بنار الانتقام يود لو يصبها على
طروادة وأبنائها جميعاً ! ! وما إن فُتحت علينا ، وأبنا منها بالغنائم

(١) هوبروس فى مأساة راسين (أندروماك) د - - خ

(٢) يحسن بالقارئ أن يذكر أن أخيل قتل قبل سقوط طروادة .

والأسلاب والسبي حتى نظرت إليه قبل أن يبحر فما وجدته يشكو رمية .
ولا يئن من جرح ، ولا أثر في جسمه لخدش مما تصنع الحرب ، وما تسجل
فعال مارس .

وُزهي أخيل من كثرة ما أثبتت على ولده فراح يتخايل ويدل وسط
شجر البرواق^(١) . . . وكانت جموع من أشباح الموتى تملأ الربح ، وقد
جلس كل أوهام على وجهه يبكي ويشكو بثه لغير سميع وقد رأيت بينهم
شبح صديقي التيلاموني - أجاكس - وكان يحدجني في الفينة بعد الفينة ،
ولكنه لم يشأ أن يكلمني ! ! آه ! إنه لا يزال ينقم على ما شجر بيني وبينه
من نزاع على عُدّة أخيل (بعد مقتله) ، وما كان من طلب ذيتيس^(٢) ألا
يلبس دروع ولدها سوى ، ثم ما كان من تأييد ميزرقا للأمم الرؤوم فيما طلبت .
لقد كان انتصاراً لي . كم كنت أؤثر ألا يكون ، لأنه كان فيما يبدو سبب
مقتل أجاكس المغوار الذي لم يكن فينا من هو أشجع منه إلا أخيل
نفسه . . . ولقد وجهت إليه ألين الخطاب لأفُل من سورة غضبه . فقلت
له : « أيها العزيز أجاكس ، يا ابن تيلامون المجيد ، أما تستطيع أن تغضى
وأنت في الدار الآخرة عما شجر بيننا بسبب هذه العدة المشثومة ؟ لعنتها
الآلهة من عدة كُتبت فوقها صحيفة موتك ، فخرسنا فيك أشجع فرساننا
وأعظم مقاتلينا ! إنا ما نفتأ نبكيك ونشكورُ زأنا فيك ، ونعد ففقدك كفقدنا
أخيل نفسه ! ولكن لا تترهب على أحد قط ، فجوف كبير الآلهة الذي ما
ينفك يصب لعنته على جيوش آخايا ، هو الذي قضى عليك بالموت . أيها
البطل هلم نحوى كما تسمع إلى الكلم الطيب الذي أجهد أن أترضاك به ؛
لتخمد جذوة الغضب على في نفسك ، ولنحسم ما بيننا من خصام ! »
بيد أنه ما حرك شفثيه . بل لوى عنانه وانخرط في جماهير الأشباح الهائمة ،
وترك الرغبة الملحة المشتعلة في صدرى شوقاً إلى تكليمه تنطفئ رويداً . . .

(١) شجر كان يزرعه اليونانيون على قبور موتاهم وقد ذكره الفيروز أبادي .

(٢) أم أخيل وهي إحدى عرائس الماء .

فقلبت نظري في الأرواح القريبة عسى أن أعرف منها أحداً فأحدث إليه ، فلمحت بينها مينوس سليل جوف الأكبر ، وكان يجلس على عرش ممرد للقضاء بين الموتى ، وفي يمينه صولجانه الذهبي الثمين ، ومن حوله زرفت جموع سكان هيدز ، فمنهم الواقف ومنهم الجالس ، ومنهم المنتصب يشرح للقاضي شكواه ، ويثنه بلواه ، بينما قد أهطعت الرؤوس وانجbst النفوس ، وتكأ كأت الموتى عند البوابات الكبيرة الهائلة تنتظر دورها . . . ثم راعني أن أرى بين تلك الجموع أوريون الجبار يسوق قطعانه التي ذبحها بيديه في الدار الأولى ، وهو يرعاها على أوراق البرواق . . . ورأيت فيمن رأيت تيتوس الجبار ، سليل هذه الغبراء ، وقد كان منبطحاً على الأرض بحيث يشغل فضاء تسعة أفدنة ، وعلى كل من جنبيه أفعوان هائل أرقم يتغذى بمضغ من كبده الكثير الدامي . وينغب من أحشائه الغلاظ ، جزاء بما حاول أن يستذل لاتونا اللعوب الطروب ، عشيقه جوف سيد أولب ، التي فرت من جهة في بطائح بيتو إلى فراديس بانويوس . ثم رأيت تانتالوس في ضعف من العذاب ! رأيت يتخبط في عين حمئة من حميم ، وقد غاص فيها إلى ذقنه ، والموج يضرب وجهه ويسعفه ، وهو مع ذاك يلهث من الظمأ ، لا يجد ما يبل به غلته ، أو يطفى جواده^(١) وصداه ! فهو إن حنى رأسه غمرته الحكم ، وإذا رفع جسمه كزت الأرض على قدميه بأمر ربها فهو في عذاب مقيم . . . ولله أشجار الفاكهة دانية قطوفها فوق رأسه ، من رمان حلو وتفاح عطري ، وتين معسول وزيتون ، كلما انتهى أن يقطف ثمرة وكاد ، هبت الرياح عاتية فذهبت الغصون عاتية في السحاب ! ! . ثم رأيت سيفوس ذا الأنياب يضني ويشقى ويتعذب ؛ يدفع أمامه حجراً جلموداً عظيماً فيجعل في رأس جبل ، حتى إذا انتهى إليه غاصت الأرض من تحته بقوة خفية فكانت بئراً عميقة ، فيهوى الحجر من عل فيعود المسكين إلى نصيبه عوداً . . . على بدء ، ويتحدر عرقه على جسمه العظيم ، ويتبخر من رأسه كأنما ينقذف من بركان ! . . . ثم

(١) الجواد والصدى والظمأ

شهدت هرقل الحديدى القوى الجبار . . . شبحه فقط ، لأنه هو قد منح
 بركة الآلهة وخلودها ، فهو أبداً يحضر ولائها في شعاف الأولب . . .
 شهدته يحتضن ابنة جوف الجميلة المفتان ، هيب ذات القدمين الناصعتين
 والنعلين الذهبيتين ؛ رأيته وأشباح الموتى ترف من حوله صافات كالطير ، ثم
 يقبض . . . وراعى أن أراه عابساً كالحأ كقطعة من الظلام ، وقد حملق
 بعينه في الأرض وفي يديه قوسه وسهامه يوشك أن يرميها ، وعلى وسطه
 حزامه الرائع المموه بالذهب ، وقد نقشت عليه صور مئات من الدبة
 والدؤبان والسباع ، ينقدح الشرر من عيونها ، دائبة في عواء وزئير وتقاتل
 ونهش ، صنعة معجزة لم يقدر على مثلها أحد من قبل ولا من بعد . . . وما
 كاد يتبيننى حتى عرفنى ، وظل يقلب في عينيه السادرتين ، ثم قال لى : « آه
 يا ابن ليرتيس النبيل ذا المجد ما أتعسك ! ! ما أظنك إلا معنياً ببعض
 المجازفات التى كنت أشغف بها في حياتكم الدنيا . . . ها أنت ذاترانى
 هنا ، في ظلمات هيدز ، عبداً رقيقاً لآله أحقر منى شأناً وأقل قدراً ، لأننى
 وأنا ابن جوف الأعظم قد كتب على أن أشقى هنا لأصل آلام الحياة
 ولأواءها . . . أتصدق أنه يأمرنى أحياناً أن أسوق كلبه ، مع مافى هذا
 الأمر من سخرية وتحقير ؟ ولكنى لن أنسى أئى جذبته من مملكته هيدز
 إلى نور الحياة الدنيا بمساعدة أخى هرمز ، وبمعمونة مينرفا ذات العينين
 الزهرجديتين » ثم هام على وجهه في ظلمات مملكة بلوتو . . . ثم
 تلبث أنا مكافى راجياً أن ألقى غير من لقيت من أرواح الأبطال الذين
 عرقهم في الدار الأولى ، أولئك العظماء ذوى العزة والمجد . . . وكم
 وددت أن أرى بيريثوس وثيذبوس سليلي الآلهة . . . بيد أن جموع الموتى
 الحاشدة التى أقبلت تصرخ قذفت الرعب في قلبى . وخفت أكثر أن ترسل
 پرسفونيه ملكة هيدز فتفعل بى الأفاعيل . . . فأثرت أن أسرع إلى مركبى ،
 وأمرت الملاحين فأقلعوا ، وجلسوا على الظهر ، وحملنا تيار سريع عبر
 البحر المحيط بعد أن أعملنا المجاذيف وقتاً غير طويل .

تمام قصة اوربوس

١ - السيرينات المغنيات

٢ - سكيللا الهولة

«والآن ، وقد احْتَمَلْنَا العباب ذو الزَّبَد ، وذرعنا اليم المترامى ، وعتمنا
نضرب في موج كالجبال ، فقد وصلنا بعد لأى إلى جزيرة إيايا المرجانية
حيث ترتع أورورا ابنة الفجر الوردية وتلعب ، وحيث مَطْلَعُ الشمس وراء
البحر المضطرب ... وألقينا مراسينا ، وتلبثنا فوق رمال الشاطئ نرقب
انبلاج الفجر ، حتى إذا لاحت تباشيره أرسلت طائفة من رجالى إلى قصر
سيرس فأحضروا جثمان إلينور (الذى خر من السطح فدق عنقه) ثم إننا
بكيناه أحر البكاء . وجمعنا له من الحطب والخشب ما وسعنا ، وطرحناه
وسط الكومة التى صنعناها من هذا الوقود ، وطرحنا معه سلاحه ، وأقننا
إلى جانبه مجدافه العظيم ، ثم أدينا له الشعائر الجنائزية التى أرويناها بأذكى
دموعنا ، وأشعلنا النيران بعد إذ أقننا نُصْباً جليلاً ، تحية وذكرى ولم تعلم
بعودتنا سيرس ^(١) بيد أنها مع ذاك أقبلت فى ررب من وصيقاتها الحسان
الأتراب يتهادين نحونا ، حاملات دنائاً من أكرم الخمر ... ووقفت بيننا
العروس الهيفاء ثم قالت : « وبحكم أيها الاشقياء كيف خلا لكم أن
تموتوا مرتين بينما يموت جميع الناس مرة واحدة ؟ ولكن تعالوا هلموا إلى
طعامكم ، وتحسوا من هذه الخمر لتقضوا يومكم فوق رمال الشاطئ فى
شراب وآكال ، فإنكم ضاربون فى ظلمات ذاك البحر فجر غد وإني
منبتكم عما يروعكم فى طريقكم عسى ألا تفضل بكم . وياما أكثر
ماتجشمون من أهوال فى البر والبحر ! » ولينا دعوة الربة المضيف ،
فأقبلنا على طعام شهى وشراب روى طيلة يومنا ، حتى إذا توارت ذكاء

(١) نطقها اليونانى كبركة ونحن نفضل النطق الحديث دائماً

بالحجاب ، وشملنا ظلام الليل ، تطرّح رجالي فوق الرمال النائمة ، ثم انتحيت أنا وسيرس ناحية ، وجلست قبالتها ، وراحت هي تحدثني وتقول : « أما وقد أوشكت متاعبك أن تنتهي ، فأصغ إلى ، إفقه ما أقول لك وتدبره ، فهو وحي يوحى إليك من السماء ينفعل إذا جددك الجدد ، وأزفت حولك الآزفة... ستصل أول ما تصل في رحلتك عبر هذا البحر إلى جزيرة السيرينات الشاديات اللالي يسحرن بغنائهن القلوب ، ويخجلن بحرسهن الأبواب ، ويطّين^(١) كل من أوصله سوء حظه إلى جزيرتهن بحلو تطريهن وجميل شدوهن حتى ليلصق بأرضهن وينسى آله وأوطانه . ولا يخطر في باله أن يعود إلى بلاده لهنأ ببقاء زوجه الحبيبة وأولاده الأعزاء . بل يجمد مكانه من الشاطئ حيث يكون يسمع من السيرينات وتكون عن يمينه وعن شماله رفات الضحايا الكثيرين الذين عرجوا من قبل ليشنفوا آذانهم بغناء أولئك العذارى فجمدوا مثله ، وذهلوا عن أنفسهم حتى ذبوا ، وذبلوا وضوا ، وحق بهم الفناء بينا يخطر السيرينات بين شجر البرواق متهاديات فوق السندس الحلو الجميل ... فأوصيك أن تُفرغ في آذان رجالك من سائل الشمع قبيل أن تبلغ أرضهن ، فإنهم بذلك لا يسمعون شدوهن ولا يسحرون بغنائهن . أما أنت ، فلك أن تنصت إلى ذاك الغناء إن شئت ، بيد أنه ينبغي أن يشد رجالك وثاقلك في قلع سفيتتك شداً قوياً محكما ، فيربطوا ذراعيك وسباقيك بأمراس وأحبال ، حتى لا يسبيك ما يُشنف أذنيك من غناء وشدو فلا ترضى إلا أن تثوى بأرض السيرينات ، فإذا اشتد بك الوجد من سحر ما تسمع وطلبت إلى رجالك أن يخلوا عنك لزم أن يزيدوا في رباطك ويحكموا وثاقلك أضعاف ما فعلوا بك من قبل ... فإذا جُزّمت تلك الجزيرة وغابت مناظرها عن أبصاركم ، فلرجالك أن يطلقوا سراحك ... على أنني لا أدري أي السبل ينبغي أن تسلكوا بعد هذا ، فهناك طريقان أحلاهما مر ، وأيسرهما عناء وضر .

(١) اطي القوم فلاناً خاوه وقتلوه .

وإني واصفة لك كليها وأدع لكائك أن يختار لك ... إنكم بالغون في سبيلكم إلى صخور هائلة ناتئة في البحر ، تنكسر فوقها أواذيه ، وترطم بجلاميدها أمواجه . وتدافعه على أحيادها أمفريت (زوجة نبتون) الجبار . وقد أطلق الآلهة على هذه الصخور اسم (إيراتيک) وهي قلال موحشة لا يستطيع مخلوق أن يقترب منها ، ولا يجسر الطير أن يهبط فيها ، بل طير أبينا جوف نفسه الذي يحمل إليه غذاءه الإلهي المقدس لم يجازف مرة فحط فيها يستجم من سفر ، ولما يعلم من أنها مهلكة زلقة . ولم ترس عندها سفينة قط إلا ارتطمت فوق نتوئها وهوت إلى القاع بما حملت ، أو ابتلعها العواصف الهوج فغابت حيث لا يدري أحد . ولا يعرف أحد سفينة جازت مهالك هذه الصخور إلا السفينة (آرجو) التي حاطتها جونو ^(١) برعايتها رحمة بجاسون وحناناً من لدن سيدة الألب ، حين أقلعت من جزيرة إيايا ، وقوام تلك الصخور هضبتان شاهقتان ، تمثل إحداهما صنماً هولةً ضخماً يضرب في السماء برؤقيه وتتراكم فوقه منذ الأزل ثقال السحاب التي لا يذيبها خريف ولا صيف ، لأن الشمس لم تنشر عليها أشعتها قط ... ولو أن أحداً من العالمين له عشرون يداً وعشرون رجلاً ما استطاع أن يرق عليها أبداً لأنها ملساء ناعمة كأنما صقلت يداً مثال صناع ... وإن في سنده ^(٢) الغري لكهفاً سحيقاً نقرثمة باسم إربوس ^(٣) ... ، وإني لأحذرك أن تقترب منه حين تجوز به يا أوديسيوس ، بل كن بنجوة منه ، بعيداً بقدر ما تستطيع ، أو على الأقل على مرمى سهم مراش من سفينتك إلى وصيده ، ذلك لأنه مأوى سكيللا ^(٤) الخيفة التي تدوى بصوتها وعواشها ، ويفرق الناس والآلهة من وجهها المكلثم القبيح ، وحسبك أن تعلم أن لها اثنتي عشرة قدماً كلها أمامية ، وأن لها ستة أعناق

(١) هي حيرا زوج كبير الآلهة .

(٢) سنده جانبه

(٣) إله الظلمات الذي تروج من أمه (ليلة)

(٤) ونطقها الأصلي سكيللا

طوال ينتهى كل منها براس كبير فظيع ، سلاح بثلاثة صفوف من أنياب
حداد أصلها ثابت وحشوها سم زعاف ، وهى تربض فى غور كهفها
السحيق ، بينا أرؤسها بارزة من فوهة الكهف تبحث فى الماء عن الدلافن
وكلاب البحر ودواب الماء وجميع حيوان مملكة أمفريت وليس يجسر بحار
أن يفخر بأنه نجا مرة من شرها فهى تنقض كالصاعقة على السفينة العابرة ،
وتلتقم بأفواهها الستة الجائعة ستة من بحارتها مرة واحدة تقضمهم قضا ...
وتلقاء هذه الهضبة ، هضبة أخرى على مرمى سهم يا أوديسيوس وقد نمت
فوقها تينة برية كبيرة ذات أفنان وعساليح حانيات فوق الماء ، وتحتها عين
خاربيديس الحمئة التى يغيبض فيها ماء البحر كله ثم تعود فتَمْجُهُ ثلاث
مرات فى اليوم . ويك أوديسيوس ! خذوا حذرکم ! فوالله إنکم إن دنوتم
منها فإنها تبتلعکم ، ولا يستطيع نبتون نفسه بعد ذلك أن ينجيکم وإنى
أرى أن تدنوا من الصخرة الأولى فتلتقم سكيللا ستة منکم ، فهو خير لکم
من أن تغرقوا جميعاً » وسكتت سيرس ، وقلت أسائلها : « بحق
الآلهة عليك ياربة أن تجربى : أما أستطيع أن أنقذ رجالى المساکين من
سكيللا إذ نجونا من خاربيديس ؟ » فقالت تجيبنى : « أيها التعس ، أما تفتأ
تحن إلى مجازفات الحرب وخوض غمار الوغى ؟ إنه لا سلطان للآلهة نفسها
على سكيللا ، وهى ليست مخلوقاً مما يجوز عليه الفناء ، بل هى غول
سرمدى شديد المراس ، شكس شديد الشراسة ، لا يغالب أحداً إلا غلبة
فأطلق سفيتتك للريح ، ولد منها بالفرار . وإياك أن تفكر فى التسليح لها ،
فهى لابد ملتزمة ستة من رجالکم ، وإذا حاولت مدافعتها فإنك منهم ! !
فإذا بعدت فاضرع إلى كرافيس ، أم هذه الهولة التى هى إلى الأبد طاعون
للبشر ، وأن ترد كيد ابنتها عنکم فلا تتبعکم فى سبيلکم ولا تلتقم منکم
أكثر مما فعلت ... وإنکم بالغون (تريناشيا) بعد هذا حيث ترعى الربتان
الحسناوان : لمبتيا وفيتوزا ابنتا هيريون من عروس الماء نيرا ، قطعان أيهما
السبعة التى يشمل كل منها خمسين شاة ذوات صوف ناعم كالثلج ...
وكل هذه الشاء أيرعى ثمة باسم رب الشمس العظيم . فإذا كنتم حقاً

تتشوقون لبلاذكم ، وتتحرقون شوقاً إليها ، فاحذروا أن تصيبوا تلك القطعان بسوء ، فإنكم إن فعلتم غرقت بكم سفينتكم وذهب رجالك أباديد . أما أنت ، فتنجو بعد لأى وبعد نضال وأهوال ، فتصل إلى بلادك ملوماً محسوراً !»

وتنفس الصبح الندى الرحي فذهبت تبختر وتجر أذيالها إلى قصرها المُنيف ، وذهبت أنا إلى الشاطئ فأيقظت رجالي ، وأمرتهم فجروا السفينة حتى استوت في الماء ، ورفعت مراسيها ، ثم جلس كل إلى مقعده وأعملوا أيديهم في مجاذيفهم فتدافعت الفلك في البحر ، وما هي إلا لحظة حتى أرسلت سيرس ، الربة المقدسة ، نسيماً رخاءاً كان خير رفيق لنا ، إذ كفانا عناء التجديف ، فتطرحنا في المركب ، واشتدت الريح في غير عصف فأسرعت بنا درأكا .. ثم كلمت رجالي وفي قلبي وجيب فقلت . «أيها الأصدقاء تعالوا أحدثكم عما تنبأت به سيرس لنا في رحلتنا هذه ، فإنه سيان إن أفلتنا من العذاب أو تردينا فيه ؛ بل أردت أن أطلعكم على ما خبأته المقادير لنا لتأخذوا حذرکم ، وتبرموا أمرکم ؛ ويكون كل على نفسه وكيلاً . لقد حذرتني أن يستمع أحدكم إلى غناء السيرينات الشاديات وحلو تطريهن ، وأجازت لي وحدي أن أصغى إليهن ، بيد أنها أوصتني أن أخبركم أن تشدوا وثاق بآمتن الأمراس في سارية السفينة فلا تطلقوا سراحى حتى نبعد عن جزيرتهن ، وكلما رجوتكم أن تخلوا عنى شددتم وثاق أكثر فأكثر (هذا إن أردتم أن نكون بنجوة من الهلك في تلك الأرض الملعونة) . وهكذا نهت غافلهم بتحذيرى . ثم إننا انطلقنا في اليم ، وأخذنا نقرب من جزيرة السيرينات ، وعرفت ذلك لما هدأت الريح فجأة ، ونام الموج ، وخفتت أنفاس الطبيعة ، وشمل الركود كل شئ حولنا ، كأنما مسحت يد مقدسة علوية كل هذا الوجود الرحب . ونشط الملاحون إلى مجاذيفهم فالتمع تحتها بساط الماء ، ثم نشطت أنا إلى قِدر من الشمع فعالجته بسكين ، ثم قوّمته براحتي وتركته كي يلين قليلاً في أشعة الشمس ، ثم جعلت منه في آذان رجالي واحداً فواحداً ... واستسلمت

لهم بعد هذا فشدوا وثاق في شراع السفينة شداً محكما ، وجلس كل إلى مجدافه ، وانسربت الفلك في الماء تشقه وتجرجر فيه ... وصرنا على مدى ما يبلغ الصوت من الجزيرة إلى آذاننا فأصغيت وأصغيت ، وإذا السيرينات الشاديات يتغنين هكذا :

« أوديسيوس أيها الزعيم ! يامن لهج بذكره كل لسان »
 « ألقى في جزيرتنا مراسيك يا فخر اليونان »
 « تلثث عندنا أيها العزيز وشنف أذنيك بأغانينا »
 « فما من أحد جاز بجزيرتنا حتى عرج يتزود من هذا الغناء »
 « ثم يقلع أسعد ما يكون ، وأفطن ما يكون »
 « ذلك ونحن نعلم من أنباء ما أصابك كل شيء »
 « ما خضت من معمعان طروادة ، وما أصابتك الآلهة من مصيبة ، وما لقي قومك في كل مكان »
 « تعال تعال ... هلم نحدثك فعندنا علم كل شيء »

وهكذا شرع العذارى يسكنن إرناهن الجميل في قلبي ، وكأننا كن ينفن فيه السحر فيصغى وتلح عليه الرغبة في الإصغاء ، ورحت أنا أضرع إلى قومي أن يفكوا قيودي ويطلقوا سراحى ويخلوا بينى وبين السيرينات المطربات فلم يسمعوا لإشاراتي ولم يستجيبوا لتوسلاتى ، بل هبَّ يوريلوخس وپرميديس فضاعفوا أغلالى وشدوا على حبالى ... ثم بعدنا ... وظللنا نبعد ونبعد ، حتى إذا كنا حيث لا يصل إلينا من شدو السيرينات شيء نهض رجالى فأزالوا ما كنت قد جعلته في آذانهم من الشمع ، ثم عمدوا إلى فأطلقوا سراحى ... وما كادوا يفعلون حتى أبصرت في ظلام البعد موجاً كالجبال كأنه ظلمات بعضها فوق بعض . ورأيت دخاناً كثيفاً ينعقد في الجو ، ثم إذا بى أسمع رعداً قاصفاً يصم الآذان ! وقد ذهل رجالى عن أنفسهم ، وطارت المجاديف من أيديهم فلم تعد تجديهم نفعاً ، ووقفت السفينة كأنها الأرجوحة على أرؤس الموج ؛ وذهبت أنا أشجعهم رجلا

فرجلا : « أيها الرفاق ! هانحن نلقى أولى عقباتنا ، وهي ليست على كل حال أشد هولاً من مصيبتنا يوم حبسنا السكلوب في كهفه السحيق ، وكيف احتلت لقرارنا من وجهه ، وسيأتى يوم نذكر تلك الشدة المفاجئة بمثل الغبطة التي نذكر بها الشدائد السوالف ... هلموا إذن فاثبتوا في أماكنكم ، واصمدوا لهذا اللج المصطخب ، واضربوا فيه في جلد وصبر ، عسى أن يكلاًكم جوف ربكم فينجيكم منه وأنت أيها الريان أصغ إلى ، إنك تقبض على ناصية الحال فتحاش أن تقترب من هذا الدخان وتلك الأمواج الثائرة ؛ وابتعد ما استطعت عنها ، وخذ سبيل هذه الصخرة ، ذلك أدنى ألا تقذف بنا في حمأة الخطر ... » وظللت أنفخ فيهم روح الصبر حتى فاءوا إلى أمرهم فاستقتلوا في مجاهدة الأمواج استقتلاً ... وتسلمت أنا بكل ما استطعت من عدة . وجعلت في يدي رحين طويلين ، ووقفت أرقب سكيلا الهولة من بعد ، ولم أجسر أن أذكر كلمة عنها لرفاقى حتى لا تفرغ أفئدتهم فرقاً فيهربوا من عملهم ويكتظوا في بطن السفينة مخافة أن يمسهم منها أذى ... وشرعنا نعبّر البوغاز ، ... ولشد ما أفرغنى أن أرى سكيلا ترمقنا وتلمظ ، وقد انتصبت كالموت على الشاطئ القريب ، ثم أرى في الوقت نفسه خاربيديس على الشاطئ القريب ، ثم أرى في الوقت نفسه خاربيديس على الشاطئ الآخر تحشرج في حلقها الرحب الفطيع عباب الماء تمجه ، فكأنما تقذف من جوفها ماء فائراً يعلو في الجو كالخمير ، ثم يهمر ويله في كل فج ، وتعود فيفيض في البحر من بلعومها ، ثم تقذفه ، وهكذا دواليك ... ياللروع ، وياللفزع الأكبر ! تالله لقد كنا ننظر ما تبدئ خاربيديس وماتعيد في جزع وفي هلع ، بينما كانت سكيلا تتوثب وتتوثب ثم ترسل أرؤسها الستة فلتتقم ستة من رجالنا كانوا وأأسفاه أشجعهم جميعاً ، وكان قلبي يتمزق حين راحوا يهتفون بي وينادونني باسمي وأنا كالذى أسقط في يديه ، ما أستطيع شيئاً فأصنعه ، بل انظر إلى أذرعهم وأرجلهم تتقلب في الهواء وهم يصيحون ويُعولون ، وأنا ساكن ذاهل أقلب كفى ولا أفعل شيئاً آخر ! واحزنه !! ما كان أشبه سكيلا المتوحشة بصائد السمك الذي

أطعم سناره وأرسلها من فوق صخرة تداعب السمكة المسكينة ، حتى إذا حان الحين جذبتها إلى أعلى تترنح هنا وهناك . هكذا كانت هذه اللعينة التي جذبت إلى كهفها أشجع رجالنا وراحت تفتات بهم بين الصراخ والبكاء ، وبين التوجع والأنين ، وكلهم يمد إلى ذراعيه مستنجداً مستغيثاً في قنوط ويأس !! أبداً ما وقعت عيناى في جميع مخاطراتى ، على منظر أبعث للأسى ، وأمض للنفس ، وأجرح للفؤاد ، من ذلك المنظر الرهيب !

وما كدنا نفلت من سكيللا وخاربديس بعد تلك الفاجعة حتى اقتربنا من أرض الشمس ، حيث ترعى قطعان هيريون^(١) الجميلة الكثيرة ذات الفراء الناصعة . . . ولقد كنت أسمع ثغاءها ورُغاءها إذ أنا على ظهر سفينتى في عرض البحر وسرعان ما ذكرت ما قاله لى الكاهن الطبيي الأعمى ، تيرزياس في هيدز ، عن هذه القطعان ، ثم ما أنذرتني به سيرس سيدة إيايا من من وجوب الابتعاد عن هذه الجزيرة التي كانت منذ الأبد غواية البشر ، حتى قتت في رجالي فجعلت أحذرهم وأقول : « أيها الرفاق اسمعوا : هذه هي جزيرة الشمس الهائلة التي حذرنا تيرزياس الكاهن الطبيي من الرسوبها أو الاقتراب منها ، وكذلك حذرتني منها سيرس ربة إيايا . فإن كل ما لقينا من أهوال ليس شيئاً إلى الهول الذي يحق بنا إذا حللنا بها . فاسمعوا نصحى وسيروا بنا نذرع هذا البحر نسلم من شر مستطير ، وبلاء لا يجيرنا منه مجير » وكانوا يصغون إلى في حيرة وذهول ، وماكدت أفرغ حتى انتصب يوريلوخوس يرد على في جفوة وضيق : « أوديسيوس ، أيها القاسى الطاغية ، أما أوهنت كل تلك الشدائد جلدك ؟ أمخلوق أنت من حديد فما ترق وما تلين ؟ أتأبى على رجالك الموهونين المكوددين أن يرسوا بهذه الجزيرة الفيحاء المعشبة ليريغوا مما بها من آلاء ، وليطعموا من خيرها الكثير ؟ اتصرفنا عنها بنزقك وقلة بصرك لنخبط

(١) في بعض المصادر أن الشمس غير هيريون ، وفي بعضها أنها هو . وفي بعضها أنه أحد سواس

غربتها .

طول الليل في هذا البحر الأجاج خبط عشواء مع ما تكون الريح عليه حيثئذ من شدة وعنف؟ خبرنا أيها الأحقق ماذا نصنع إذا عصفت بنا نكباء من الجنوب تحطم فلكنا ولا ينجينا من بطشها أحد حتى الآلهة؟ أليس الأفضل لنا أن نرسو في الجزيرة فنقضى بها ليلنا ، حتى إذا انفلق الإصباح أفلعنا منها على هدى؟! » .

وحبذ الملاحون ما قال ، فدار في خلدي أن لا بد مما ليس منه بد ، وأن لا بد من وقوع القارعة الكبرى بنا ، فقلت في كلمات يائسات : « لا خير يا يوريلوخوس! وليس بي من بأس أن أخضع لما ترى الجماعة ؛ ولكن تعالوا جميعاً فأعطوني موثقتكم ألا تذبحوا شاة ولا تجزروا نعمة مما هنا من هذه القطعان ، مهما ألح عليكم السَّغْبُ ، وأضواكم الجوع بل يكون حسبكم ما حملتم من آكال من عند سيرس » .

وأقسموا أغلظ الأقسام أن يفعلوا ، ثم ييموا بالفلك في جون هادئ فوق الشاطئ ترتفع في وسطه نافورة رائعة ؛ فأرسوا ثم وتدفقوا وراحوا يعدون وجبة المساء ، بيد أنهم سرعان ما نسوا مسغبتهم حين تذكروا إخوانهم الذين غالتهم سكيللا ، وراحت تتغذى بهم أمام كهفها السحيق فأخذوا ييكونهم ويذرفون عليهم دموعهم حتى غلبهم النعاس ، فناموا . . . وفي الهزيع الثالث من الليل ، حين عبرت النجوم فكانت في كبد السماء ، ساق جوف رب السحاب الثقيل ريحاً جابت البر والبحر ، وغمرت بها بماء منهمر ، ثم عقد في الكون ظلمات فوق ظلمات يتدجى بعضها في بعض . . . ثم أشرقت أورورا الوردية ، فنهضنا من مراقدنا ، وسحبنا الفلك إلى غار كان لبعض عرائس البحر يرقصن به أو يستروحن فيه ، وما كاد شملنا يجتمع ثمة حتى نهضت في رجالي أقول : « أيها الرفاق إننا ما ينقصنا غداً ، وما بنا من حاجة إلى أكل ، فبعنا من ذلك الشيء الكثير ، فإياكم أن تمسوا هذه القطعان بأذى ، وحسبكم أن تعلموا أنها ملك خالص لربة الشمس التي تراكم أينما كنتم » وهكذا أيقظت في نفوسهم النخوة . ثم إنا لبثنا في

هذه الجزيرة شهراً ما نريم عنها وما كان لنا إلى غيرها متحول ، ذلك لأن الدبور^(١) ظلت تهب من الجنوب في صرامة وشدة ، فإذا هدأت ، لم تهدأ إلا لتهب ريح شرقية أشد منها عنفاً . ولم يمسا قطعان الجزيرة السائمة بأذى مادام لم ينفذ ما كان معهم من طعام ، فلما تناقصت ميرتهم راحوا يتلمسون صيد البر والبحر ، أما أنا فكنت أجوس خلال الجزيرة عسى أن التى إليها أضرع إليه فيجعل لنا من أمرنا مخرجاً . . . وبينما أنا أجوب الجزيرة إذا بي أبعد كثيراً عن رفاقي ، فبدأ لى أن أسكن إلى منعطف دافئ هادئ على سيف البحر ، فأغسل^(٢) يدي مما علق بهما من قدر ، ثم جلست أصلى للآلهة وأدعو واحداً بعد واحد أن تهى لنا من شدتنا مرفقاً ، ولكنها جميعاً - وأسفاه - أصمت آذانها عن دعائى ، ثم أرسلت على طائفاً من الكرى . . . فنمت نوماً عميقاً . . . بينما كان يوريلوخوس التعس يوسوس إلى رفاقه فيقول : « أيها الأخلاء ! أنا أخوكم في البلاد فاسمعوا وعوا . ليس أشنع من الموت إلى النفس ، ولكن الموت جوعاً هو أشنع ألوان المنايا التى يرتجف منها الإنسان . . . هلموا . . . لنذبح من هذا الشاة والنعم ، ولنضج للآلهة بأضخم ثيران الشمس ، ولننذر أن نبى للرب المبارك هيريون هيكلًا عظيمًا حالما نصل سالمين إلى إيثاكا ، ولننذر أيضاً أن نجعل فى الهيكل من الطُرف والتحف ما يرضى الإله ويكفر عن سيئاتنا . أما إذا أثر أن يغرق فلكننا وتضافرت معه جميع الآلهة على ذلك ، لأننا ألحقنا أذى بعدد من قطعانه ، فإلى أول من يجاهر بقبول الموت مرة واحدة فى أعماق هذا اليم ، على أن أموت هذا الموت البطئ جوعاً ! » وزين لهم ما قال ، فاستاقوا أسمن ما فى القطعان التى كانت ترعى العشب قريباً منهم ، ثم أطعموها أنضر أوراق الشجيرات الباسقة إذ فرغ كل مالىديهم من الشعير ، ثم وصلوا للآلهة ، وجزروا الحيوانات البائسة ثم سلبوها ، وفصلوا الأفخاذ والشحم وقذفوا بها إلى النار تقدمه للآلهة وقرباناً . . . ولم

(١) ريح الجنوب ضد الصبا

(٢) كان غسل اليدين كالوضوء عندنا شرطاً لا تصح الصلاة اليونانية بدون .

يكن معهم خمر ليمتوا بها الشعائر القدسية ، فقفذوا في النار بدلا منها ماء قراحاً . . . وجلسوا بعد هذا يعدون شواءهم من الحوايا^(١) والكبد وما إلى ذلك مما في جوف البهيم ، حتى إذا طعموا ملأ بطونهم انطرحوا في مراقدهم بينما استيقظت فجأة من سباتي ونهضت لأنطلق في طريق صوبهم . وماكدت أشرف عليهم حتى ملأ خياشمي قتار^(٢) ما فعلوا ، فوجمت وجوماً شديداً ، ثم أجهشت ، ثم استخرطت في بكا طويل وضرعت إلى الآلهة وظللت أقول . « أهكذا يا أرباب السماء تلقون على ذلك الطائف من الكرى فيفعل أصحابي ما فعلوا إذ أنا أعط في نوم عميق ؟ » . . . وطارت لمبتيا بالخبر المشثوم إلى إله الشمس فتار ثائره وطفق يصخب ويهتف بالآلهة ويقول : « يا جوف العلى ، وأنت يا آلهة السموات ! إئنأرى لما فعل السفهاء من رجال أوديسيوس ! لقد اجتروا فجزوا من نعمى . وشأنى التى هى بهجتى وأنسى والتى أرمقها أبداً من علياء السماء ، فإن لم تنتقمى لى فوعزنى لأهبطن بشمسى إلى هيدز فأنير آفاقها وأضفى أضوائى على الأشباح ثمة ، وأدع هذا العالم المشرق الجميل يضرب فى دياجير ما مثلها دياجير » . وأجابه رب السحاب الثقال فقال : « يا إله الشمس على هيتتك ، بل ظل مشرقا على بنى الموتى الدائنين فى تلك الأرض ، وإنى مسخر صواعقى على سفيتهم فى لمح البصر فتذهب بها وبهم أباديد » . . . أما من أخبرنى هذا فقد حدث به هرمر رسول الآلهة . . . ثم وقفت فيهم أنتهرهم وأنعى عليهم ولكن . . . وأسفاه أى انتهار وأى نعى وقد سبق السيف العذل ؟ ثم حدثت المعجزة ! وبدأت السماء تشهد آياتها فقد تحركت الجلود الملقاة على الأرض وزحفت نحونا ثم سمعنا مُصْبَغ اللحم الغريض سواء ما ظل منها دون أن يمىس وما علق منها بالسفايد ، وقد أرسل ثغاءً وخواراً كأنها لا تزال على قيد الحياة ! . . . وهكذا ظل رفاقى يجزرون كل ثور حنيد من ماشية إله الشمس ويغتذون بحواياها طوال ستة أيام ، حتى إذا كان السابع أمر جوف

(١) الأمعاء .

(٢) ربيع الشواء .

العاصفة فهدأت والبحر فطامن ، فأهرعنا إلى الفلك فأنزلناها في اليم ،
ونشرنا الشراع ، وأقلعنا حيث لا ندرى ماذا يراد بنا ! ! ثم غابت الأرض
عن الأنظار ، ولم يكن إلا البحر من ورائنا وأمامنا وعن شمائلنا وأيماننا . . .
ثم السماء فوقنا . . . ثم شرع زفيروس^(١) يهب ويهب ، ويقلب اللج من
حولنا ، ثم اشتد واشتد وصار ريحا عاصفاً هوجاء ، كسرت قلاعنا
وحطمت سكاننا ، وذهبت بقلب الربان المسكين فلم يعد له صبر
ولا جلد . . . ثم سلط علينا جوف صواعقه فقصمنا ، وحطم سفينتنا
فترنحت أول الأمر ، ثم غاصت إلى الأعماق ، وطفونا إلى سطح البحر
الغاضب بلا أدنى أمل في أى شئ بله العودة إلى بلادنا . . . ولقد كنت
أرقب حطام الفلك يطفو معنا ويغوص ، حتى عنى أن أعلق بخشبة قريبة
منى ، فطويت عليها قطعة من الشراع الممزق وجعلتها لى ثماماً^(٢) لصقت
به ، بينا نامت الشمال لسوء حظى ، وأخذت الجنوب تهب في عنفوان
وبأس ، وتدفعني بقسوة وقوة حتى خيل لى أنها ستنتهى بى إلى عين
خاربديس الحمئة . . . ياللهول ! لقد مضى على ليل أيما ليل . . . حتى إذا
أشرفت ذكاء ، رأيته وبالأأسف عند صخرة سكيللا ، وعلى مسافة من
عين خاربديس ولحسن حظى كانت اللعينة قد ابتلعت كل مياه
الشاطئ . . . ثم دفعتنى موجة من الأعماق فاستطعت أن أعلق بأحد
أغصان التينة الهائلة النامية فوق صخرتها ، فبقيت لا صقاً به كالحفّاش لا
يمكننى أن أهبط أو أن أتسلق لعظم ما كانت الأغصان تباعد من الأرض
وتمد من حولى ، ولأنها كانت تعرش من فوق خاربديس ، حتى كنت
أرتعد من فزع وهلع عندما كنت أبصر تحتى فأرى العين الحمئة الملعونة تبتلع
الموجة إثر الموجة ، ثم رأيت الخشبة وقطعة الشراع التى كنت عالقاً بهما
ينقذان نحوها ويكونان تحتى ، فطربت ، ولو أن هذا جاء متأخراً حتى ريع
قلبي ووهنت قواى ، وغمرنى شعور الذى انفرجت أزمته ، وكشفت عنه

(١) إله الصبا .

(٢) الثمام أقل ما يتعلق به الغريق .

غمته ، فهو يت إلى الماء، وتعلقت بهما بقبضتين مستميتين . . . ويلاه
علىّ ! ! أواه ! لو لمحتنى سكيللا الهائلة طافياً هناك ! ! إذن ما استطاع
إنقاذى رب الأرباب نفسه من مخالبا وأنيابها ! ! ثم بقيت هكذا تسعة
أيام بليالها . . . يصرعنى البحر وأصرعه ، ويناضلنى الموج وأناضله ، حتى
رثت الآلهة لخالى فساقتنى فى العاشر إلى أوجيجا ، جزيرة عروس الماء
كلييسو ، فرسوت ثمة فى ليلة ليلا ، مظلمة طخياء . . . وقد نالنى من كرم
العروس وجميل معروفها مارد إلى قواى ، وأثابنى عما لقيت من شقوة
وأرزاء . . .

ولكن لم هذا ؟ لقد سمعتم قصتى مع كلييسو من قبل ، إذ رويتها للملك
ولزوجه أمس ، وإنى لأكره الحديث المعاد .

أوديسيوس يصل إلى إيثاكا

وفرغ أوديسيوس من حديثه ، وجلس القوم في الردهة ذات الظلل مسبهين مشدوهين من روعة ما حدث ، ومن غريب ماروى ، حتى تكلم الملك فقال : « أوديسيوس ، يا أيها العزيز ! صفا بالك وطاب حالك واستندريت من ذرى هذه القبة للسماء بركن ركين ، فلن ينالك أذى بعد اليوم ، ولن تقدر عليك الريح الهوج في رحلتك الآمنة إلى بلادك ، وإن يكن مثلك لا يبالي الحدثان ، ولا يابه لصروف الزمان ، بعد إذ وضع لبانها ، وتقلب طويلا في أحضانها ... وإنه والله ليس أحب إلينا من أن تقيم آخر الدهر عندنا فتتحسى معنا من أكرم هذه الخمر ، وتشف أذنك بما يتغنى مطربنا الحبيب الإلهي ، وإلا ، فذاك صندوقك العزيز وفيه أذخار الهدايا وأعز اللهى ، من مطارف الديباج ، ومكنون الذهب الوهاج ... ولكن على رسلك ، هلموا يامعاشر الفياشين فليحضر كل منكم للنازح الكريم طرفة مرآة الطرف ، وتحفة من أجل التحف ، ولتكن ركيزة من الذهب وأصيصاً صغيراً للزهر ؛ وليساهم الشعب في هذا ، وذلك أدنى ألا تطيقوا ثمنها » .

وصادفت مقالة الملك هوى في قلوب السادة زعماء الفياشين ؛ ثم نهضوا ففرقوا إلى منازلهم يلتمسون الراحة ، وينعمون بطيب المنام ؛ ونضرت أورورا ابنة الفجر جبين المشرق بأفواف الورد فهب الزعماء العظام من مراقدهم ، وبادروا إلى السفينة بهداياهم التي وصف الملك . وقد كان ألكينوس نفسه ينتظرهم ثمة ؛ وكان يتناول كل هدية بيديه فيضعها الأمين تحت مقاعد المجدفين حتى تكون بنجوة من ضرر يصبها ، أو أذى يلحق بها ، حين يكون الملاحون مشغولين فيما هم بسبيله من عمل البحر ومصارعة الموج ... حتى إذا أسلموا تذكاراتهم عادوا مع الملك إلى قصره المنيف لولمة

الوداع الفاخرة وقد قَرَّب إلى جوف الكبير المتعال ، رب الأرباب ورب السمحاب الثقال ، بثور جسدٍ عظيم ؛ واعدَّ من فخذيه شواء شهى أقبل عليه القوم يأكلون ويروغون ^(١) ، بينما يسكب في آذانهم غناؤه ديمودوكوس مطربهم الحذق الحبيب . وكان أوديسيوس يرنو بطرفه المشتاق إلى الشمس يود من أعماقه لو عجلتْ إلى خدرها ، وكان يضجره منها جريانها الوئيد ، فهو دائماً يرقب مغيبها بعيني الزارع الشقي الجوعان الذي أجهده طول النصب في حرث حقله ، فعلق بصره بالشمس يتمنى لو هبطت فجأة في المغرب ليلوى أعنة بهائم إلى كوخه ، وليتبلغ هناك بلقييات ! وما كادت تتوارى بالحجاب حتى وجه الخطاب لزعماء الفياشين في شخص الملك ، فقال : « مولاي الملك الجليل ألكينوس ! يا فخر شيرا وعمار الفياشين ! تمنيتُ لو أدت الصلاة الخمرية يامولاي وتفضلت فأذنت لي في وداعكم ، مادمت قد أعددت لي الهدايا واللّهي ، والأبطال الصناديد من رجالكم الملاحين ... وإلى لأضرع إلى الآلهة أن ترعاني في رحلتى في اليم ، وأن أصل إلى بلادى فألقى فيها آلى وعشيرتى سالمين ، كما أسأل أرباب الأولمب أن ترعاكم وأن تقر أعينكم جميعاً بذويكم . وأن تفنى عليكم من نعمائها ، وتحفظ بلادكم من عاديّات الزمان وملات العبدّان » وسر الجميع من مقالته فهتفوا له . ورجوا الملك أن يأذن له في السفر ، فالتفت ألكينوس إلى مشيره وقال : « هلم يابنتون فأدهق الزق واحمل الخمر إلى جميع أضيافنا ليريقوها خالصة لوجه سيد الأولمب ، كى نتأذن لأوديسيوس بالرحيل إلى دياره » ولبى المشير ، وأخذ كل كأسه ، ولم ينتظر أوديسيوس حتى يصل الندمان إلى الملكة المبعجلة الوقور ، بل هب مسرعاً وقدم إليها كأسه الهائلة ، وقال : « وداعاً يامولاي الملكة أحر الوداع ! إلى آخر العمر ؟ وليكن عمراً موفوراً مُحَفَرَجاً ^(٢) تقرين فيه بمولاي الملك والسادة النجب أبنائك المحبوبين وشعبك » وحيّاً وبياً ، ثم

(١) يدسون اللقمة .

(٢) واسع الرق .

أهرع إلى المرفأ ومشير الملك يسعى بين يديه ، ثلاث من وصيفات الملكة يتهادين في إثره ؛ أما الأولى فكانت تحمل الثوب الديبجى الموشى ، وأما الثانية فكانت تحمل الصندوق الثمين ذا الأذخار ، وحملت الثالثة مثنوّة حافلة من أشهى الآكال وأطيب الشراب ... حتى إذا كن عند السفينة ، سلمن ما حملن للملاحين الشجعان واثنين من حيث أقبلن ... واشتغل بعض البحارة بإعداد فراش وثير في قبرة ^(١) خلفية من أجل أوديسيوس ... الذى آوى إلى منامته واستغرق ثمة في سبات لذيذ ، بينما كان الملاحون دائبين في فك الحبال ورفع المرساة من صخور الشاطئ ، حتى إذا انتهوا توزعوا إلى مجاديفهم وأعملوا فيها أيديهم ، فهمت الفلك واحتواها الماء ، وأقلعت تشق الأمواج ، وتأخذ سبيلها في البحر سرباً ... هذا بينما كان النائم البرئ قد استسلم لطائف من الكرى يشبه طائف المنون . وعمرّك الله ^(٢) هل رأيت أربعاً من صافنات الجياد تتبارى في حلبة ، وقد أذن المؤذن فاندفعت تهب الرحب ، وترسل في الهواء أعرافها ؟ لقد كانت السفينة تتواثب على أعراف الموج مثلها ، والعباب الزاخر يصطخب من ورائها ، واللجة من بعد اللجة تجيش وتضطرب تحتها ، كأنما تتحدى اليم في طمأنينة وثبات ، أو تسابق في الجو البواشق البزاة !! وكيف لا ، وقد حملت رجلاً لا كالرجال ، وبطلا ابن أبطال وحكماً ترباً ^(٣) للآلهة في المكرمات وعظيم الفعال . وقرناً ليس كمثله قرن في يوم كريمة أو نزال ؛ لم يعف من قبل هذه الغفوة الناعمة التى باعدت بينه وبين ما تجشم من آلام وأحزان وأشجان .

وتلألأت في الأفق الشرق نجمة الفجر الصادق ، حينما كانت الفلك قبالة الأرض الموعودة ... إيثاكا ... بعد إذ أتمت رحلتها الخاطفة في جنح

(١) القمرية مخرفة في السفينة .

(٢) أستحلفك بالله

(٣) العرب بالكسر اللدة أو المشبه

الليل ... وهناك في شاطئ المدينة ، أنشئ مرفأ أمين باسم فورسيزرب الأعماق يُدخَل إليه بين حاجزى أمواج ممتدين على مدى الجون الجميل ، بين ذراعى الميناء ، فما تستطيع ريح أن تعبث بما فيه من سفين ؛ وقد بسقت أشجار الزيتون على الشاطئ وامتدت امتداداً هائلاً إلى كهف حريز تأوى إليه طائفة من عرائس البحار قال لها النّباد . وثمة ، أى في هذا الكهف المقدس ، صفت أباريق من حجر وجرار كثيرة ، يأتى النحل فيودع فيها شهبه ؛ وقامت فيه أيضاً عمد من حجر يقال إن عرائس الماء تنسج عليها أثوابها العجيبة . وفيها أيضاً عيون من ماء زلال تسقى ساكنيه . ويؤدى إلى الكهف طريقان عظيمان ، أحل أحدهما للناس يضربون فيه ما يشاءون ، أما الآخر فلا تطؤه إلا قدم إله كريم ، ويعرف بطريق الجنوب المقدس .

ويم البحارة بفلكهم شطر الميناء ، ثم أرسوا فيه ، وجنحت السفينة بنصف حيزومها ^(١) على رماله ... وحملوا أوديسيوس الزعيم دون أن يوقظوه ووسدوه على فراش ^(٢) وطأوه على الشاطئ ، ثم حملوا كل متاعه وأذخاره فجعلوها إلى جانبه خلف زيتونة ضخمة تحجبها عن أنظار المارة ، حتى لا يعث بها عيار إذ هو مستغرق في نومه العميق ... وركبوا الفلك بعد هذا وعادوا أدراجهم إلى شيرا ... وأحسن نبتيون الجبار رب البحار وعدو أديسيوس الأكبر بما فعل الفياشيون فثار ثأره وقال يعتب على زيوس : « أيها الإله الأعظم الأبدى ، أبداً ما أحسبني أنال نصيبى من التقديس والتبجيل بين الآلهة منذ اليوم ، ما دام شعب فياشيا لم يأبهوا أن يحقرونى أو يبالوا بى . فقد كنت عولت على ابتلاء أوديسيوس بأروع صنوف البلايا قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده ، ولم يكن في تصميمى أن أحول بينه وبين العودة إليها لأنك كنت قد وعدت بتمهيد السبيل لهذه العودة ، ولكنهم حملوه على فلکهم غاراً في أحلى المنام ، ثم حملوه إلى

(١) حيزوم السفينة مقدمها

(٢) في نسخة أنهم حملوه بفراشه

الشاطئ الايثاكي بما معه من العطايا والأذخار ، وطرف النحاس ، وتحف
النضار ، ومطارف الديباج ، وما حمل من كنوز لم يكن يحمل شيئاً منها
حتى لو عاد بنصيبه من أسلاب طروادة ! وأأسفاه ! وأأسفاه ! » وقال يجيبه
رب السحاب الثقيل : « ماذا تقول يا مزلزل الشطآن والخلجان يا ذا
الملكوت والجبروت ، يا أيها العظيم نبتيون ؟ ! لا عليك يا أخى ! لا عليك ،
فإنه لن تحقرك الآلهة ولن تستخف بك ! فإذا استخف بك ملاً ضعيف من
بنى الموتى - عبادنا البشر - فما يضيرك ؟ أليس فى يديك ألف فرصة للبطش
بهم والانتقام منهم ؟ أربع عليك نبتيون ، وصل ملاذك ، فإنك لست
عبداً لأحد » قال نبتيون : « جوف يارب السحاب إنه ليس أحب إلى من
أن أبطش بهم كما أشرت ، ولكنى لأخشى إلا تحديك لى دائماً بغير حق ،
وإنى أرجو أن أعصف بسفينتهم فى دأمانى ^(١) اللجى حتى لا يحملون
ضارباً فى البر والبحر مثل أوديسيوس مرة أخرى ، وإنى مقتف آثارهم
الآن ، فضارب فلئكم اللعين ، فساحره فى الحال إلى طود عظيم ينهض
بروقه أمام مدينتهم حتى ليحجبها عن كل سارب فى البحر فلا يراها أحد
أبدأ ! » فقال جوف يجيبه : « هلم يا أخى فاصنع ما بدا لك ، وافعل
فعلتك التى رسمت ، وليكن ذلك حينما يقتربون من مدينتهم حتى
يرى أهل شيرا ما يحل بسفينتهم ليكون لهم آية ! » . وانطلق مزلزل
الأعماق فى أثر الفياشين حتى إذا كانوا قاب قوسين من الشاطئ أرسل
يده تحت فلئكم فضرها ضربة هائلة أرسلتها فى الهواء وهوت بها إلى اللج ،
ثم تركت مكانها جبلاً عالياً أشم ، ولوى عنانه إلى أرجاء ملكه الرحب .

ووقف الفياشيون - ملوك البحار - على شاطئ البحر مسبوهم
دهشين يسأل بعضهم بعضاً : من ذا الذى أرسى هذا الجبل الهائل مكان
سفينتهم تلقاء المدينة حتى ليحجبها عن أنظار السفن العابرة فى اليم ؟
والتفت الملك وكان واقفاً بينهم فقال : « يا للآلهة ! لقد ذكرت نبوءة قصها

(١) الدأمان البحر العظيم

على والدى فيما غبر من الزمان . . . فلقد ذكر لى أن شعبنا المجيد مأذون له من نبتيون أن يحمل الناس من كل فج ، من ضل سبيله منهم إلى بلادهم مها تناءت. وقد ذكر أيضاً أن سفينة من سفننا بعد إذ تترد من رحلة لها إلى بلد رجل غريب نازح، ستغرق في الهم ويسق مكانها جبل عظيم شاهق يحجب شيرا عن البحر . . . وها قد تحققت النبوءة ، فهلماوا تقرب لإله البحار نبتيون باثني عشر عجلاً جسدا تكون أعظم عجولنا وأغلاها قيمة ، عسى أن يرثى لنا فيكشف عنا هذه الغمة ولا يحول بين البحر وبين مدينتنا بهذا الطود الكبير الراسى « وتفرّج زعماء الفياشيين وبادروا إلى عجولهم فحجزوها باسم نبتيون ، وتكبكبوا حول مذبحه فصلوا له ، وسبحوا بذكره . . . أما أوديسيوس فقد هب من نومه وهولا يدرى أين هو ، ومع أنه كان ينام الذ النوم فوق شاطئء بلاده ، فإنه لم يعرفها لطول ما شطت به النوى^(١) ولأن مينرفا الكريمة ، سليفة جوف العظيم ، كانت ألقت حوله ظلالاً تحجبه عن أعين المارة مخافة أن يعرفه أحد منهم قبل أن نلقنه من حكمتها هو ضرورى له في حالته هذه . . . كأنما أرادت ألا يستبينه أحد من مواطنيه ولا من أصدقائه وذويه حتى يبطش البطشة الكبرى بالخطاب الفساق الذين استباحوا عرضه واستحلوا بغير الحق زاده وخيره ، وعمروا كالشياطين داره لذلك موهت مينرفا كل شىء في عيني أوديسيوس ، فالطرق مستقيمة مستطيلة والموانىء رجة مترامية ، والجبال ذاهبة في السماء ، كالدوح الباسق يطاول الجوزاء ، وكل شىء ليس مما عهده البطل في بلاده . . . ووقف يقلب عينيه في المشاهد المكددة به ، ثم تنهد من أعماقه ، وبسط كفيه إلى السماء وضرب بهما في برم على فخذه ، وأنشأ يقول : « ويلاه على ألف ويل ! أى شعب من الشعوب يقيم بهذه الأرض ياترى ؟ أجلاف ظلمة هم ، أم أطهار أخيار ينجبتون للآلهة ؟ ليت شعرى أين أخبىء هذه الكنوز والأحراز ؟ وى ! بل أيان أذهب أنا ؟ لعمرى لقد كنت أوتر ألا أنال شيئاً منها من هؤلاء الفياشيين على أن أكون

(١) السفر

قد حلت بأرض رجل ذى نخوة وذى نخيزة من ملوك الأرض غير الكينوس هذا ، فكان يرسلنى آمناً سالماً إلى بلادى ! ماذا أصنع ياربى ؟ أترك هذه الثروة الطائلة هنا ؟ أأدعها فريسة حلالا لغيرى من الناس ، وأهيم فى هذه البطحاء على وجهى ؟ وأسفاه ! أهكذا يغرون بى فيلقوننى فى شاطئ غير شاطئ بلادى ، وقد وعدوا أن يهبطوا بى مرفأ إيثاكا الأمين ؟ اللهم يا جوف العظيم ، يامن إليه يجأ أبناء السبيل والمهاجرون والمساكين ، انتقم لى يارب الأرباب من هؤلاء الخونة المبطلين ! ولكن . . . يجدر بى قبل كل شئ أن أحصى أذخارى لأرى هل سلبنى منها هؤلاء اللصوص شيئاً ؟ » ثم راح يحصر كنوزه ، فما وجد شيئاً منها ناقصاً أو غير موجود ، وزاد ذلك فى أشجانه ، فأخذ يندب حظه ، ويبكى على ما لقى من زمانه ، وينشج نشيجاً مؤلماً لهذه الهجرة الظالمة عن أوطانه ، وجعل يروح ويغدو على سيف البحر المضطرب ، وحيداً معنئ ويرسل دموعه وزفراته حتى بدت له آخر الأمر مينرئاً فى صورة راع صغير غص الإهاب عجيب الثياب جميل الحياء ، كأبناء الملوك ، ملتفعا حول عنقه ومن فوق صدره بشفيف^(١) . صفيق طوى حولها طيتين وفى قدميه نعلان متواضعتان ، وفى قبضته حربة ناعمة لامعة ، . . . وكانت مفاجأة سارة فوجئ بها أوديسيوس فخطا خطوات عاجلة إلى الشاب وراح يسأله : « مرحباً أيها الغرائق^(٢) ! الجميل ! لقد كنت أول إنسى ألقاه هنا ، فبحق هذا عليك أن تحمىنى وتحمى أذخارى هذه ، وألا تلحق بأينا أذى ! إني أتوسل إليك كما لو كنت أتوسل إلى أحد الآلهة أن تصدقنى فيما أسألك عنه : أية بلاد هذه ؟ وأى قوم يعيشون فيها ؟ أهى جزيرة أهلة أم حدور من بلاد مترامية ؟ أخبرنى بأربابك أيها الفتى . »

وقالت مينرئا ذات العينين الزبر جديتين تجيبه : « أيها الغريب اللاجئ كم أنت ساذج ! كيف تسأل عن هذه البلاد كأنك لست من أهلها ؟

(١) الثوب الرقيق (٢) الشاب الجميل الحيا

إنها بلاد ذات ذكر في المشارق والمغارب ، ومنها وإليها تصدر الركبان إلى كل فج ، ثم هي ليست يهماء ^(١) مجهولة ، بل هي جنة مأهولة ، زاخرة الخيرات موفورة البركات ، ففيها أنضر سهول القمح وأبهج عرائس الكروم ، وأخصب المراعي الخضرة الحافلة بقطعان النعم والشاء ، تسقى من ماء معين ، وأنهار وعيون . . . هذه يارجل إيثاكا . . . إيثاكا المباركة ، التي استطلت شهرتها ، واستطار ذكرها حتى ملأ الخافقين ، وجاوز طروادة ذات المجد ، التي لا تبعد شطآنها من أخايا .

وشاع البشر في نفس أوديسيوس لما سمع الراعي يؤكد في لهجة قاطعة أن هذه البلاد هي إيثاكا الموعودة ، وهز السرور أعطافه لما رأى من زهو الشباب وافتخاره بها . . . بيد أنه مع ذلك راح يتجاهل ، ويؤيدى عدم معرفته لهذه البلاد ، ويحاول أن يخذع الفتى عن نفسه ، وما يخذع إلا نفسه هو . . . قال : « أجل . . . لقد سمعت عن إيثاكا في أقاصي البحار . . . والناس يعرفونها حتى في كريت التي وصلت منها اليوم بعثادي هذا ، تاركاً فيها أبنائي وذوي رحمي ، فاراً بنفسى من الفعلة الجائلة التي فعلت . . . ياويح لي ! لقد قتلت العداء المعروف أرسيلوبن أيدومين العظيم الذي لم يكن يباريه في سرعة عدوه أحد . لقد حدثته نفسه أن يسلبني ما غنمت من كنوز طروادة وأسلابها وما حصلت عليها إلا بعد قتال شديد ولظى حرب ، وركوب أهوال في ذلك اليم . . . وذاك لأنني أبيت أن أقاتل تحت لوائه ، أو لواء سيده ومولاه ، بل قدت فيلقاً من الجند فظفرت وانتصرت ، فكبر عليه هذا ، وحفظها لي ، وأضمر في نفسه الغدر ، فلما عدنا أدراجنا إلى أرض الوطن ، حاول أن يسرقني كنوزي ، فأقصده ^(٢) برمحي فأرديته ، وكان معه زميل له شرير فذبحته ، واستعنت عليهما بدجى الليل ودُجنته ، ثم هربت تحت أستار الظلام بأحرازي إلى الشاطئ ، حيث حملتني سفينة فياشية رجوت ملاحيا أن يبحروا بي إلى شاطئ بيلبا ،

(١) صحراء مضلة

(٢) رميته برمحي .

أو إلى مرفأ إيليس . . . لكنهم وأسفاه اضطروا إلى الإرساء هنا لأن ريحاً عاصفاً قسرتهم على ذلك ، فوصلنا هنا برغمنا في جنح الليل البهيم ، ولقينا عناء عظيماً في النزول بالمرفأ الأمين ؛ ومع شدة حاجتهم إلى الطعام ، فإنهم لم يستأنوا ، بل تركوني وحدي ، وأبحروا على عجل ، بعد إذ نمت على الشاطئ من الإعياء ، وبعد إذ حملوا إلى هنا متاعى . . . وهم الآن في طريقهم إلى سيدونيا . . . وهأنذا وحدي هنا ، لا أعرف أيان أذهب ، ولا أين أمضى !! » .

وسكت أوديسيوس . . . ولكن الراعى الشاب الجميل أخذ يتحول في فتون وسحر إلى صورة خلابة أخرى . . . لقد أصبح امرأة حسناء هيفاء . . . وهامى ذى . . . تلك المرأة الحسناء الهيفاء . . . تبدو في صورة مينرفا - ربة الحكمة - التي اقتربت من البطل في تبسم وظرف ، وأخذت تعث بلحيته الكثة الشعثاء في دلال وسخرية ، وراحت بدورها تجيبه : « مرحى أوديسيوس . . . مرحى مرحى !! ما أحسب أن أحداً - أحداً من الآلهة - يفوقك في مكرك وبراعة حيلتك ! يا ابن ليربيس ! ! أما آن تفلح عن مراوغاتك التي حذقتها مذكنت يافعاً ، وعن توشية الأحاديث الملفقة التي حذقتها واشتهرت بها في العالمين ؟ ! ولكن . . . تعال . . . ليدع كلانا ما يحاول أن يزوق به كلامه ، فكلانا بارع في ذلك صناع . . . أنت بفصاحتك . ودقة فهمك وطريق حيلتك بين الناس ؛ وأنا بحكمتي وقوة تديري بين الآلهة . . . وما أحسبك تجهل مينرفا ابنة جوف الأكبر ، التي كانت رائدك ورفيقك في كل ما حاق بك من مكروه . . . فقد كنت أقذف الشجاعة في قلبك في مواقف شدتك . كما كنت أثير الحمية في أفئدة الفياشين الذين وصلوا بك إلى هنا ، وهأنذا طويت إليك فداغد الرُّحْب لأخلو ساعة بك ، ولأن لي حديث نصح معك ، بودى أن أمحصك إياه . . . وقبل هذا ينبغي أن نخفي كنوزك التي أسبغت عليك بمشورتى . . . ثم إنى محدثتك عما يتحيفك من أرزاء ، وما

يدبر لك من كوارث تحت سقف بيتك ، ونصيحتي أن تحتمل ما يصيبك أول الأمر بقلب جليد وصبر ثابت وطيد ، واحذر أن يعلم أحد ، رجلاً كان أو امرأة - بوصولك إلى إيثاكا وحيداً شريداً لا حول لك ، كما وصلت ، بل اصمت كلما حاول أحد أن يتعرفك ، واحتمل الأذى كلما امتدت به يد إليك . « وقال أوديسيوس ، وقد أسقط في يده : «لله درك ياربة ! ما أبرعك في تغشية العيون وتضليل الأبصار ، والتشكل في أى صورة شئت ! بيد أنك برغم ذلك حليلة رحيمة كعهدي بك دائماً ؛ ألا كم نصرت أبطال أخايا المذاويد ، وأظفرتهم بأعدائهم في ميدان طروادة . . . ولكنى لن أنسى مذ أقلع أسطولنا من مياه تلك المدينة ، بعد سقوطها في أيدينا أنك لم تظهرى لنا قط ، ولم تبادرى مرة إلى إنقاذى من إجدى الرزايا التى كانت تحيق بى والتى كنت أحتملها بقلب حديد ، وصبر شديد ، حتى رثت الآلهة لحالى فجعلت لى منها مخرجاً وأنقذتنى إلى بر فياشيا ؛ حيث أثرت فى صدرى النخوة ، وأوليتنى الشجاعة ؛ وكنت دائماً دليلى ورائدى . . . ولكن . . . أصدقينى بأبيك يا ابنة جوف ، هل وصلت حقاً إلى إيثاكا ؟ أم أنا فى صُقع سحيق عنها وإنما أنت تسخرين منى وتعبثن بى ؟ أصدقينى بأبيك ياربة ، هل هذه بلادى العزيزة إيثاكا ؟ هل هى حقاً ؟ » وقالت ذات العينين الزبر جديتين تحجيه : « دائماً حَلِيزُ يا أوديسيوس ، وإلى الأبد يملأ الواسواس صدرك برغم ما أوتيت من حكمة وتبيان ، ورجاحة فكر وسلامة بَجان ! بيد أنك معذور يا صاح ، إذ أى رجل يتشوف لرؤية زوجه وأبنائه ولا يتحرق شوقاً للقياهم بعد هذا السفر الطويل ، والبعد الممض ، والأهوال الجسام الجمة ؟ غير أنه أفضل لك ألا تعلم شيئاً ولا تسأل عن شئ حتى تلمس بنفسك مقدار ما تكنه لك من الحب تلك الزوجة الوفية المخلصة التى ذهب شبابها عليك حشرات ، والتى ذرفت دموعها من أجلك آناء الليل وأطراف النهار طوال تلك السنين الباكية الحزينة الموحشة . . . إني لم أتركك يا أوديسيوس كما تظن . بل كنت أعلم أنك راجع دون ماريب إلى بلادك ، وإن فقدت كل رجالك ورفاق سفرك

الطويل الشاق . . . غير أنني أشفقت أن أثير حَقَّ ابنتيون . عمى وشقيق أبي ، الذي يحز الأسى في قلبه من فعلتك التي فعلت بعين ابنه السيكلوب . . . ولكن هلم . . . إني سأقطع شكك باليقين ، وسأدلك على علائم تؤكد لك أنك في إيثاكا . . . فهذه هي ميناء فورسيز حكيم البحار ، وها هي الزيتونة الكبرى عند رأس المرفأ وعلى مقربة منها ذلك الكهف المقدس الإلهي الذي تأوى إليه عرائس البحر المعروفة باسم النباد ، وقد طالما كنت تجزر القرايين والأضاحي باسمهن عند وصيده ، وهاك جبل نيروتوس وأولئك غاباته الشجراء . . . » ثم رفعت ربة الحكمة الغشاوة عن عينيه فعرف دياره ولم ينكر شيئاً منها ، وهكذا شاءت العناية أن يشهد البطل المكدود بلاده الحبيبة مرة أخرى ، وهكذا خر أوديسيوس جاثياً يقبل ثرى الأرض المقدسة ، ثم رفع يديه يصلى لعرائس الماء كسابق دأبه ويقول : « يا عرائس البحر ، يابنات جوف الأعظم ، لقد قنطت قبل هذا من أن أراكن ، فهأنذا أعود إليكن بألف نذر وألف تحية وسلام . . . ولكن القرايين الغوالى إذا مدت أختكن مينرفا الحكيمة في أيامي وباركت رجولة ولدى ومعقد أحلامي . »

وقالت ابنة جوف تؤيده : « تشجع يا أوديسيوس لا طائل لهذه الوسواس التي تعذبك ! هلم ! البدار ، البدار ! لنخفى هذه الكنوز في أغوار ذلك الكهف السحيق لتكون في مأمن من عبث عابث ، ثم هلم أدبر الأمر معك » وانطلقت الربة في ظلمات الكهف تتكشفه بينما حمل أوديسيوس أذخاره فوضعها حيث أشارت مينرفا ، ثم حملت بيديها الجبارتين صخراً عظيماً فأحكمت به غلق المدخل الرهيب . وجلسا عند أصل زيتونة باسقة ، وشرعا يرسمان الخطط ويحكما التدبير لهلاك الخطاب الفساق المعاميد ، فقالت مينرفا : « أوديسيوس ، يا ابن ليرتيس المجيد ، هلم فأعمل فكرك الآن في الوسيلة التي تبيد بها أعداءك الذين لا يستحيون ، أولئك الخطاب الذين استبدوا بأسرتك طوال أعوام ثلاثة ، واستباحوا حماك ، وتكالبوا حول زوجتك كل هذه السنين يغرونها بالوعود ،

ويزخرفون لها الأمانى ، ويُعسلون لها كلمة الفسق ، وهى ما تزداد إليك إلا تحرقاً ، وما ترقاً دموعها من أجلك ، فتحتال لهم ، وتعدُّ هذا وتوشى المنى لذلك ، معللة نفسها بعودتك لتسحقهم جميعاً ! » واستعبر أوديسيوس قليلاً وقال : « أوه ! كأن القضاء الذى أسكت نامة (١) أجامنون يكاد يحيق بى أنا الآخر فى صميم دارى ! ولكن ... وى ! أضرع إليك أيتها الربة أن تشيرى على وتنصحى لى وتلقينى كيف أثار من هؤلاء الطغاة ؛ وأنوسل إليك أن تقذف فى قلبى الشجاعة كما قذفتها فيه تحت أسوار طروادة ، فإنى بعونك أدوخ المئين من أعدائى ، وما دامت يدك فوق يدى ، فإنى مستأصل شأفتهم جميعاً » قالت مينزفا : « اطمئن يا أوديسيوس ، سأكون معك وإن لم يمتد إلى طرفك حتى تغتالهم أجمعين ، وحتى تطيح رؤوس أكثرهم على أرض قصرى ... ولكن تعالى ؛ ألق بالك إلى ، إنى سأغير من صورتك ، وأحور من إشكك|حتى لا يعرفك منهم أحد ، فهاتان الوفرتان (٢) تستطيلان حتى تغطيا كتفيك وحتى تتصلا باللمة (٣) ، وسأدثرك بدثار مرقع رث يثير التقزز فى نفوسهم فلا يمدون أبصارهم إليك ، وسأحدث أوراماً حول عينيك تزيد فى تنكرى ، حتى ليحسب من ينظر إليك من أعدائك أنك وأهلك بعض المساكين الذين لا يفتأون يضربون فى الأرض ... على أنه ينبغى أن تلق راعيك الأمين (إيبومايوس) الرجل الوفى الذى لا يزال يخلص لك ، وبنى لابتك ، ويؤثر بأصنى وده زوجك ... فاذهب إذن إلى جُبيل كوراكس المطل على نبع أريثوزا ، تجد قطعانك ترعى العشب الحلوثة ، وتسقى من السلسيل المجاور ؛ وتجد راعيك الشيخ يتشوف إلى رؤيتك ، فحيه واجلس إليه ، واسأله عن كل ما تريد أن تعرف من أنباء بيتك وأهلك وعقارك ، وتلبث معه حتى أعود إليك بابنك من أسبرطة ... ابنك تلياك الذى ذهب يذرع الرحب سائلاً عنك ، متحسناً أخبارك حيث حل ضيفاً كريماً على الملك منلوس ، الذى

(١) أسكت نأتمته أى أماته .

(٢-٣) الوفرة مايلغ شحمة الأذن من الشعر واللمة ما ألم بالنكب منه .

أرسله إلى ليسديمون ليرى هل لا يزال أبوه حياً يرزق؟» قال أوديسيوس :
«وأسفاه عليك يا ولدى !! ولم أيتها الربة المحيطة بكل شئ لم تخبريه أنني
حي أرزق وأننى لابد عائد إليه ، فكنت كفيته بلاء الرحلة فى تيه البحر ،
بيننا هؤلاء الكلاب يستنزفون ثروته وماله ؟» فقالت تجيبه : «لاتأس على
ولدك هكذا يا أوديسيوس . لقد أرسلته أنا ثمة ينشد الشرف وينشر ذكره
بين الناس ... إنه لا يلقى عنتاً هناك ، بل هو ينعم بالرعاية فى قصر
أتريدس ! واعلم أن فريقاً من يخطاب بنلوب يتربصون به ، و يترصدونه فى
طريقه ابتغاء أن يقتلوه قبل أن يبلغ أرض الوطن ... ولكن لا ... خاب
فألهم ... إنهم لن يمسوه بأذى حتى تكون الأرض قد رويت من دمائهم ،
وغيبوا جميعاً فى بطونها ، أولئك السفلة الذين يستحلون زادك وعتادك
الآن » . ثم مسته بعصاها السحرية فبدت عليه بدوات الكبر ؛ فهذا جلده
قد تغضن ، وهاتان وفرتاه ولته قد استطالت حتى بلغ شعرها قدميه ،
وهاهى ذى تضفى عليه الدثار المرقع الرث ، وهاهى ذى تحدث الأورام
حول عينيه وتزوده بمزق قدرة علق بها التراب والسحام ^(١) وهاهى تضفى
عليه بعد ذلك جلد ظبى قديم غليظ وتدفع إليه بعكازة طويلة يتوكأ
عليها ، وتمده بمزود ^(٢) تدلت منه أوشية قبيحة ، وأحيط بسيور من جلد
عتيق ...

واقترقا ... فهو إلى حيث يلقى راعيه ... وهى إلى حيث تلقى تليماء فى
مملكة ليسديمون .

(١) الفحم أو ما يعرف بالعامية بالهباب

(٢) سرج

مسح السراعى

وسلك سبيله فى طريق وعر محفوف بالأشجار الباسقة إلى مأوى صديقه الراعى الشيخ الأمين ، فوجده جالساً وحده فى مدخل الحظيرة الشاسعة القائمة وسط المرج المعشوشب النضير . ولقد سورها يومايوس . إذ سيده غائب فى أقصى الأرض . بسور عظيم ضخيم من حجارة قوية نحتها من محجر قريب . وجعل على السور فروعاً من قتاد وشوك وجذوعاً من سنديان ، حتى صارت أمنع من عقاب الجو ... كل ذلك دون أن يساعده أحد ... ثم قسمها اثني عشر زرباً ^(١) جعل فى كل منها خمسين خنزيرة كنزاً ... أما ذكران الخنازير فقد تركها سائبة فى الخارج ليرسل منها إلى العشاق المعاميد ما يأكلون منه وما يريغون ... وقد بقى منها بعد تلك الأعوام الطوال ستون وثلثمائة . وربضت لدى الباب كلاب أربعة كسباع البرية ، تلحظ الحظيرة بأعين كالجمر ، وجلس الراعى يعمل لنفسه نعالاً من جلد ثور مذبوغ ، بينما انطلق خدمه ومعاونوه الأربعة يعملون ويدأبون هنا وهناك . وكان رابعهم على وشك أن يترك الحظائر إلى المدينة ، حاملاً لحم خنزير حنيد يذهب به برغمه إلى الخطّاب الفساق . ولحمت الكلاب أوديسيوس فأهرعت إليه ، وظلت تعوى وتنبح ، وترغى وتزبد ، وأوشكت أن تفتك به ، لولا أن هب يومايوس فكسر شرتها بما رماها به من الحجارة ، ولولا أن ترك أوديسيوس عكازه يسقط من يده لأن الكلاب لا يغيظها إلا أن يُمسك لها أحد عكازاً ... قال الراعى : « أيها اللاجئ العجوز سلمت ! خطوة واحدة ! وكانت هذه الكلاب قد مزقتك إرباً ، وكانت قد لحقت بى سبة لاتبيد ! ألا كم ترسل على الآلهة من كروب ! وكم ترمينى من آلام ! أنا ، هذا العجوز الهالك . الذى أمضى

(١) الزرب : الزريبة للغنم

الحزن ، وشفنى الأسى من أجل سيدى ومولاي ! هأنذا أُسَمَّنُ قطعانه وأرعاها لينعم بها غيره ، بينما هو نازح غريب يحب الآفاق ويشتهى كسرة * يتبلغ بها ، إن كان لا يزال حياً يرزق ! أوه ! تعالى : أيها الصديق ، هلم فاتبعنى إلى دارى أطعمك ما تيسر ، وأسقك كفايتك من الخمر ، | وتخبّرني | بعدها من أنت ، ومن أين أقبلت وماذا وراءك ! » وانطلقا ، وقدم إليه الراعى الكريم حَشِيَّتَه التى كان يجلس عليها ، التى اتخذها من جلد عتر حشاه بالقش ؛ فشكره أوديسيوس ، ودعا له بما يجب وبكل ما تصبوا إليه نفسه . فقال الراعى يجيبه . « أيها الصديق ليس أمقت إلى من أن أذود لاجئاً إلى دارى وإن يكن أرث منك حالا ، لأن ابناء السبيل جميعاً هم ضيوف زيوس رب الأرباب وأنا مع ذاك أعتذر إليك إذا لحظت أن زادى قليل وأن حالى رقيقة ، فقد مضى زمن العز والعيش الواسع المخفرج وأصبحنا نعانى القُلَّ والفاقة والعيش النكد تحت إمرة هؤلاء الرؤساء الأصاغر . آه يا مولاي يازين الحياة ومؤدب الناس أين أنت وأين أيامك وخيرك الوفرة ؟ ليتها دامت ، وليتك ظللت فعشنا فى كنفك ... وليت هيلين وكل من فى بيت هيلين فداؤك ... هيلين التى قتلت سادات هيلاس (١) ممن أبحروا مع أجاممنون لينيلوه النصر فى ميدان طروادة ! ثم لطم دثاره وذهب إلى الزرب الأول فجاء بخنزيرتين سميتين فذبجهما وسلخ جلديهما ، وجعلهما إزباً إزباً ، ثم أشعل ناراً عظيمة فسوى على جمورها السفافيد المثقلة باللحم ، وجاء بالشواء فوضعه أمام أوديسيوس ، ثم نثر عليه من الدقيق ، وأحضر زق الخمر ، وجلس قبالة وقال : « هلم يا ضيفى العزيز فكل وارؤ ... لا تؤاخذنى إذا رأيت الشواء لا سميناً ولا حنيذاً ، فكل سمين وحنيذ يذبح أولاً فأولاً ويرسل إلى الخطّاب السفلة الذين لا يرعون فى الآلهة إلاً ولاذمة ، ولا يخافون سماء ولا بشراً ... يا الله من هؤلاء الفجرة ! ... ألا يلمون شعهم ويغيرون بخيلهم ورجلهم على بلد قاص فيثوبوا بأسلاب الغزو

(١) اليونان وتسمى أخابا أيضاً

وسخط الآلهة ! أم تراهم أوحى إليهم بموت مولاهم فهم ههنا قائمون ما يرمون ، ولزاده آكلون ومن خمرة شاربون ، حتى فرغت الجرار ، وخوت الدار ، وضؤل الزرع وجف الضرع !! أبداً ماملك أحد مثل ماملك مولاي ! لقد كانت ثروته تعدل ما يملك عشرة أو عشرون أميراً ، ولا أزال أذكر مما ملكت يده اثني عشر قطعاً من الأنعام كانت ترعى العشب في مروج الشاطئ^(١) المقابل ، وكثيراً من قطعان الأغنام وأرعال^(٢) الخنازير وأسراب الماعز ، عليها أجراء وخدم ورعاة لا يحصون ، ورجال مخلصون يزرعون في حقوله الشاسعة ويحصدون ، ورجال يجلبون من قطعانه كل كناز للذبح ... أما أنا ... فقد عهد إليّ بهذه الأرعال^(٣) التي ترى ، أطعمها وأعني بها ، و ... وأسفاه ؛ وأرسل إلى الخطّاب كل يوم بخيارها .

وصمت الراعي بينما كان أوديسيوس يصغي ويلتهم طعامه ويفكر ألف فكرة ، ويدبر ألف تدبير لسحق هؤلاء الخطّاب المفاليك . حتى إذا انتهى ، قدم إليه يومايوس كأسه دهاقا ، فتقبلها وشرب ما فيها وقال : « ترى ماذا كان اسم سيدك أيها الصديق ؟ لا بد أنه كان مشهوراً ذا ذكر ، لما وصفت من واسع ثرائه وسمو جاهه وبسطة ملكه . لقد قلت إنه ذهب إلى طروادة مع أجامنون ، فهل تفضل فتذكر لي اسمه عسى أن أقص عليك من أنبائه ؟ لقد ذهبت أنا الآخر ثمة ، وسافرت في بلادشتي ، ومحال ألا أعرف العظماء الذين جاهدوا مع أجامنون . » فأجابه الراعي : « وأسفاه أيها الأخ العجوز ! أبداً لا تنطلي الأنباء الملفقة عن مولاي على زوجه أو ولده ؛ فكم من جواب آفاق مثلك ، محتاج إلى لقمات أو سروال ، قد لقي الزوجة المسكينة فلفق لها قصصاً مكذوباً عن رجلها ثم دلت الأيام على كذبه وزخرفه ، والزوجة في كل ما تسمع تذرف الدموع وتصدع الآهات كأحسن ما تصنع زوجة وفية من أجل زوجها الذي قضى في بلد بعيد .

(١) لعة شاطئ آسيا .

(٢) جمع رعييل ويجمع على رعال أو أراغيل وهو الأصل للخيول والبقر .

(٣) جمع رعييل أي قطع من الماشية أو الغنم

وأكبر ظنى أنك تطمع فى كساء تخلعه عليك هذه الزوجة المفثودة^(١)
 الرءوم ، فأربع عليك ، فالرجل قد قضى ، وليس بعيداً أن تكون كلاب
 البرية وسباعها قد اغتذت به أو أنه قد غرق فأكله السمك ، ولفظت
 عظامه على سيف البحر لتذروها الرياح ، تاركاً وراءه قلوباً تأسى عليه .
 أحزنها عليه قلبى . تالله ما وددت أن أرى أبوى اللذين غادرتها منذ
 أحقاب كما أتشوف اليوم إلى رؤية هذا الرجل . . . آه يا أوديسيوس ! أين
 أنت . . . إنك مهما شطت النوى وشحطت^(٢) الدار فلن أبرح أذكرك
 وأسبح باسمك وأفرك بما أحسنت إلى وعنيت بشأنى ، يا من فراقك عندى
 ألم لى من فراق أعز إخوتى وأشقائى ! »

وحدجه أوديسيوس وقال : « أيها الصديق لم تيأس من عودة مولاك
 هكذا ؟ ولم يخامرك الشك فى أن رجوعه محتوم لا ريب فيه ؟ إذن فأنا أقسم
 لك قسماً لا أحث فيه إنه لعائد لا محالة ، ومعاذ الآلهة أن أقسم وأؤكد
 الإيمان لأنال القميص الذى ذكرت أو الدثار الذى أنا فى شدة الحاجة
 إليه ، بل ليق القميص والذثار حتى يتحقق قسمى وتبر يمينى فأتسلمهما
 منك ، فإنى أمقت الكاذب الخائن فى يمينه كما أمقت أبواب الجحيم ،
 والله على ما أقول وكيل . . . اطمئن إذن يا صاح وثق أن أوديسيوس لا بد
 عائد هذه السنة إلى إيثاكا بل ربما عاد هذا الشهر ، ولن يمضى شهر آخر
 حتى يكون قد ثار لعرضه من أعدائه وبطش بهم جميعاً أولئك الفجرة
 الأشرار الذين جسروا على استباحة حماه ، وإهانة زوجه ، وعدم المبالاة
 بولد وسخر الراعى وقال : « أهكذا تقسم وتؤكد القسم يا صاح ؟ أبداً لن
 تنال الرهان أبداً ، فقد أودى أوديسيوس ولن يعود بعد . . . هلم هلم ،
 تحسس^(٣) كأسك الروية ودع هذا الحديث فإنه يخزننى ويثير شجونى . . .
 خل قسمك ، وليقدم أوديسيوس فى خيالك أوفى الحقيقة ، فأنا وزوجه

(١) المصانة المرأة المحروية

(٢) يعد

(٣) اشرب

وأبو ولده . . . كلنا نشتهي ذلك ونتمناه على الآلهة . . . يا ويح لك يا تليماك الحبيب؟ لقد كنت أرقص طرباً كلما رأيتك تنبت كما نبت أبوك، وتشب على الفضائل التي شب عليها ! أين أنت ؟ لقد ذهبت إلى ملك بيلوس تتحسس أخبار أبيك ، وهاهم الخطاب يترصدونك ويتربصون بك ليغتالوك في الطريق . ألا طاشت أحلامهم ، وحماك جوف الأعظم من مكرهم ، وحفظك لببت أرسيا يا أعز الناس . . . ولكن تعال أيها الضيف الكريم . . . قل لي بربك وأصدقني في كل ما تقول : من أنت ، ومن أين أقبلت ، وفيم قدمت ؟ وما بلدك ؟ وأين يقيم أبوك ؟ وأي سفينة حملتك إلى شاطئنا ؟ فلعمري إنك لن تدعى أنك وصلت إلينا سائراً على قدميك ! ! » فقال أوديسيوس يجيبه : « سأقص عليك من أنبأى التي لا يأتيها الباطل ما لو لبثت عندك عاماً بين هذه الخمر وذاك الطعام ، بينما يكذ الآخرون من أجلنا ويجهدون ، ما فرغت من قصصها عليك . . . فهي أنباء باكية وآلام متصلة ، شاءت السماء أن أقاسيها ، وأن أجرع غصصها . . . إذن فأنا ابن كاستور هيلاسيد أحد سراة كريت ، من سرّيته المحبوبة التي كان يعزها كزوجة . ولم يكن أبى يفرق بينى وبين إخوتى من زوجه ، بل كان يولينا حبه على السواء ، وكان الناس يبجلونه كأحد آلهتهم لثرائه الواسع ، وحسبه الضخم ، ولأعماله الناجحة ، فلما مات اقتسم أبناؤه كل ما ترك ، وكان نصيبى منزلاً متواضعاً . ومالا كثيراً ، وزوجة غنية ذات مال وجمال . ولم يحاول إخوتى أن يدعوني^(١) أو يأكلوا ترائى ، لما كنت عليه من كريم الخصال وحميد الفعال ، وجمال المنظر ووسامة المظهر - لا كما ترائى الآن - وأأسفاه على مافات من نضارة الشباب ! تالله لن تستطيع ، ولن يستطيع أحد ، أن يحدس كم شقيت وكم بليت ، وكم من الآلام والضنك وأضرار الحياة تحملت ؟ فلقد كنت لا أرهب الردى ، وكنت دائماً أخوض خبار المعامع في حمى مارس ومينرفا فأشك قلوب الأعداء وأبهر القادة

(١) دع دفع ورد

والزعماء بجلائل الأعمال . . . ولم يكن من دأبى أن أشغل نفسى بأكلاف البيوت ومشاكل الحياة المعيشية الدنيا ، التى هى بالأحداث والغلمان أولى ، بل كنت مشغولاً أبداً بركوب البحار وخوض غمار الوغى ، وملاعبة الأسنة ، وما إلى ذلك مما جعلته السماء غراماً وفرحاً لى ، وضراماً وفرعاً فى فؤاد سوى - والناس كما تعلم فيما يعشقون مذهب . . . ولست أرسل القول على عواهنه ، فلقد قدت إلى طروادة تسعة جيوش ظفرتُ بفيالقها قبل هذه الحرب الضروس الأخيرة بينها وبين هيلاس . . . ولقد حزت الثراء الجمل والغنى الوافر من جراء هذه الحروب ، فأصبحت بين شعب كريت المفضل المبجل . . . ثم كانت الحرب الأخيرة التى قتل بسببها مئات من السادة الصناديد من رجال الإغريق ، فاختروني أنا وصاحبى إيدومين قائدين للأساطيل . . . ثم حاربنا حول طروادة تسع سنين حافلات مُثقلات وفى العاشرة سقطت المدينة فى أيدينا ، وعدنا أدراجنا نطوى اليم لا ندرى ماذا خبأت لنا المقادير ، ومن ثمة بدأ جوف يرسل صَيِّباً^(١) من الرزايا فوق رأسى ، حتى إذا وصلت إلى كريت سالماً لم ألبث طويلاً هناك ، ولم أمتع بالأهل والوطن إلا شهراً واحداً ، ثم أقلعت فى نخبة من رفاقي بأسطولنا إلى مصر بعد أن أولمت لهم وقربت القرابين وقد أرسلت العناية لنا ربحاً جرت بسفننا رُخاء كأنما أبجرنا مع تيار نهر لا جبار ولا عنيد ، ولم يحدث لأى من جوارينا سوء حتى بلغنا شطآن مصر فى اليوم الخامس ، واتخذت سفننا سبيلها فى النيل عجباً . . . ثم حدث ما لم أود أن يحدث ، إذ سطا رجالى بعد خُلف فى الرأى وشجار بينهم عنيف على حقول الفلاحين فاستاقوا أنعامهم وسبوا نساءهم . واسترقوا أطفالهم ثم ذبحوا رجالهم . . . بيد أنهم لم يسلموا مع ذاك من شر المصريين ! إذ استيقظت المدينة على صراخ الجرحى وأنين القتلى وتصويت النساء فأقبل أهلها كالجراد ، بين فارس وراجل وكل يحمل السيف البتار أو الرمح السمهرى ، فأعملوا فينا

(١) وابلا

ضرباً وتقتيلاً واستنقذوا السبي كله ، وشفوا حَرَدَ^(١) صدورهم منا . . .
أما أنا . . . فيا ليتني قتلت فيمن قتل واسترحت من هذه الدنيا التي جرعتني
ضعف هذه الآلام بعد ! لقد كنت أشهد رجالى يهونون إلى الأرض ، وأعلم
أن جوف قد أنزل هذا البلاء بهم جزاء لهم وفاقاً ؛ فلما رأيت أنني لا محالة
شارب بالكأس التي شرب بها رفاقي ، ألقيت سيني وجريت أعزل من
السلاح إلى حيث الملك الكريم ، فركعت بين يديه ، وقبلت الأرض
إجلالاً له ، وبكيت ما شاء جوف أن أبكي ، ثم سألته العفو والمغفرة ،
فرق لى ، ورثى لخالى ، وأمر بى فأخذنى فى جملة خدمه إلى المدينة . وقد
رام رجاله أن يقصدونى برماحهم لولا أن صدهم مخافة من الله الذى آمن
الملائكين به ، المستندين بظله ثم لبثت فى أهل مصر سبع سنين هانثا سعيداً
محبوباً من الجميع وحدث فى السنة الثامنة أن قدم إلى المدينة رجل فينيقي
جواب آفاق ، مازال بى حتى أقنعنى بالفرار معه إلى بلاده ، وأغرانى بأن له
ضياءً وأملاكاً ومالاً ، ففعلت ، ولبثت معه حولا بأكمله ، ثم حدث أن
كلمنى بعد هذا الحول فى رحلة لا أعرف إلى أين ، كانت أكبر الظن للسطو
والقرصنة ، أو على الأقل لأباع فى بلد قصى بيع الرقيق ، فينتفع
بثمنى . . . ورحلنا . . . ولكن عاصفة جبارة هبت علينا وتلاعبت بنا ،
وعبست السماء وكلح الدأماء^(٢) وتمرد من تحتنا الماء ، ثم أرسل جوف
صواعقه على السفينة فقصمها . . . وغرق الملاحون جميعاً ! . . .
وأكرمنى الله العلى اللطيف فبعث إلى بقلع السفينة الأكبر فتعلقت به ،
ولبثت الصَّبا^(٣) تقذف بى نحو الجنوب أياماً تسعة ، وفى ظلام الليلة
العاشرة ، دفعتنى على شطآن تسپروتيا حيث أكرم مثواى ملكها العظيم
البطل فيدون ، وعنى بشأنى . وذلك أن ولده رأى طريحاً على الشاطئ
أكاد أموت من البرد والجوع ، فحملنى إلى قصر الملك حيث ردت إلى
الحياة وأعطيت دثاراً وصداراً ، وخصصت لى غرفة فسيحة ذات

(١) غيظ

(٢) عبس البحر .

(٣) ربيع الشمال

أرائك . . . وهناك سمعت عن مولاك النازح ، البطل أوديسيوس ، ورأيت
بعيني رأسي وقد ذكر لي عن فضل الملك وإكرامه مثواه ، ما برهنت عليه
أعماله ؛ ثم أراني أوديسيوس كنوزه من الذهب والنحاس وطرف الحديد
التي جمعها في أسفاره ، والتي تكفي للنفقة على أسرته عشرة أحقاب . . .
وكان الملك يحفظها له في غرف كثيرة في قصره إعزازاً له وتكريماً ؛ وذكر لي
أنه ذهب إلى ددونا النائمة بين أحضان الحور والسنديان ليستوحى كاهن
جوف الأكبر عما إذا كان خيراً له أن يذهب إلى بلاده متنكراً ، أو في
صورته الصريحة الحقيقية بعد هذا الغياب الطويل عن أهله . وقد أكد لي
الملك أن المركب الذي سيحمل أوديسيوس إلى بلاده - إيثاكا - معد في
المرفأ ولولا أني أبجرت قبله لشهدته بعيني يركب الفلك ، ذلك أن فلكا آخر
للاحين من جزيرة لشيوم كان راسياً في الميناء ، فأمرهم الملك أن يحملوني
معههم ويذهبوا بي بأقصى ما يمكنهم من السرعة إلى الملك أكاستوس . ولكنهم
وأسفاه أتألبوا علي في عرض البحر ، وتآمروا بي ونزعوا صداري ،
ونضوا^(١) دثاري ثم انتهزوا فرصة المد فأرسلوا بي إلى شاطئ إيثاكا ، بعد
أن ألبسوني تلك البزة القبيحة التي ترى ، ولكي لا أقاوم أدنى مقاومة ربطوا
ذراعي وساقى وشدوا وثاقى في السارية فلم أجد حراكاً . . . بيد أن الآلهة
رأفت بي وحلت وثاقى فقدفت بنفسى في الماء وسبحت إلى الشاطئ حيث
وجدتهم يعدون عشاءهم ويلتهمونه سراعاً . . . وقد اختبأت في الأدغال
الكثيفة فلم يروني . . . وهالهم ألا يجدوني حيث شدوا وثاقى ، فذهبوا
يبحثون عني حتى إذا لم يقفوا لي على أثر ، أفلعوا عجلين ، ونجاني الله
منهم ، وساقني إلى الرجل الصالح الطيب الذي وصل حياتي وأكرم
مثواي . . . فتبسم يومايوس وقال : « تالله لقد أثرت في فؤادي مقاتلك
أيها الضيف الكريم ، وأشجاني مالمقيت من أهوال ! ولكنك كما يبدو لي لم
تكن جاداً فيما رويت من أنباء أوديسيوس فلم أيها الأخ وعليك من سيما

(١) نضا الثوب خلعه

النبيل ومخايل الفضل ما عليك ، تلفق مثل هذه الترهات المضحكات ؟ أما والله إنه إن يكن قد نجا من الموت في ساحة طروادة بما ألب عليه من سخط الآلهة أجمعين ، فأكبر ظني أنه قد غدا جَزَرَ السباع وكل نسر قشعم . . . وأسفاه عليه ! ألا ليتَه قتل في سبيل بلاده في حرب عَوَان يحمي في وغاها بيضة الوطن ! إذن لبكاه جميع الإغريق ، ولاجتمعت هيلاس كلها تتنافس في صنع لَبَنَات قبره ، وتحلّيد ذكره ، ولأورث ولده المجد والخلود ! هأنذا ياصاح ثاو في هذا المكان ، لاصق بذلك البيت العتيق ، يفد على في كل آنة غرباء مثلك ، يروون لى القصص ، ويلفقون الأحاديث عن مولاي ، فبعضهم يبكيه ويتحسر عليه ، بعضهم يوشى الأكاذيب ليغتم بعض الرُفد^(١) وينال بعض العطاء ، حين أقدمه للملكة الحزينة الكاسفة ، بنلوب ! ولعمري ما انطلت على يوماً أحاديثهم ، ولاخدعت مرة بما رَوَّقوا وزوقوا ! ! أفتحسبني أصدق ما زخرفت أنت الآخر عن أوبة مولاي مثقلاً بأحمال الذهب من كريت ، واهما أنني بهذا أبالغ في إكرامك ، وأحرص على التلطف بك ؟ لم تصنع هذا أيها الرفيق بعد أن ترفقت بك الآلهة ، وهدتكَ إلى شاطئنا ؟ أما والله إني إنما أكرمتك حباً لجوف ورهبة من بطشه ولما جاش في صدرى من الشفقة عليك والرثاء لك ، والتألم من أجلك .» وقال أوديسيوس يجيبه : « لشد ما أوتيت قلباً أفعمته الوسائوس ، ونفساً ساورتها الشكوك أيها الشيخ ! هبها أنباء ملفقة ، فما يمينى التى أقسمتها لك إذن ؟ تعال ! هلم نتقاسم يميناً تكون آلهة الألب عليها شهداء ، إنه إن آب مولاك إلى بيتك هذا في أقرب ما تظن من الزمان ، فيكون لى عليك صدار ودثار أصلح بهما شأنى حين أعود أدراجى إلى دليشوم . . . فإن لم يؤب عاهدتك فتجتمع أنت ورجالك وعمالك وتقذفوا بى من رأس قلعة عالية سامقة يخشى أحقر الآفاقيين أن يتربع عليها » وأجابه راعى الخنازير : جميل والله أيها الغريب اللاجئ ! تكون ضيفى .

(١) العطاء

وتؤاكلني وأؤاكلك على مائدتي . وتطمئن إلى ، وتأتمني ، ثم أقذف بك من حالق ؟ جميل والله هذا ! وتضع صلواتي ونسكي لدى جوف العلي ! صه ! هلم هلم ، العشاء يا صاح ! لقد آن وقت العشاء . . . البدار قبل أن يدهمنا عمالنا فيزحموا المائدة ولا تجد لك مكاناً بينهم » .

وهكذا تشقق الحديث بين الرجلين ، ثم وصلت رعال الخنازير وأهرعت إلى حظائرها حيث ارتفع قُبَاعُهَا^(١) وعلت ضوضاءها . . . وهتف الراعي بأحد غلمانَه فأمر أن يحضر واحداً من أسمنها لعشاء الضيف ولعشاء الرعاة . . . » . . . أفما نستحق واحداً منها مماثلتهم بطون غيرنا الذين ينعمون بثمار كدنا ونصبنا ؟ »

وحجى بختزير جسد ، وأججت النيران واتقد الجمر ، وصلى يومايوس للآلهة ودعا لمولاه بالخير ! وتمنى له العود أحمد العود ، ثم أهوى بشاطوره على عنق الحيوان فخر يتلبط^(٢) في دمه ، وسلخوه بعد ذلك . وهم به يومايوس فقطعه ، ووضع لإرب اللحم على صبغ الشحم ، ونثر من الدقيق على كل ذلك ، ووضع الجميع في الجمر ، وكلما نضج شيء وضعه الغلمان على المائدة ، حتى إذا فرغوا تولى الراعي العجوز توزيع الأنصبة فجعل لابن مايا^(٣) سبعة أسهم ، ولعرائس الماء سهماً واحداً ، وجعل لكل من عماله نصيبه بعد أن اتحف أوديسيوس بأجزل الأنصبة جميعاً ، ثم كان يمهده بعد ذلك بإمدادات جمّة ! ! مما أطلق لسانه له بالشكر وعليه بالثناء . . . ورد عليه الراعي في أدب وافر : « إن الله هو مانح كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطي ويسلب ، له الملك ، لا شريك له » . ثم أدوا صلاتهم الخمرية فأهرقوا المدامة للآلهة ، وكذلك صنع أوديسيوس ، وهم ميسولوس مولى يومايوس وخادمه الذي اشتراه بماله - فوزع الخبز ، ولبث يخدم ويسقي ، ويحجى ويروح ، حتى إذا فرغوا نظف المائدة وأعاد كل شيء

(١) القبايع بالضم صوت الخنازير .

(٢) يتحبط

(٣) هرير

إلى مكانه ، وانصرف القوم إلى مضاجعهم ليناموا ليلة ليلاء ممطرة شديدة
القر ، عظيمة البرد ، ونام أوديسيوس قريباً من مضيفه ، ولم يكن عليه من
الغطاء ما يقيه هول القرس ^(١) فلفق هذا الحديث للراعى الشيخ ولن نام
معه من عماله : « لله ما تصنع خمركم بالألباب يا قوم ! لقد أوشكت
أهذى وأنتفض وأملأ شدى بالضحك ... ولولا هذا القر لقمتم
فرقصت ، ولكنى محدثكم حديثاً من أحاديث الشباب فيه هذيان وفيه
ثرثرة ، وفيه من حياء سلافكم ما فيه . ألا ما أحلى أيام الشباب وما أروعها
لورجعت ! ! إن لها لصدى فى نفسى يتردد ، وإنى ما عشت لن أنسى تلك
الليلة القارسة الشاتية التى قضيتها فى صدر الشباب وريعان الصبى مع
صديق أوديسيوس ومنلوس فى كمين تحت أسوار طروادة ، فى مستنقع
آسن ذى قصب ، نرقب من عدونا فرصة تظفرنا به وتنصرنا عليه ، مقنعين
فى الحديد والزررد ^(٢) صابرين لما يصفعنا به بوريس ^(٣) من ريح عاتية
وبرد ، ويسفعنا به من قروبرد ، حتى انعقد الصقيع على دروعنا ، وكدت
أنا اجمد ويجمد الدم فى عروقى ؛ لأنى وأأسفاه استهنت أول الأمر بما
أنذرت به الحال من هذا المآل ، فخرجت فى عدتى وسلاحى ، ولم ألبس
معطى ولم ألتفع ريطتى ^(٤) ، بينما قد احترز رفاق فتدثروا بكل ثقل ...
وخفت ألا أصبر لهذا البرد فتكون القاضية ، فهتفت بأخى أوديسيوس : «
أدركنى يا ابن ليرتس النبيل فقد أشفيت على الهلاك من ذلك الزمهرير !
أدركنى بأربابك فىنى قد استخففت بالفصل الذى نحن فيه فلم أحضر معى
معطفاً ويكاد يقتلنى البرد ويهرؤنى الصقيع » ، وأسكتنى أوديسيوس خشية
أن يسمعنا أحد فلا نفلت من الموت ، وقال لرفاقه : « أيها الإخوان !
رأيت رؤيا بودى لويذهب أحد إلى أجامنون فيطلب لنا مدداً فلقد بعدنا

(١) القرس البرد الشديد جداً .

(٢) لابسين دروع الحديد .

(٣) رب ريح الشمال أو الصبا .

(٤) الریطة تشبه الكوفية .

عن الأساطيل ، ولسنا بخير لما ترون من قتلنا ! » وانبرى لها أندريمون فخلع معطفه وأطلق ساقيه للريح ... وأشار أوديسيوس الخبيث إلى ، فلبست المعطف واستدفأت به ، وحمدت الآلهة « أفليس فيكم أيها الأجوايد رجل رشيد ، فيتزل لى عن معطفه أتقى به هذا البرد الشديد وأنا فى مثل سنى وأنتم فى ميعه شبابكم ؟ ألا تفعلون ! لتكن لكم هذه اليد علىّ تفضلا أو تأدباً ! » وقال يومايوس يجيبه : « لا عليك ياضيفنا العزيز ... إنك لن تشكو برداً ولا تقصيراً عندنا ... وليس لدى كل منا إلا دثاره وصداره ومعطفه ، وليس لدينا منها كثير نباهى به ، ولسوف يعود تلياك ابن سيدنا ومولانا فيخلع عليك من الملابس مايسرك ويهيجك ؟ ولكن رويداً فساً كفيك عادية القربرغم هذا ... وبرغم ما غمزت فى حديثك ولزت ! ! » . ثم نهض فجميع شيئاً كثيراً من فراء الغنم وجلد الماعز فجعله ركاماً بالقرب من المدفأ ، ثم جعل عليها ظهارة^(١) من الصوف ، فصلحت بذلك أن تكون لأوديسيوس وسادة وثيرة ليس بها من بأس ، نام فيها فاستراح ، والتحف بفراء آخر ، وبات ليلته والابتهاج يغمر نفسه لما رأى من حرص راعيه على ذكره ، وحنينه للقياه وعنايته بقطعانه . أما الراعى العجوز الشيخ ، فكأنما أثرث فيه مقالة أوديسيوس فهب فالتقى عليه سلاحه « وأضنى على كاهله دروعه بعد أن خلع واتزر بجلد عنز ثم أجلس » بازيه الباشق على كتفه الضعيف ، وحمل حربته التى يذود بها الناس والسباع عن رعاله ، وانطلق فى العراء ، حيث جلس على صخر مشرفة على السهل ، وذاك ليحرس القطيع النائم ... غير عابئ بقرس الريح ولا وحشة الليلة الليلاء ...

(١) طهارة الفرائس ونمطه مايفرش عليه كالبلاءة

عودة تليماك

ثم رفت مينرفا رفتين أو نحوهما ، فكانت في وادى ليسديمون الخصب
حيث حل تليماك ضيفاً كريماً على الملك منلوس ، وحيث وجدته يتقلب على
فراش السهد والأرق ، لا يستطيع أن يغمض عينيه من هول ما يفكر في
أبيه ... بينا نام ابن الملك نسطور ملّ عينيه نوماً هادئاً عميقاً على سرير
مقابل لسرير الفتى المحزون .

ووقفت الربة عند رأس تليماك وأنشأت تقول له : « إلام تظل هنا في
مهاجرك بأقصى الأرض نائياً عن وطنك ياتلياخوس ؟ أو هكذا رضيت أن
يأكل العشاق الفساق تراثك ويذهبوا بنعماء السماء عليك ، ثم لا تلبث
أن تثوب إليهم من تطوافك بالآفاق بقبضة من هواء ، وخيبة من رجاء !
هلم هلم ! سل الملك أن يأذن لك في السفر من فورك فقد ألح جدك
وأخوالك على أمك في أن تتزوج من الأمير يوريم ، لما اتفق عليه من مهر
ضخم ، وتقدمات وافرة ، أضعاف ما وعد الآخرون ... هذا فضلاً عما
يوشك أن يسلب من القنى العزيزة عليك من بيتك ، التي تنقص من هنا
لتزيد فيما هناك ، فإنه ليس أحب من هذا إلى فؤاد المرأة ، وهي سرعان ما
تنسى أطفالها من زوج شبابها ورفيق صباها من أجل زوجها الثانى الذى تود
لوتهبه كل شيء ، فالبدارَ البدارَ إذن ، وعد أدراجك إلى بلادك لتحفظ
تراث أبيك ينفعك حين تكون لك زوجة صالحة وذراى أنجاب ببركة السماء
ورعاية الآلهة ... ثم خذ حذرک ياتليماك ، فلقد اختبأ زعيم العشاق في ثلة
من رجاله بين ساموس وإيثاكا يتربصون بك ويطردونك ليغتالوك قبل أن
تصل إلى شاطئ الوطن ... وإن فألهم الخائب ، ولن يفعلوه حتى يهال تراب
الموت عليهم جميعاً ... ألا فارحل يابنى في ظلام الليل ، واجتنب سفيتتك
أن تسلك سبيل ساموس ، وابعد ما استطعت عن الجزائر القريبة منها ،

وسيرعاك بعض الآلهة ، ويسخرلك ريحاً رخاءً تسارع بك إلى بلادك .
 فإذا بلغت أول الشاطئ الإيثاكي فانزل إلى البر ، ولتسلك الفلك سبيلها
 من دونك ، ولتذهب أنت إلى يومايوس راعي قطعانك الذي يحبك فأرسله
 إلى أمك كي تقرر عينيها بأوبتك . « وما كادت تفرغ حتى زفت ^(١) إلى
 الأولب . وهب تلياك فأيقظ رفيقه من نومه فائلا : « هلم بيزاستروس !
 هلم فأسرج الخيل ولنرحل من فورنا ! » وقال له ابن نسطور يجيبه : « هلم
 إلى أين يا صاحبي ؟ كيف نجبط في هذا الليل الدامس ؟ ألا نصبر حتى تشرق
 ذكاء ، حتى يلقاك الملك فيخلع عليك ويحسن وداعك ، لتظل ذكره
 الحسنة ماثلة إلى الأبد في روعك ؟ »

وانبلج الصبح ، فنهض منلوس الملك من نومه العميق ، ويم شطر
 الغرفة التي نام فيها تلياك ورفيقه ، وما كاد تلياك يلمح في غبشة الفجر
 صورة الملك حتى هب مسرعاً ، وأضفى عليه طيلسانه الفاخر ، وأثرز فوقه
 بمثرآخر ، ثم دلف نحو الباب فلقى الملك ثمة وقال له : « بورك الملك وتعالى
 جده ! تالله لقد آن لي أن أعود إلى إيثاكا ، وبودي لو أذن الملك بذلك »
 فقال الملك : « إنا لا نستطيع أن نحجزك إذا كانت رغبتك أن تشد رحلك
 ياتلياخوس ؛ وإنه ليس أشق علينا أن يقيم ضيف لدينا برغمه ، أو أن
 نَعْجله على الرحيل من عندنا ... بيد أنه يحسن أن نتنظر قليلاً حتى نهيب لك
 أفخر الهدايا وأعزّ اللّهي وحتى نعدّها لك في عربتك ، وسأمر ندّاماي
 فيعدون لنا فطوراً يليق بوداع ضيف كريم عزيز مثلك ، لا بد له من أكلة
 حافلة تصبر لسفر طويل يزعمه . فلو أن سفرك هذا كان خلال هيلاس
 وكنت من أجله ستجتاز أرجوس شرقاً لغرب ، إذن لسافرت معك ،
 ولجزت بك مدائن شتى ، ولأهرع إلينا عمال الأقاليم يقدمون إلينا الهدايا
 والتحف ، من صحائف الذهب وركائز الإبريز وكل كأس ثمينة ، من كل
 دابة مطهّمة وجواد كريم » وأجاب تلياك في أسلوب الفطين الحذر :

(١) زف الطائر أسرع في طيرانه

« مولاي أتريدس ، منلوس العظيم ! تالله إنه لآثر إلى أن أرحل لساعتي ، فلقد تركت ورائي بيتاً لم أدعه في صيانة أحد ، وحطاماً لست آمن عليه أحداً . وأخشى يامولاي أن أقضي في رحلتى هذه وراء أبي ، فلا أكون قد أبقيت على نفسي ، ولاراعيت تراثه الذي تركه لي » وأمر الملك خدمه فهبأوا الخوان ، وزودوه بما بقي من عشاء أمس ، بعد أن أضرم رئيسهم إيتون ناراً أسخن عليها ما ينبغي أن يكون منها حاراً ... وتوجه الملك إلى غرفته ، فلقى فيها زوجه وولده ؛ فتناول كأساً من الذهب الخالص ، ودفع لولده بدنها من الفضة ؛ أما الملكة فنهضت إلى خزانها فأحضرت ساجاً^(١) عملت فيه يدها الصناعات فزخرفته وزركشته حتى بدا كسماء التمتع فيها نجوم ... وعاد ثلاثهم إلى حيث ينتظرهم تليماك وكلمه الملك فقال : « ذاك تذكارى إليك يا ابن أوديسيوس بودي لو تقبلته . وهو كأس عجيبة من صنع فلكان أهداها إلى البطل فيديم ملك سيدون^(٢) حين حلت عليه ضيفاً ، هذا وأنا أدعوك أن يكلاك جوف في رحلتك بعين الرعاية ، وأن يكتب لك السلامة والتوفيق ، ثم قدم إليه الكأس العظيمة وكذاك فعل ابنه ؛ أما هيلين فقدمت إليه الساج ، وتبسمت عن فم أنضر من أقحوانة ، وقالت له : « وأنا أيضاً أدعوك يا بني ، وأقدم إليك سدوساً^(٣) من أنفس الديباج حبذا لو جعلته قنينة تذخره لك أملك حتى تقدمه بدورك لعروسك ليلة زفافها إليك » وكان لكلماتها في نفسه نشوة ، فأخذ الطيلسان وناول ابن نسطور الذي عنى به ووضع به مكانه من العربة . ثم يموا المائدة الكبرى ، وصبت الماء على أيديهم جارية ذات حسن وأناقة وظرف ، وأخذوا بعد ذلك في فطورهم بينا وقف ابن الملك يدهق الكؤوس ويشرب الخمر ، حتى إذا فرغوا نهض تليماك ورفيقه فسلبا وودعا ، وركبا العربة الفخمة المثقلة بأثمن الهدايا ، وتناول الملك كأساً من الخمر وسار حتى دنا من الخيل ؛ فصبها صلاة للآلهة من أجل الراحلين وقال : « لكما الصحة والصفاء أيها الشبابان

(١) الساج الطيلسان .

(٢) سيدون هي صيداء

(٣) هو الساج أيضاً .

اليافعان ، تحياني إلى نسطور أخى الذى كان يرعانى كأحد أبنائه تحت أسوار طروادة » فأجابه تلياك : « لاغرو أيها الملك ، فسنقص عليه آية كرمك وعظيم سخائك ... وأرجو لو وصلت إلى إيثاكا فلقيت أبى أوديسيوس ثمة ، إذن لقصصت عليه هو الآخر ما غمرتنا به من حفاوة وكرم وعطف ! » وماكاد ينتهى من كلمته حتى بدا عن يمينه نسر عظيم يحمل فى مخالبه إوزة كبيرة بيضاء ، وقد حلق فى الهواء ، وجرى خلفه الخدم والحشم من أهل المدينة ، بيد أن النسرفاتهم جميعاً . . . وقد رُزعج الملاً الواقف لتوديع تلياك ، وبدأ الهلع فى وجه بيزاستراتوس ، فسأل الملك فقال :

(ليتفضل الملك فيحدثنا عن هذه العلامة إذا كانت من أجلنا أو من أجل مولانا ، ولكن الملك لم يجر جواباً لفرط دهشه . فلما لحظت حيرته هيلين زوجته ، تكلمت فقالت : « أيها الملاً اسمعوا وعوا ، فلانى أحدثكم كما علمتني الآلهة ... تالله إن هذه لآية ، فكما غلب ذاك النسر أولئك الناس ، وذهب بتلك الإوزة البيضاء ، فهي له ، فكذلك يعود أوديسيوس من تجواله وطويل ترحاله إلى إيثاكا ، فيبطش بأعدائه الذين استباحوا عرضه وعشقوا زوجته ، ويخلو له وجه بنلوب » وانتفض تلياك من شدة ما أثرت فيه كلمات الملكة فقال : « ألا حبذا أن يتم هذا ! اللهم يا جوف المتعال حقق النبوة أعبدك ، واكتب لأبى السلامة أخت لك ، وأكتب لى أعود إلى بلادى فألقاه ثمة تكن لك صلاة دائمة وذكر متصل يا إله السموات ! » ثم حيّا الملك ، وألهب الجياد فانطلقت تنهب الرحب ...

ولم يزالا على سفر طوال يومها ، حتى بلغا قصر ديوكليس مع مغيب الشمس ، فضيّقهما وباتا ليلتهما عنده ، وما كادت أورورا تنضر جبين الشرق بالورد حتى هبا مسرعين ، وودعا مضيفها الكريم ، وواصلتا رحلتها ... وكان ابن نسطور قد أخذ بأعنة الخيل فجعلها تنساب حتى لكانها تسابق الريح ... ولما بلغا أبواب بيلوس قال تلياك لصاحبه وهو يحدثه : « أنت عذيرى يا أعز الأصدقاء إذا سألتك أن تصل بى إلى السفينة

من غير أن تتوجه إلى بيتكم للقاء أبيك ، فقد يكبر على أن أرفض نُزله ، وأستأني بذلك عنده ، في وقت أنا في أشد الحاجة إلى العودة إلى الوطن ... على أنني سأحفظ لك في أعماق ذكرى خالده لآتمحي ، زادت بها هذه الرحلة الحزينة جمالا ، وعقد أواصرها ما بين أبويننا من الود ، وما بيننا من اتفاق السن ، وصفو المودة وجميل الإخاء » وتردد ابن نسطور أول الأمر ، بيد أنه لم يستطع إلا أن يلبي رجىة تليماك ، فثنى أعنة الخيل إلى الشاطئ حيث كانت تنتظره الفلك ، فنقل إليها متاعه ، ثم ودعه صديقه وعقرت القرابين باسم مينرفا ، وصلى لها الجميع وسبّحوا سبّحاً طويلاً ... وإنيهم لكذلك . إذا شاب طويل مفتول العضل يتقدم إلى تليماك ، فيخبره أنه قاتل آبق^(١) ، وأنه يلوذ به ، وأن اسمه تيوكليمين ، وأنه يرجوه في أن يسافر معه ، فهش له وبش ، وأخذ سلاحه فآلقاه في السفينة ، وأذن له في الركوب ، وجلس الرجل مع تليماك عند مؤخر السفينة ، في حين كان الملاحون يهثون القلاع ، وينشرون الشراع ، ثم أقلعت الفلك ، وأرسلت مينرفا بين يديها سحسجاً تدفعها في رفق ، وتطوى تحتها الماء في حذب . وكانت الشمس تتوارى بالحجاب ، وكان الليل يلتقي سدوله فوق الكون ... وما هي إلا عشية حتى مرت السفينة بقيريا ، وبمدن غيرها . وجوف في كل ذلك يحرسها ويرعاها .

هذا ما كان من أمر تليماخوس الفتي . . . أما ما كان من أمر أوديسيوس وراعيه ، فقد كانا يلتهان في هذا الوقت طعامها ، وما كادا يفرغان من ذلك حتى أحب أوديسيوس أن يرى لنفسه إذا كان الراعي قد ضاق به ذرعا فينطلق من لدنه ، أو هو كرم ذو نخوة ونحيوة^(٢) فيبقى عنده ، فنهض يقول : « أيها الراعي يومايوس . . . وأنتم أيها الأصدقاء الرعاة . . . اسمعوا وعوا . . . تالله إني لأخشى أن أرهقكم بضياقتي أو أنقل عليكم

(١) ضرب صفحاً عن قصة هذا الرجل لبعدها عن الموضوع

(٢) مروة

بلبثى عندكم طويلا ، فرجائى إذا انفلق الإصباح أن يقودنى أحذكم إلى المدينة لأستجدى وأتكفف ، فلن أعدم فيهم من يتفضل على ببلغة^(١) أو كسرة أو جرعة ماء . . . ولسوف أيم شطر بنلوب وعسى أن أستطيع لقاءها لأبلغها أبناء أوديسيوس ، فإذا لم أستطع فلن أعدم عملا فى خدمة العشاق ، لأنى والله المحمود ولى من أولياء هرمز رسول السماء ونصير الضعفاء ، ولن أضيق بتكسير الخشب ، أو إضرار الحطب ، أو حمل الكاس والطاس ، أو القيام على الشواء . . . أوما إلى هذا وذلك من عمل الفقراء البائسين » واهتز يومايوس إشفاقاً وقال : « أيها الرجل ماذا تقول ؟ أتجازف بنفسك فتلقى بها إلى التهلكة وسط هؤلاء الناس ؟ من أنت أيها الفقير حتى تحسبك تقدم الخمر لهم أو تخدّمهم ولهم خدّم شباب غُرانيق ، وندامى كالكوكب نضرة وجمالاً . . . وحشّم يلبسون أحسن الوشى وأفخر الحرير والديباج . . . لتبقى معنا أيها الشيخ فلن نضيق بك ، وحين يعود سيدى تلياك فإنه يكسوك ويسبغ عليك ، ويبعثك مكرماً معزّزاً أنى شئت . » وشاع البشر فى أعطاف أوديسيوس فقال : « شكراً لك يا يومايوس ألف شكر ، وجزاك الله عنى أجزل الخير ، بما كفيتنى شر السؤال وذل الاستجداء وليس شراً منهما على نفس أبيّة قاست الأهوال ولا تزال تقاسى . . . بيد أن لى مسألة عندك بوى لو جلوتها لى : ألا يزال والد أوديسيوس حياً يرزق ؟ وهل لا تزال أمة بخير ؟ أم أنهما اليوم من أهل الدار الآخرة ؟ لقد غادرهما أوديسيوس يوشكان أن يطرقا باب هيدز ، فهل عندك من أخبارهما شئ ؟ » . قال الراعى : « ومالى لا أصدق أيها الشيخ ؟ إن ليرتيس - أبا مولاي - لا يزال على قيد الحياة . . . لكنها حياة شاقة أنقضت ظهره ، وأنفذت صبره ، وهو ما يفتأ يضرع للآلهة أن تخلصه منها بالموت . . . إنه قد فقد أحسن آماله حين فقد حامى شيبته الدائد عن شيخوخته ، ولده أوديسيوس ، وقد عجل له الشقاء موته وحياته هو من بعده ، فهو ما بنى يبكيه ، وما ينفك يُساقط نفسه حشرات عليه . . . أما أمه فقد

^(١) الببلغة اللقمة من الطعام .

قضت من أسي وحزن وطول بكاء ، قضاء ما قضى مثله صديق ولا عدو !
 إنني حزين عليها يا صاح ، بل أنا أفقدها كأعز من أُمي لأنها نشأتني صغيراً
 ورعتني كبيراً ، وكانت تحبني كمحبة ابنتها ستيמיثا التي تزوجت أحسن زيجة
 في ساموس من كفاء مهرها أحسن مهر وأغلاه . . . أبداً لا أنسى أنهم
 ألبسوني أحسن اللباس ، وأعطوني نعلين جديدتين ، فرحاً بزواجها ، ثم
 أرسلوني إلى الحقل ، ولكنهم لم ينقصوا من محبتي . . . لقد عاشت مولاتي
 بعد أوديسيوس معيشة شقية كلها آلام ، كنت أواسيها وأعزيها ، ولكنها ما
 انتفعت قط بعزاء ، ولا استروحت إلى سلوة ، حتى ماتت ، وهأنذا أبكيها
 كلما ذكرتها ، وقلّ أن أنساها ، على أني أحمد السماء على ما أولتني من
 خير ، وأسبغت عليّ من نعم هي حسبى وحسب الضيف الذي
 يغشاني . . . على أني أعذر مولاتي وسيدتي ببلوب إذا لم أر منها عطفاً
 عليّ ، لأنها في شغل بحالها وسط هؤلاء الأوغاد المعاميد . . . وهي بالرغم
 من ذلك تولى خدمها المقربين منها نصائح غالية تنفعنا جميعاً . . . ثم هي لا
 تنسى أن تنفح الكثيرين منهم ما يفرحون به من آلاء وأعطيات ، غير ما
 يأكلون وما يشربون . . . وكأنما أراد أوديسيوس أن يتحكم عليه ويسخر به
 فسأله عن بلده ووالديه ، وعن القوم الذين أخذوه عنوةً ، وفي أي سفينة
 جاءوا به ، وبكم باعوه لأهل أوديسيوس ، فقال الرجل : « أيها الصديق
 أعرنى أذنيك ، وارشف خمرك ، أقص عليك قصتي ، فالليل طويل ،
 وفي جنّحه يحلو السمر ، وليس أشهى من أن يروى ذو أشجان ، واتم أيها
 الإخوان ، من كان منكم في حاجة إلى النوم ليصحو مبكراً فليذهب ولينعم
 بالكري . . . ثم أحسبك سمعت أو عرفت جزيرة سيريا التي عند
 أورتيجا . . . إنها جزيرة صغيرة ، لكنها غنية بأغنامها وماشيتها وقحها
 وأعناها ، كما اشتهرت بهوائها العليل ، ومناخها الجميل ، وصفوها وطيب
 رياها ^(١) . . . لذلك لا تعرف أبدان أصحابها الأوصاب ^(٢) ، بل يُعمّرون

(١) شذاها

(٢) الأمراض

حتى يأتيهم أبو اللو^(١) فيصمهم بسهامه ، وتعجل أرواحهم إلى هيدز ،
ويقتسم أرض الجزيرة أهل مدينتين عظيمتين ، كانتا تخضعان لسيطرة أبى
الزعيم العظيم ستزيوس أورميند . . . وحدث أن أurst في شاطئنا سفينة
فينيقية محملة بالطرف والتحف وبلعب الأطفال ، من صناعة الفينيقيين ؛
وحدث أن كانت في بيت أبى جارية قسيمة وقسيمة ذات حسن وذات
دلال ، كانت تقف على سيف البحر لبعض شئون المنزل ، فرآها بعض
ملاحى المركب واستطاع أن يخذعها بكلام معسول ذى طنين وذى رنين ؛
ثم سألها من هى ، ومن أى البلاد أقبلت إلى هذه الجزيرة وكان الخبيث
يمنج ألفاظه بنظرات الأبالسة ، وغمزات الشياطين ، وابتسامات الغزل ،
فانقادت له ، ضعيفة كبنات جنسها إذا نصبت لهن شرك الهوى ،
وجذبتهن أحابيل الغرام ، وقد أخبرته الغادة أنها من سيدون المشهورة
بصناعة الصلب والنحاس ، وأن أباهأ أريباس الفلاح ، وأن بعض
القرصان قد اختطفها حين كانت عائدة أدراجها من حقله ، وباعها
لصاحب تلك الجزيرة بأجنس الأثمان وقد أغراها الملاح بالعودة معه إلى
بلدها على فلكه ، وبالفرار من حياة الرق والعبودية للقاء الأهل والأحباب
والأبوين الثريين اللذين كانا لا يزالان حين يرزقان . . . فاستحلفته
المسكينة إذا كان جاداً فما قال ، فحلف لها ، واستقسمته إذا كان أميناً غير
ذى غرض أو لبانة ، فأقسم لها ؛ ثم تعاهدا على ذلك وقالت له : « والآن
فلا يذكر أحد من أمرى معكم شيئاً لأى من أهل المدينة ، حتى لا يفشو
السر ويعلم به صاحبى ، فيكون فى ذلك وبالى ووبالكم وهلاكى
وهلاككم . . بل امضوا فى بيع بضاعتكم وشراء ما يلزمكم . ثم إذا عزمتم
أن تفعلوا فابعثوا أحدكم إلى بقصر صاحب الجزيرة ، فإنى مرضع ابنه .
وهو الآن يحبو ، بل يدرج ، إنى محضرته معى فانه سينفعكم ، بل

(١) تضيف بعض النسخ ديانا - وهذه أول مرة نرى فيها أبو اللو يقوم بوظيفة عرائيل فى الأدب
اليونانى ، لأنها وطيفة هرمز (مركيورى) خاصة (د - خ)

تستطيعون يبعه في أحد البلاد ببيع المال . وسأحضر معه كل ماتستطيع
يدى أن تحمل من آنية وأكواب من خالص الذهب وغالى الفضة ، مما
يخف حمله ويغلو ثمنه » وعادت البائسة إلى قصر أوى . . . ولبت الملاجون
عامهم كله في مرفئنا يبيعون ويشترون حتى إذا حال الحول أو كاد ، حضر
واحد منهم إلى بيتنا يبيع بنية^(١) من ذهب وكهرمان ، فالتف حوله
وصيفات القصر ثم حضرت أوى فاشتريت بضاعة الرجل الخبيث ، الذى
استطاع أن يومى إيماءته المتفق عليها إلى مرضعى فلما انصرف من فى القصر
من أضياف ، وذهب الخدم إلى شغلهم قادتني مرضعى التبعة من يدى
فهرت بى فى غرفة الزائرين ، حيث كانت أكواب الشراب لا تزال على
المائدة فدست منها ثلاثة فى ثيابها ثم ذهبت بى - وأنا طفل لا أدرك - إلى
المرفأ ، حيث ركبت معها فى سفينة الفينيقيين ، فأقلعوا ساعة الغروب . . .
ودفعتنا ريح عاصف طيلة ستة أيام ، وفى صبيحة اليوم السابع ، أرسلت
ديانا سهامها مسمومة إلى صدر المرأة - مرضعى - الآبقة - فأتت
لساعتها - ووضعوا جثمانها فى سآب^(٢) ثم قذفوا بها فى اليم ، طعمة غير
سائغة للأسماك ، ورحلت أنا ، لفرط حبي لها ، أبكيها وأعول من
أجلها . . . ثم دفعتهم الريح والموج إلى شاطئ إيثاكا ، حيث ابتاعنى
صاحبها العظيم ليرتيس ، وبقيت فيها إلى اليوم » وألم أوديسيوس لما قص
الراعى وتوجع ، وواساه بكلمات طيبات . . . « فلقد وصلت فى رعاية
جوف إلى سيد رحيم ورجل بر ، كفل لك الهناءة والحياة الهادئة . . . أما
أنا ، فلا أزال موكلا بفضاء الأرض أذرعه . وبلد ألبسه وآخر أقلعه »
. . . ولما ينأى طويلا فقد قطع حديثهما جبل الليل . . . أما ما كان من أمر
تليماك ورجاله ، فقد وصل ملاحوه سالمين إلى الشاطئ الإيثاكي ، وأرسوا
ثمة ، وربطوا حبالهم فى أوتاد المرفأ . ثم اجتمعوا إلى فطورهم فأكلوا

(١) بوزن سفينة ولا تشدد ، هى (الباقة أو الكولة) .

(٢) السآب والمسآب وعاء كبير للزيت أو الخل وهو الزق ولم نجد مرادفا لكلمة (برميل) المعروفة

فاستعملناه (دخ)

وشربوا . . . فلما فرغوا أمرهم تليماك أن يذهبوا هم إلى المدينة ، « . . . أما أنا ، فذاهب لبعض شأنى فى المراعى القريبة وسأعود قبيل الغروب ؛ وفى الغد ، سأسقيكم سلافة الأوبة التى تذهب عنكم وعشاء هذا السفر » ونهض تيوكلمين (الشاب الآبق) فاستأذن فى الذهاب بالبشرى إلى والدته تليماك ، ولكن تليماك قال : « كلا ياتيوكلمين ، لا أريد أن تعلم أمى بقدمى اليوم ، فابق مع رجالى هؤلاء حتى لا تقع أبصار الخطّاب المناكيد عليك ؛ وإن شئت فاذهب إلى أحدهم ، يوريماخوس ، فهو أعظمهم قدراً وأنبهم ذكراً ، وهو الذى يحاول جاهداً الزواج من والدتى ، والجلوس على عرش أبى ، فاربط حبالك بحباله . . . أوأه يا أرباب السماء ! حنانيك ياجوف ! بعداً لهذا الزواج ، وبعداً لمن يحملون به ! » وماكاد يفرغ من حديثه حتى بدا إلى يمينه بازى باشق - هو من غير ريب رسول أبوللو الأمين - وقد أمسك فى مخالبه حمامة بيضاء ، فظل يدوم ويرنق حتى إذا كان بين الفلك فى البحر وتليماك فى البر نثرخوافها^(١) فى الجو ، فنزلن بالقرب من تليماك - وهنا - تكلم تيوكلمين فقال : « تالله إنها لآية من السماء ياسيدى ، إنك ابن أعظم من فى هذه الأرض ، وإن بيتك أعرق بيوتها ، وستظفر كما ظفر آباؤك وشكره تليماك ، وتمنى لو صدقت نبوءته ، ثم أوصى به أعظم رجاله وأخلصهم له - كليتوس - فاهتزت أريحية الرجل ، ووعد أن يكون له كسيده (تليماك) حتى يثوب . . . وسلم تليماك - ومضى للقاء يومايوس ثم أقلعت السفينة بمن عليها إلى المدينة .

(١) الخوافى أكبر ريش فى جناح الطائر والمقصود هنا الريش كله .

أوديسيوس يلتقي تليماك

لقد كانت هذأة الفجر الساكنة الجميلة حينما هب يومايوس وضيغه نومها ليلبسا ثيابها ويعدا فطورهما ، وليرسل الراعى عماله وراء قطعانه النائمة فى السهل الصامت الوديع وحينما أقبل تليماخوس أهرعت إليه الكلاب تلحس ثيابه وتلعق قدميه ، وتهتز من نشوة وطرب لأنها رائته بعد طول الغياب وقد لحظ أوديسيوس ذلك فقال يتحدث إلى الراعى « يومايوس ! هذا أحد معارفك أو الأوداء إليك مقبل لشد ما تملقه الكلاب التى أوشكت من قبل أن تعقرنى ! إنها لاتنبج ولا تكشر ، بل تقعى فى إثره ذليلة ! » وما كاد يفرغ من حديثه حتى كان ولده واقفاً أمامه فى رحبة الدار . وما كاد يومايوس يلمحه ، حتى هب من مقامه مسبوها مرتبكاً ، وحتى انقذت الأكؤس التى كان يمزج فيها الخمر من يديه بيد أنه ذهب إليه يقبله ثم يقبله ، ويبالغ فى تقييله ، كأبٍ مشوق لى ولده فجأة بعد بضع سنين من مرارة البعد وألم الفراق ! ثم قال يكلمه : « أواه تليماخوس ؟ أهو أنت يا نورعيني ؟ أنت نفسك ؟ أوقد عدت ؟ تالله ما كان يخطر بخلدى أنك عائد من سفرك بعد الذى دبّروا لك ؟ هلم يا حبيبي ! تعالى يا بني ! فلقد عادت روحى من سفر سحيق برؤيتك تعالى تليماخوس فما أندر ماتزورنا هناك لطول اشتغالك بالمعاميد المناكيد ! » وقال تليماك يجيبه « أجل أيها الصديق ، غير أننى أتيت لأسألك عن أمى ! ألا تزال مخلصبة لذكرى أوديسيوس ، قائمة على عهده ، أم أنها هجرت مهاده لتقع فى شرك من شرك العناكب المحدقة بها ؟ » وأجابه الراعى فوصف له ما تلقاه الأم المحزونة من الضنى والحزن . وما تذرّف من الدموع فى جنح الليل لما يرميها به الجِدْثان ثم دخل تليماك بعد أن أخذ الراعى حربته ، فنهض أوديسيوس ليخلى لولده مقعده ، فأبى تليماك « لأن المكان فسيح ، ولأن يومايوس يستطيع أن يعد لنا مقعداً آخر فوالله

لتجلس أيها اللاجئ الكريم؟». وهياً الراعى لسيدته مقعداً من الحشائش الغضة والحلفاء الرطبة جعل عليها فروة كبيرة مما عنده ؛ وجلس تلياًك . . . وأحضر يومايوس فطوره فى أطباق من أطباق أمس وشيئاً من الخبز والخمر ؛ ونشر الصفحات على الخوان أمام مولاه ، وأخذ الثلاثة يلتهمونها أكلة مريئة هائلة . . . حتى إذا فرغوا ، توجه تلياًك بالحديث إلى راعيه فقال : « من ضيفك يا أبتاه ؟ ومتى وصل إلى إيثاكا وكيف ؟ وأى الملاحين حملوه إلى شاطئنا ». قال الراعى : « والله يابنى ما أستطيع أن أخفى عنك ما قال ؛ فهو يدعى أنه من نسل الأماثل الأبحاد من أمراء كريت ، وأنه طوّف فى الآفاق ، وسافر فى البلاد ورأى من المدن مالا عين رأت . . . وهو يقول إن فلماً قبرسيا قد حمّله إلى شاطئنا قبل أن تحمله رجلاه إلى كوخى هذا . . . ولكن . . . لم هذا ؟ ولم أتولى أنا الإجابة ؟ إنه أمامك وأنا أدع أمره لك ، فاصنع به ما تشاء ؛ إنه لائذ بك ، قاصد بابك ، وأحسب أن له حاجة عندك ! » وبدأ الألم فى محيا الشاب فأجاب : تالله لقد آلمنى حديثك أيها الأب يومايوس ! أنت تجعله لائذاً بى قاصداً بابى ، وأنت تعرف من حالى ما تعرف ، وتعلم أننى مُرّراً بهذه الطغمة ، مشغول بوالدى التى لا أستطيع أن أدفع عنها إصر هؤلاء الأنجاس المناكيد ، الذين طال لبّهم حولها ، وتوقّعهم بسببها ، حتى لأخشى أن تضيق بهم فتختار مرغمة أفضلهم بعلاها ، أو أكثرهم عطاء وأوسعهم ثراء . . . بيد أننى أوثر أن أمنحه دثاراً وصداراً ، ونعلين ، وسيفاً جرّازاً ، ثم أرسله إلى أى أقاليم العالم شاء ، فى حمايتى . . . وأن أحبّ ، فليبق فى ضيافتك أنت ، وسأرسل إليه ما هو حسبه من طعام وشراب خشية أن يرهقك ، أو أن تضيق به . . . أما أن يصحبنى إلى القصر الذى تعلم من أمره ما لا يعلم ، فذاك مالا أرضاه له . . . فقد يغمزه أحد بكلمة فيجرّحه ، وأجرّح أنا بسببه ، وأنت لا يحنى عليك أننى صغير لا أستطيع مهما أوتيت من الشجاعة أن أرد عادية الأوغاد » ، وتولى أوديسيوس الإجابة فقال : « أوّه أيها الحبيب الطيب القلب ! لشد ما تتمزق نياط قلبى لما سمعت من أمر هؤلاء

الخطاب الأشقياء الذين يستبيحون منزل قتي كريم مثلك ! ولكن قل لي ،
إذا أذنت أن أتكلم في هذا الشأن : هل عن رضى منك لصقوا بمنزلك فما
يريمون ^(١) ؟ أم برغمك أيها العزيز ؟ اليس لك إخوة يسندونك ويشدون
أزرك فطردهم من بيتك ؟ أواه لوعاد لي شباني الآن أواه ! وآه لو عاد
الآن أوديسيوس ؟ تالله لو أننى في حالك هذه لآثرت أن أمتشق سيفي في
وجوههم فلما أن أظهر بيتي منهم ، وإما أن أخرج قتيلا بينهم فلا تقع عيني
على ما يصنعون ، ولا أرى إلى عيَّتهم وعيَّتهم بكل ما في منزل أبى من خير
ومير ^(٢) ، السنين الطوال ! » فقال تليماك : ليس سرّاً أيها اللاجئ الكريم ما
ببنى وبين قومي ، وليس منهم من يضر لي عداوة أو يطوى جوائحه لي على
حقد . . . أما الإخوة والأشقاء فليس في أسرتنا من رزق هذه النعمة ، بل
هذا دأب عائلتنا منذ القدم ؛ ذلك أرسّياس لم ينجب غير ليرتيس ولم
ينجب ليرتيس غير أوديسيوس ، وهذا لم ينجب غيرى . . . أنا . . . هذا
المرزأ المحزون الموجه القلب . . . من أجل ذلك طمع هؤلاء الطامعون فينا
وتكالبوا على بيتنا من كل فج ، فأقبلوا من ساموس ودلشيوم وزاكتوس
وأطراف إيثاكا ، ومن الجزائر الكثيرة المنتثرة في هذا البحر . . . كل
يرغب في أن تكون أُمى له من دون العالمين زوجة برغمها ، فهم مقيمون
لايريمون ، آكلين ناعمين ، يستنفدون غلة ما ترك أوديسيوس ، آتين على
كل ما في بيته وخزائنه ، ويوشكون أن يأتوا على أنا الآخر ! » ثم أمر
يومايوس أن يذهب إلى القصر فيخبر أمه بعودته سالماً من بيلوس ؛ فذكره
يومايوس بجده الضعيف الشيخ الذى امتنع عن الأكل والشراب منذ أن
رحل تليماك يسائل عن أبيه . . . وذلك مما أضواه من الهم ، واستأذنه في
أن يمر عليه فيخبره بعودة مولاه حتى يطمئن هو الآخر . ولكن تليماك أمره
بأن يذهب من فوره إلى القصر فيخبر والدته . . . وانطلق يومايوس . . .
وكانت مینرفا تنتظر اذهابه لتبدو لأوديسيوس في صورة حسناء ذات وقار

(١) ينصرفون

(٢) الميراث

وحسن سمت ، وقد أخذت الكلاب بروعة مرآها فتككبكت في أحد أركان الحظيرة ، وراحت تقوق وتهر (١) مما شدها من منظر مینرقا ، وقد لفت فعلها أوديسيوس فهب مسرعا إلى ربة الحكمة التي قالت له : الآن ينبغي لك أن تكشف نفسك لولدك فتقفه على حقيقة الأمر ، ثم تذهب معه إلى المدينة وفي قبضتك الموت الزؤام تُجرِّعه أصاباً | ومحموماً (٢) للعشاق . وسأكون دائما معك ، وسأشرف على المعركة بنفسى » ولمسته بعصاها السحرية فارتد إلى صورته الحقيقية ، وعاد إلى الكوخ في حلتة الضافية التي كانت عليه من قبل . . . فلما رآه تلياك شده وفرق (٣) وقال له : « أيها النازح الغريب ماذا أصابك ؟ لقد تبدلت أيما تبدل ! خبرنى أرجوك وأتوسل إليك ، أنت إله كريم فنعقلك القرابين ونذبح من أجلك الأضاحى ؟ » قال أوديسيوس : « ليفرخ روعك يابنى فما أنا إله ، إن أنا إلا بشر ، وإن أنا إلا أبوك الذى ذهبت تذرع الدنيا من أجله والذى بسببه غَصَصْتَ بكل هذه الآلام ، وصبرت للؤم هؤلاء الناس ! » ثم ضم إليه ولده وطفق يقبله ويذرف دموعه على خديه ! ! بيد أن تلياك لم يصدق وراح بدوره يقول : « أبى ؟ لن تكون مطلقاً أبى ! بل أنت إله تنزل من السماء ليعبث بى ، وليزيدنى شقوة وأشجاناً ! أى بشر يستطيع أن يصنع ما صنعت ، وكنت منذ لحظة عجوزاً محدودب الظهر بجعد الوجه غائر العينين ، تلوح فى مِرْقٍ وأسما ، ثم تخرج هنيئة وتعود فى هذا البدن الفينان وذاك المظهر الفتان الذى لا يكون إلا للآلهة ؟ فقال أبوه : « أى بنى أنا أوديسيوس ، ولن يرجع إليك أوديسيوس آخر سواى ! اطمئن فقد صنعت مینرقا ما رأيت بأبيك ، وما صنعته أنا بنفسى ، إنها ربة ولها القدرة على كل شئ ، ففى وسعها أن تظهر من تشاء فى صور شتى ، وليس هذا

(١) الوقوة صوت الكلاب إذا خافت والمرير صوتها إذا أنكرت شيئا

(٢) الصاب المر واليحموم الحميم المغلى الذى يقطع الأمعاء .

(٣) خاف

على أثينا ^(١) بعزيرز» وأحس تليماك ما كان يشع في كلمات ابنه من حرارة وإخلاص لا يصدران إلا عن قلب أب ، فانطلق يبادل والده عناقاً بعناق ، ودمعاً بدمع ، وقبلات بقبلات ! ثم سأله كيف عاد إلى الوطن بعد كل تلك السنين الطوال ، فقص عليه قصته باختصار ثم قال له : «ولكن حدثني أنت عن أمر أولئك الخطّاب الأوغاد بما عددهم ، وهل نستطيع كلانا أن نقف لهم فنظفر بهم ؟؟» فأجاب تليماك : «أبتاه ؟ لقد سمعت الثناء على شجاعتك وسعة حيلتك وجيل حكمتك في كل ملحمة وبكل نفع . . . ثناءً يلهج به فم الدنيا جميعاً ! بيد أنه ينبغي ألا نجازف هذه المجازفة التي لانعرف ماذا وراءها . . . إذ ماذا يصنع اثنان بعشرين ومائة من خيرة صنديد إيثاكا وما حولها ؟ الرأي أن نفكر في أنصار يشدون أزرننا ويكونون عوناً لنا» فقال أوديسيوس وهو يبتسم : «وما قولك يابني في اثنين الله - جوف العلى - ثالثهما ، وميزرقا نصيرتهما على القوم الظالمين ؟ إذا كان هذان معنا ، أفنحتاج إلى عون آخر ؟» فقال تليماك «أجل . . . تعالى جوف وجلت ميزرقا . . . إن لهما لأيدياً فوق أيدي الناس لأنها يحكان من فوق عرشهما الممرد فوق السحاب ، في الأرض وفي السماء على السواء .» وقال أبوه يزيد طمأنينة : «وسيكونان معنا في الحلبة ^(٢) حين يجدجدها . . . فإذا كان الصباح فاذهب إلى القصر واختلط بالخطاب وسيقودني راعينا الأمين إلى هناك ، متنكراً في صورة الشحاذ الفقير الذي رأيت ، فإذا فرطوا ^(٣) على فلا تأس ، حتى ولو كان فرطهم بالضرب والسباب . . . ويسرنى أن تحتمل وتصطبر ، فإذا زادوا فاصرف عني أذاهم بكلمة طيبة حتى يحكم الله بيني وبينهم حين يحين حينهم . . . واحذر أن تخبر أحداً بعودتي حتى ولا أبى . . . بل على الأخص أمك بنلوب أو هذا الراعى يومايوس . . . إذ ينبغي أن نستعين على أمرنا بالكتمان حتى نعرف أصدقاءنا

(١) أثينا هو الاسم اليوناني لميثرا .

(٢) ساحة المعركة .

(٣) ساء أدهم .

ونخبّر أعداءنا ! » وطمأنه تليماك وأكد له كل شيء . . . ثم وصل يومايوس إلى بنلوب فأخبرها بعودة تليماك ، وذاع النبأ بين الخطاطب فذعروا ، لفشل مؤامرتهم ضده ، وانتشروا خارج القصر ، واعتزموا أن يبعثوا نفرًا منهم بهذا النبأ إلى الطغمة التي ذهبت تتربص بالفق لتغتاله إذ هو عائد من بيلوس . . . ثم اجتمعوا يمكرون السيئات ، ويدبرون قتل تليماك حين تتيح فرصة أخرى . وكان ميدون قريباً منهم فاسترق سمعهم وطار به إلى بنلوب التي هالها ما مكروا وما دبوا ، فذهبت في جميع وصفاتها إلى رحبة القصر ، حيث اجتمع أعداؤها إلى شياطينهم ، فصاحت بزعيمهم أنطونيوس من وراء حجابها قائلة : « أنطونيوس تبت يدك يا ألام الناس ! أنت يا من يدعونك التقى الصالح وأنت أسفل مما يظنون طوية وأخبث سريرة ! كيف حدثتك نفسك بهذا التدبير السيئ فترسم لأشراك قتل ولدى الذى لم يعد لى فى الحياة رجاء غيره ؟ لأنه ضعيف بنفسه ؟ ألا فاعلم أنه قوى بالله الذى ينتقم لعباده من الظالمين ! أيها اللئيم أبعث هذا تجزى جميل أوديسيوس الذى حال مرة بين أهلك وبين أعدائه معرضاً نفسه للتهلكة ، ولولاه لظفروا به ، ولولا أن قتل منهم من قتل وصرع من صرع لعجلت روحه إلى نيران هيدز وبئس القرار ؟ أفلم يكفك ما تأكل بغير حق من زاده ، وتعبت غير عابئ بعتاده ، فترسم لأشراك غيلة ابنه ؟ » .

وانبرى يوريماخوس يهذى من ثورتها ويطمئننها أن أحداً من العالمين لا يستطيع أن ينال تليماك بأذى ما دام حياً يدب على قدمين ... وكان يتكلم برغم ما كان ينطوى عليه قلبه ... لأنه كان من أكبر المتآمرين على حياة ابنها العزيز الحبيب ... ! وبعد أن توارت أورورا عاد الراعى إلى حظائره يدب على عكازه ، وكانت مينرفا قد لمست أوديسيوس بعصاها السحرية فعاد إلى صورة الفقير الشحاذ وعادت إليه مِرْقه وأسماه ، فوجد سيده وضيغه الفقير يعدان عشاءهما . ولما لمح تليماك قال له « ما وراءك يا يومايوس الصالح ؟ أعلمت عن الطغمة التي تأخرت في ساموس تتربص

بى شيئاً !» فأجابه الراعى . «تالله لا علم لى بشيء يا مولاي ، فأنا لم أنتظر
طويلا فى المدينة لأتسقط الأنباء ، لأنك أمرتنى أن أرتد على عجل ، بيد
أننى لمحت مركبا يطوى البحر إذ أنا عائد ، ويدخل المرفأ ، وفيه من العدة
والعدد ما يهر النظر ويخطف البصر ، وأحسب أنهم هم الأمراء الذين تعنى ،
غير أننى لا أجزم بهذا » .

ونظر تليماك إلى والده مبتسما ، محاذراً أن ينتبه الراعى إلى شىء .

أوديسيوس في قصر

ونصّرت أورورا جبين المشرق بالورد ، وخضبته بالشفق ، فهب
تليماخوس من نومه الهائئ الهادئ الموشى بالأحلام ، فلبس وإنّاعل ،
وأخترط سيفه ثم قال لراعيه . « أيها الأب الصديق ، إني متوجه إلى المدينة
لألقى أُمى ، فأكبر الظن أنها لن يرقأ لها دمع ولن تخفّت لها آهة حتى
ترانى . . . أما هذا اللاجئ . . . فرأى أن ينطلق إلى المدينة فليسأل الناس
وليطرق الأبواب ، ولن يعدم إذا تكفّفهم أن ينال رزقه ويحصل على لقّات
يتبلّغ بها . . . إن لدى من المتاعب والمشاق ما يشغلنى عن كل جواب
آفاق . . . إمض به إلى المدينة إذن ؛ فإذا آلمه هذا ، فهو حر . . . إني رجل
لأعبا أن أقول الحق ؟ » فنفض أوديسيوس ليقول ؛ « سيدى ! إني لم أبغ
أن أثلبث هنا ، فليس لشحاذ فقير مثلى أن يلتمس رزقه فى الحقول
والغيطان ! بل إني منطلق إلى المدينة ولست مقعداً أوضعفاناً فلا أقوى على
عمل يؤجرنى عليه أحد أمرائها . . . تفضل أنت فاذهب لطيتك^(١) ،
وسأمضى أنا مع خادملك حين تتمتع^(٢) الشمس قليلا ، فأنا كما ترى رجل
شيخ ، وأخشى أن يقتلنى برد الصباح وصقيعه ، وليس ما يحفظنى منها إلا
ما ترى من مزق مضى أصلها وبقي رقعها ! » . وانطلق تليماك فبلغ القصر ،
ولقى أول من لقي مرضعه يوريكليا ، حيث كانت وأترابها ينشرون فراء على
كراسى وحالات مبعثرة فى الردهة . . . فلما رآته عجلت إليه ورحبت به
وسلمت عليه ، وانطلقت الدموع من عينيها فانعقد لسانها وانحبس نطقها ،
ثم اجتمع الجوارى يقبلن تليماك ويحدقن به حتى لفتن نظر الأم
المعذبة المحزونة المطلة من إحدى شرفات القصر ، فأهرعت من عل
وأخذت فى حضنها المحب الرحيم أعز الأبناء ، وأمطرت جبينه وخديه

(١) لحاجتك أو لشأنك

(٢) ترتفع

بالدموع والقبل ، ثم جعلت تقول له : « أو قد عدت إلى الوطن يا نور
عيني ! تليماك ! تالله لقد وقر في قلبي أنني لن أراك بعد إذ أبحرت إلى بيلوس
برغمي ، وعلى غير علم مني ، لتسقط أنباء أبيك . . . ولكن . . . خبرني
يا بني ماذا عساك سمعت . » فقال الفتى : « أماه ! لم تعودين بذاكرتي إلى
عبوس الحياة وقد أفلتت من الموت ؟ أولى لك ثم أولى أن تضنى عليك من
أفخر أثوابك ، ثم تصلى للآلهة أن تهيئ لنا يوم انتقام عادل لا يبقى ولا يذر
بيد أنه ينبغي أن أذهب الآن لألقى ضيفا كريما عزيزاً جداً على - عزيزاً جداً
على يا أماه ! - حضر معي في سفيني أمس ، وقد أرسلته مع من يُضَيِّفه
عني حتى أعود فأضيفه أنا نفسي » وذهبت بنلوب فصلت طويلا للآلهة ،
وانطلقت تليماك فتلى نيوكلمنوس وعاد معه إلى القصر ، وجلسا يتحدثان ،
بينما أحضر أحد الخدم مائدة حافلة بألوان الطعام وأطيب صنوف الشراب ،
فوضعا أمامهما . . . وأقبلت بنلوب فجعلت لدى الباب تنسج ثوبها الذي
لا ينتهي . فلما فرغا من طعامهما أقبلت فقالت تخاطب تليماخوس : « يبدو لي
أنك لن تقص على الآن ما سمعت من أنباء أبيك يا تليماخوس ، وأوتر إذن
أن أصعد فأضطجع في فراشي الذي أبلله دائماً بدموعي منذ فارق
أوديسيوس ، فإذا انصرف الأوغاد المعاميد وفرغت من شغلك بهم فاحضر
إلى لتقص علي من أنبائه . » ولكن تليماك قال : « أماه ! لم لأقص عليك
ما سمعت وما سافرت إلا لأطمئنك وأطمئن نفسي ؟ لقد سافرت إلى بيلوس
وحظيت بلقاء نسطور الذي هش لي وبش وفرح بي كأنما أنا ابنه الذي
افتقده طويلا وعاد فجأة إليه ؛ غير أنه لم يذكر لي عن أبي قليلا أو كثيراً
لعدم علمه بشيء من أنبائه ، ولذلك بعثني مع واحد من أنبائه إلى ملك
أسبرطه لأسأله عن أبي . . . وقد لقيني منلوس فأحسن لقائي وأكرم
مثنواي ، ورأيت فيمن رأيت زوجه هيلين الحسنان المفتان التي شبت بسببها
حروب طروادة ، والتي لقي من أجلها أبطال الإغريق أنكي ألوان
العذاب . . . ولمأسألني الملك فيم قدمت ، نبأته بأنباء العشاق المعاميد ،
ووصفت له ما يجرون على بيت أبي من الخراب ، فأرغى وأزبد ولعنهم أشد

اللعن ، وتوسل إلى الآلهة أن ترد إليهم أوديسيوس فيبطش بهم ، ويعيد إليهم صوابهم ثم قص على ما سمعه من أحد أرباب الماء - بروتوس - الذى أخبره أن أبى لا يزال حياً يرزق فى إحدى الجزائر النائية ، وأن عروساً من عرائس الماء تحجزه عندها فى تلك الجزيرة برغمه ، لأنها تحبه وتهواه ، وأنه لا يجد سفينة يثوب عليها إلى الوطن . . . هذا يا أماء كل ما علمته عن أبى من الملك منلوس ، وقد أذن لى فى العودة فأبت فى رعاية السماء وحفظ الآلهة . وكانت بنلوب تصغى وثورة من الحزن تجتاح نفسها ، ولظى من الوجد يفتك بقلبها . فلما فرغ تليماك ، التفت تيوكليمنوس المتنبى إلى السيدة الرؤوم فقال : « يازوج أوديسيوس أعيرنى سمعك ! إصغى إلى فسأتبأ لك ! إن ابنك هذا لم يسمع عن أبيه أى نبأ يقين . . . أما أنا ، فقد بدت لى أمارات وشهدت فى السماء علامات . . . ومحال أن تكذب علامات السماء . . . أقسم بجوف العلى رب الأرباب ، وأقسم بهذا البيت بيت أوديسيوس ، أن زوجك هنا ، وفى إيثاكا . . . وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة من أنباء الخطاب وخباياهم ، وإنه ليدبر لهم عقاباً هائلاً لن يفلت أحداً منهم ! ! » وسكت المتنبى . . . وأقبل الخطاب من لعبهم فخلعوا عباءاتهم ، ثم نشطوا إلى الشاه والخنازير فجزروا لطعامهم . . .

هذا ما كان من أمر تليماك وأمه ، وما كان من أمر العشاق ، أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد مضى فى الطريق إلى المدينة بخطى متعثرة والراعى بين يديه ، وعلى كاهله حقيبتة ، وفى يده عكازه ، وكلماً لقيهما أحد صُعر خده ، وشمخ بأنفه ، تقززاً من منظر هذا الشحاذ الفقير القدر . . . ثم أتيا إلى نبع يتفجر فى الطريق فيستقى الناس منه ، وقد بسقت من حوله أشجار الحور والسنديان ، وترقرق الماء فوق الحصباء كاللجين ^(١) يتدحرج من حيد ^(٢) أكمة هناك ، أقام الصالحون فوقها مذبحاً لعرائس الغاب حيث

(١) الحصباء الحصى واللجين سائل الفضة

(٢) جانب .

يتقدم الناس بنذورهم ويعقرون إضحياتهم . . . وقد لقياً هناك راعى ماعز الملك - ملانتيسوس - يسوق قطعاً من أسمن ما يرعى لأجل ولائم الخطاب . . . ولقد كان ملانتيسوس هذا من أذئابهم ومتملقهم . وكان يصنع كل ما يحبه إليهم ويضمن له عطفهم . فلما رأى الفقيرين وأحدهما زميل له ، انطلق يعوى ويصخب ، ويسب ويسخر ، ويغمز الرجلين غمراً شديداً موجعاً ، حتى غلا الدم في رأس أوديسيوس : « إنشملا ^(١) أيهذان المسخان ! طاعون يجتاحك ياراعى الخنازير القذر ! حقاً إن الطيور على أشكالها تقع ! كلب يقود آخر . . . إلى أين ؟ إلى حيث يلتقط فئات موائدنا . عجباً ؟ ألا تطلقه معى إلى المزارع ينظف الزرائب ويحمل العلف ويحرس الغلة ويشرب ما شاء من اللبن الجازر ^(٢) والخيض ، ويكسو عظامه المعروفة بإهاب من اللحم ؟ ولكن هيهات ! لقد بلدت طباعه فلا يصلح لعمل شريف ! وهكذا ظل الراعى الشرير يقى من هذا البذاء ، وركل أوديسيوس آخر الأمر ركلة قوية في ساقه ، فلولا ما حرص عليه الملك من كتمان أمره لحطمه بسببها ، ولمسح به ظاهر الأرض ! ولقد هاج هائج يومايوس فدعا آلهته لتنتقم لرفيقه الضعيف ، وطفق يقول : ياعرائس هذا النبع المقدس اسمعى بحق ما عقر لك أوديسيوس وباسم ماضحى أن ترديه إلى بلاده لينتقم من أمثال هذا الوغد الزنيم الذى لا يحسن إلا أن يملق أعداء مولاه ، وإلا أن يغشى رحابهم ، بينما قطعانه سائمة فى المرج لاراعى لها ولا حفيظ ! » فصاح الراعى الوقح : « هاه ! أجيبي ياعرائس دعاء كلبك الأمين ؟ أو اه لو استطيع أن أحملك فى فلك أحد هؤلاء السادة فأبيعك بيع الرقيق فى بلد سحيق ! أوديسيوس ماذا أيها البهيم ! لقد أودى أوديسيوس ولن يعود إلى الحياة قط . وبودى لو ألحق به ابنه تلياك ! ! » . . . قالها وانطلق حتى بلغ القصر وغشى مجلس الخطاب

(١) تنحيا عن الطريق

(٢) شديد الحموضة والخيض الذى استخرجت زبدته .

يُطرفهم بما حدث له مع راعي الخنازير . . . أما أوديسيوس وأمينه فقد سارا رويداً حتى أتيا بوابة القصر فلبثا عندها . . . وتناول أوديسيوس يد الراعي وقال : « يومايوس ! لا ريب أن هذه سراي الملك ، انظر ! هاهي ذى الحجرات يتلو بعضها بعضاً ، هالك الرحبة الكبرى ذات العماد وذات الأبواب . . . وإني أحس أن هناك أضيافاً اجتمعوا لوليمة ، وهذا قنار اللحم يملأ خياشيمي ، وإرنان القيثارة يجلجل في أذني » فقال يومايوس يجيبه : « أنت ذكي شديد الذكاء ! إنه هو المكان بعينه ، والآن ، هل تذهب أنت وحدك فتستعرض الأمراء ، وتعود ، أم تنتظر حتى أذهب أنا فأختطف نظرة إليهم ؟ على أنك يجب ألا تتلبث هنا فقد يراك بعضهم فيؤذيك ويطردك من هنا شر طردة » وقال أوديسيوس « بل انطلق أنت وإني منتظر هنا ، فإذا لكمني أحد أو لكزني أو ركلني ، فشدما ما أحتمل هذا وذاك ، وهل هو إلا بعض ما احتملت في حروبي الطويلة ؟ » وبينما هما يتحدثان ، إذا كلب كبير رابض يقف فجأة فيصبص بذنبه وينصب أذنيه ، ويحدق بصره في أوديسيوس ، ويظل مسحوراً ذاهلاً ! ! آه إنه الكلب العزيز آجوس الذي رباه الملك قبل أن يرحل إلى طروادة . . . لقد أهمل أمره فهو رابض هكذا في حمأة من الروث والقذر والقمل أمام بوابة القصر ، كالشاعر العجوز الذي يجترُّ ذكرياته ! ! لقد عرف صوت مولاه برغم السنين الطوال ، فبكي ، وهر ، وأرسل الدموع حراراً تسقى صدغيه ! وقد تأججت في قلبه الحيواني ثورة من الحزن الطارئ المفاجئ فلم يقو أن يزحف لمسح بلسانه قدمي مولاه . . . وقد لحظ أوديسيوس ما أصاب كلبه العزيز فبكي هو الآخر تأثراً ، وسجل هذه الآية من الوفاء للحيوان على الإنسان ! وأشاح بوجهه عن الراعي حتى لا يدرك ما بعينه من دموع ، فلما مسحها بكفه قال يحدث يومايوس : « أليس عجيباً ومؤلماً معاً يا صديقي أن يتركوا هذا الكلب الذي تبدو عليه سيماء النبل فوق هذه الكومة من الروث ؟ ألا يكون أفعده الضعف عن متابعة الصيد ؟ وقد يكون إبقاؤهم عليه من أجل منظره وحسن سمته ! ؟ » فأجاب الراعي « أوه بلى أيها

الرفيق ! أما والله لو شهدته في إثر مولاه أوديسيوس لعجبت لعظم قوته
 وشدة جبروته ! أبداً لم يخلق الله وقتئذ كلباً أتبع لصيد ، أو أقوى حاسة شم
 منه ، وأبداً لم يكن عندنا كلب كآرجس هذا الرابض يساقط نفسه
 أنفساً ! ! إنه يبكي مولاه الذي قضى وتركه من ورائه لإهمال الوصيفات
 وقلة اكتراثهن . . . أما عبيد هذا القصر فهم كالوصيفات حذوك النعل
 بالنعل . فهم لا ينشطون لعمل كما ينشطون وسيدهم بينهم ، ثم هم قد
 فقدوا بالعبودية وذلة الرق نصف آدميتهم ورجولتهم ! ! ثم مضى
 أوديسيوس نحو صديقه وخذن صباه ، فبكى وذرف دموعه ، وكذلك فعل
 الكلب . . ، حتى مات . ولكن بعد أن رأى سيده تارة أخرى ! !

ولمح تليماك راعيه فأوماً إليه ، وأخذته جانباً ، ثم أمده بنصيب جزيل
 من طعام الوليمة . . . وبعد لحظات أقبل أوديسيوس في صورة الشحاذ
 الفقير ، وجلس على الأرض ، فأرسل إليه ولده شيئاً من اللحم والخبز مع
 يومايوس ، وأسر إليه أن يرسله بين الأمراء يتكفف ، وبالأحرى ليتعرف ؛
 فلما فرغ من طعامه نهض فسار بينهم يسأل هذا ويخدق فيه ، وينصرف إلى
 ذاك ويحججه (١) ويمد يده من أجل لقمة كما يصنع الشحاذون ، وقد رثا
 له كثيرون فأمدوه بلقبات ومضغ من اللحم ، إلا أنطونيوس فقد استهزأ به
 وبمن أحسن من الأمراء إليه ، وغيرهم بأنهم يتصدقون بما ليس لهم ، ثم
 هاج وماج ، ورفع كرسيّاً أو شك أن يحطم به رأس أوديسيوس وأمره أن
 ينصرف فلا يعكر عليهم صفوهم أكثر مما فعل ؟ ! ولكن الكرسي صدع
 كتف الملك ، وأعنى رأسه : ووقف أوديسيوس كالصخرة لا يتحرك ولا
 ينبس ببنت شفة . . . ولكن ألف ألف فكرة سوداء كانت تكظ فؤاده
 وترحم تفكيره . . . ثم مضى فجلس حيث كان من قبل ، وهتف
 بالخطاب في صوت جهورى فقال : « سادتي الأمراء اسمعوا ! تالله لو أنها
 ضربة في حرب بين كفتين لما حملت لها موجدة في نفسى . . . ولكن
 أنطونيوس رأى من سلطان الجوع والضعف ما جرأه وأثار نحيزته (٢) . . .

(٢) طبيعته .

(١) يرمقه بنظرة خاطفة

وأنا مع ذلك أترك جزاءه لله ، وأضرع إليه جل ثناؤه أن يقبضه قبل أن تزف إليه عروسه ! وكأنما خجل الخطاب مما فعل أنطونيوس فجعلوا يلومونه ويتلاومون فيما بينهم . قال قائلهم : « من يدري ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد آلهة السماء جاء ليلونا . . . والويل لك يا أنطونيوس إذا صدق حدسنا . . . ألا تعلم أنهم طالما يتزلون فيغشون مدننا في صور الشحاذين ليروا بأعينهم ما نأفك وما نمين ^(١) ؟ » ولم يبال بهم ولم يأبه لما قالوا . . . وكان تليماخوس يتميز من الغيظ ، ويُثِيرُ في نفسه أوجع الألم لما نال أباه من الضرب ، بيد أنه غلب غضبه ، وحبس في أعماقه ، كما حبس في عينيه وابلا من الدموع . . . وكانت بنلوب تطلع من شرفتها وترى ما حل بالرجل من إيذاء ، فتهتفت بيومايوس أن يرسله إليها كيما تسأله عن أوديسيوس ، لما يبدو عليه من أثر السفر ووجوب الآفاق . قال الراعي : « أجل يامولاتي ، إنه رجل من كريت ، وقد خاض ألف مكروه قبل أن تحمله الصدفة إلى بلادنا ، ثم هو يحدث ساحر الحديث طلي الرواية ، حتى ليخلب سمع من يصغى إليه بأشد مما يستطيع منشد مطرب أن يفعل ! وكلما طال حديثه لذت طلاوته ، وكثرت حلاوته ، فلا تملة أذنان ، ولا يضيق به مصغ إليه . . . وأعجب ما ذكره مرة لى أنه رأى أوديسيوس وعرفه في أبيروس . . . بل يزيد فيؤكد أن مولاي عائد أدراجه إلينا ، حاملا معه كنوزاً من الذهب ، وأذخارا لم تر العين مثلها ولم تخطر على قلب بشر ! ! » فتهتدت بنلوب وقالت : « انطلق إذن فأحضره ، ودعه يحدثني بما روى وجهاً لوجه ، وسأهبه صداراً ودثاراً إذا توسمت في قوله الحق ، وآتست في روايته الصدق »

وادعى أوديسيوس أنه يخشى أن يجوز وسط الأمراء مرة أخرى ، وفضل أن يلتقى الملكة فيتحدث إليها إذا جَنَّ الليل بجانب المدفأة ووافقت الملكة ، وصوّبت رأى الرجل ؛ وكان الوقت أصيلاً فقصد الراعي إلى تليماك واستأذنه في الانصراف إلى حظائره ، فأذن له ولكن بعد أن أمره بالتزود لعشائه ، ففعل يومايوس ، ثم مضى ليسهر على خنازيره .

(١) يأفك يصع الإفك ويمين أى يكذب .

أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ

وبينما كان أوديسيوس جالساً يزددرد طعامه إذا شحاذ ضخم الجسم شائه المنظر يدخل فجأة ، فيلتفت إليه جمهور العشاق . ويعرفون فيه الفقير إيروس ، المشهور بنهمه الذى لا يوصف ، وبإقباله الشديد على أردأ ألوان الشراب . . . وكانت له عليهم دالة ، وليس فى الجزيرة كلها من يجهره . . . فلما لمح أوديسيوس جالساً يتبلغ بلقماته نظر إليه نظرات المحنق وقال له : « انحرف عن الباب أيها العجوز القذر وإلا جررتك من عقيبك . . . ولو أننى أترفع عن مقاومة أمثالك ! ! » وحده أوديسيوس وقال : « أيها الصديق إني ما آذيتك ، وإن فى المكان لمتسعا لكلينا . . . أرجو ألا تثيرنى أكثر مما فعلت وإلا فلا يغرنك هرمى وتقدم سنى ، فتالله لأرينك كيف أضربك ضرباً تقول منه الهامة أسقونى ! إجنح للسلم هو خير لك ! وأصغ إلى نصحتى ، وإلا فلن تدخل قصر الملك أوديسيوس بعد اليوم . . . » وغيظ الشحاذ إيروس وقال : « اسمعوا ماذا يهرف هذا الشره المخرف ! ألا ما أشبهه بزوجة حمقاء تثرثر أمام كانون ! تالله ليخيل إلى أن أنقض عليه فأنفض ثنياه ! هلم أيها الرجل ! استعد للقاء ، وليشهد السادة كيف أمثل بك ؟ » وقهقه أنطونيوس وقال . « أيها الأصدقاء اشهدوا ! إن إيروس يتحدى هذا الفقير ، والفقير بدوره يتحداه ، فهلم نجعل حولها حلقة لنرى إلى هذا العراك المضحك ! » وسكت أنطونيوس ، وتكبكب الأمراء حول الرجلين صاحكين عابثين ، ثم التفت إليهما أنطونيوس وقال : « اسمعوا إذن ؛ ههنا كعكات ليس أجود منها . . . وإنها خالصة لمن يتفوق منكما على قرنه^(١) . . . ولن فاز أجرٌ عندنا عظيم . . . إنه سيجلس معنا فى جميع ولائتنا منذ غد ، ولن ندع أحداً من

(١) خصمه

الشحاذين يضايقنا بعد هذا اليوم » وتخابث أوديسيوس وقال : « ياسادة ! من الظلم أن يتبارى رجل عجوز ضعيف مثلى مع هذا الهولة . . . ولكن الجوع يدفعنى إلى البطش به مع ذاك . . . بيد أن لى رجاء ألا يساعده أحد على ، فيلكنى مثلاً أو يلكرنى حينها أكون مشغولاً به » فقاسموه ألا يفعلوا وتقدم تليماخوس ابنه فقال : « أيها الرجل ، إذا وسعك أن تناضل هذا الزميل فلن تخشى من هؤلاء رهقاً . . . إني مضيفك ، وليس أحب إلى أنطونيوس ويوريماخوس من أن يشهدا هذا اللقاء الفذ بينكما ! » ثم إن أوديسيوس شمر عن ساعديه وفخذه ، وكشف قليلاً عن صدره ، عامداً ليظهر الأمراء على عضله المكتنز وقوته الخارقة . . . وقد صدق حدسه ، فقد بُهت العشاق ونظر بعضهم إلى بعض يقولون : « واعجباً ! أى عضل وأى ساعدين وفخدين يخفى هذا الرجل تحت أسنانه ومِرَقه البالية ؟ مسكين إيروس ! ماذا يبقى منه بعد هذا اللقاء ؟ ! » أما إيروس فقد انتفض واقشعرت بدنه مما عراه من الذعر ، ولكن الخدم لم يتركوا له أن يفر من اللقاء الذى دعا هو إليه ، بل شمرُوا له عن ساعديه وفخذه كما فعل غريمه ، ثم جروه إلى الحلقة برغمه . . . وود أوديسيوس أن يبطش بالرجل فيحطمه بأول لكمة ، غير أنه آثر ألا يفعل خشية أن يكشف العشاق من هو . . . فلما امتدت الأيدي تصنع الدفاع وأقبل وأدبر . . . وكر وفر ، ثم أهوى على أذن الرجل بضربة سحقت عظامه ، وطرحته على الأرض ولبث المسكين لا يبدى حراكاً من هول ما حل به ، بيد أن أوديسيوس جره من عقبيه إلى ساحة القصر ، ثم عرج به نحو جدار كبير حيث سنده إليه ، وجعل فى يده عكازه وقال : « إلبث هنا ولا تغش منازل الملوك بعد ، وذُذْ بعضاك الخنازير السائبة ، فذلك خير من أن تصيب بها الغرباء أمثالى . . . فإن عدت إلى مثل حماقتك فلن يصيبك إلا شر مما رأيت ! » وتركه وانثنى إلى حيث كان ، فوجد العشاق يضحكون حتى يكاد يقتلهم الضحك . . . وهتفوا له ثم قالوا : « حقق الله آمالك ، وأنالك أمانيك أيها الغريب اللاجئ ، بما خلصتنا من هذا الشحاذ النهم الملحاح ! » وسمع أوديسيوس

دعاءهم وابتهل إلى الآلهة أن تستجيب ! ! ثم وضع أنطونيوس بين يديه
 كعكة كبيرة ، وزوده أمفينوموس بنخبز وخمر صبها له في كأس كبيرة من
 ذهب ، ودعا له بنخير . وأنس فيه أوديسيوس طيبة ودماثة خلق فقال له :
 « هيه ! هلم أيها العزيز أحضرك نصيحتي وأحدثك عن تجاربي . . . ألا ما
 أضعف الإنسان ! إنه إذا ما مسه ضر دعا الله فإذا كشف عنه الضر فإذا هو
 مقتصد ناءً بجانبه كأن لم يمسه ضر . . . فأنا مثلاً لقد كنت في عنفوان
 صباى أعيث في الأرض مغترأً بقوتي وفتوتى ، حتى أسقط الكبر في يدي
 ففتتُ إلى أمر السماء ، ولكن بعد أن كتب على الشقاء ، وهكذا أولئك
 الأمراء الذين غرهم الأمانى وأضلهم جبروتهم فأقاموا بهذا القصر غارين
 آمنين لا يظنون أن له صاحباً قد يفاجئهم بعودته فيستأصل شأقتهم ويذهب
 برحمتهم . . . وإني والله أيها السيد لأرى أنه عائد ليس من هذا بد ، وأنه
 عائد قريباً فتقبل أنت نصيحتي ولا تقم معهم ، بل انطلق إلى بيتك وأهلك
 ولا تستأن^(١) حتى يدهمك معهم فيحطمكم أجمعين . . . » وشرب
 أوديسيوس ، ودفع الكأس إلى الأمير الشاب الذي بدت عليه أمارات الهم
 مما قال الرجل ، ولكن . . . وأأسفاه ! لقد كتب عليه الشقاء ، فلم يصغ
 لنصيحة أوديسيوس .

* . . *

وبدا لبلوب أن تذهب في بعض وصفاتها فتخطر بين الخطاب
 لبروها ، ولترى ماذا يكون . . . وقبل أن تفعل ألقت عليها ميزقاً نعاساً
 وأمنةً ، وبدت لها في الرؤيا كأنما تعطيها لُهي عجيبة ؛ ثم إن الربة أضفت
 عليها رواء كرواء الآلهة ، ونصرتها بنصرة الشباب والجمال ، فربا جسمها
 واستطال ، وزانت له لعة عاجية وسناء . . . فلما هبت من نومها ، فركت
 عينيها متعجبة ، وشدهتها تلك الغفوة الطارئة التي جلبت لها السعادة في
 دنيا من الهموم . . . وتمنت لو أراحها الموت من حياة اتصلت فيها أشجانها

(١) ولا تتأخر

وباعدت بينها وبين إلفها بمفاوز من الآلام والأحزان . . . وانطلقت في سرب من وصفاتها فأشرفت على العشاق وقد ضربت بنجارها الشف على وجهها المتألق الناصع ، فذهل الملاء ، وزاغت أبصارهم ، وأحسوا أن شيئاً يخلع قلوبهم ، فما منهم إلا مَنْ تمنى أن يكون صاحب هذا الجمال الرائع والحسن الباهر ، والفتنة المتقدمة . . . ونهض يوريماخوس فقال مخاطبها : « يا ابنة إيكاروس بوركت ! تالله لورآك كل من في هيلاس لاجتمعت حولك قلوب غيرنا من العاشقين ، ولأقبلوا من كل فج فازدحموا حولك ههنا . . . في ذلك القصر العتيد ! » فقالت بنلوب : « يوريماخوس ! تالله لقد ذهب الآلهة بجألى الذى تصف يوم رحل عني زوجي أوديسيوس فيمن رحل إلى طروادة . . . وما أنس لا أنس ما قال لى وهو قابض على يميني يودعني : « زوجتي إن أكثر من ترين من هذا الجيش لن يعودوا إلى ديارهم . . . ففي طروادة محاربون صناديد ، وملاعبو أسنة لا يشق لهم غبار ، وذادة ورماء ! وإنى لأدرى ماذا يكون من أمرى هنالك ، ولذا ، أكل إليك كل ما أودع ورائى ، وإنى موصيك أول ما أوصيك بأبى وأمى ، فاعنى بهما كأحسن ما كنت تعين وولدهما معك ، فإذا شب ولدى وترعرع ، فلك أن تتركى هذا القصر إن شئت ، وتزوجى ممن تختارين من الأكفاء والأنداد » هذا وإنى أرى أن هذا اليوم العصيب قد حان ! ولكن وأأسفاه ! إنكم اجتمعتم هنا لتأكلوا وتشربوا وتعيشوا وتعبثوا بكل ما ترك صاحب القصر . . . وكنت أظنكم تقيمون في منازلكم وترسلون إلى هداياكم لتكبروا عندي ولا تهزل مكانتكم لدى . . . ألا ساء ما تزررون » .

وتبسم أوديسيوس من قولها ، ووثق من إخلاصها ، وعجب من شدة ما سحرت ألباب الخطّاب ومما أخذتهم به من حزم . . . أما أنطونيوس فقد أجابها بقوله : « أما هدايانا يا ابنة إيكاريوس فلا أحب إلينا من تقديمها إليك . . . على أننا لن نريم ^(١) عن هذا القصر حتى تختارى لنفسك بعلاً

(١) لن نصرف .

يكون كفوًّا لك» وأيد الخطاب ما قال قائلهم ، فنهضوا ليحضرُوا هداياهم ، وسرعان ما عادوا يحملونها . . . وتقدموا بها إلى بنلوب ، فهذا ثوب ثمين من قاقم ^(١) موشى بالذهب تزينه اثنا عشر زراراً ذهبياً . . . وهذا عقدٌ حُلِيت خرزاته بقطع من الكهرمان الحر ، وتلك أساور من ذهب وُشِنُوف كثيرة وأقراط ^(٢) . وعادت بنلوب ومن خلفها وصيفاتها يحملن الهدايا واللهي . . . وأخذ الخطاب كدأبهم في القصف واللهو والعبث والغناء . . . حتى أقبل الليل ، فقدم الندامى بمجامر من نحاس بها وقود يشتعل ، وطفقن يلقين فيها من الند والرند والعود ذى العرف . وطفق البخور يعبق في أرجاء البهو الكبير . . . وهنا . . . نهض أوديسيوس وتوجه إلى البنات يقول : أيها العذارى أولى بكن ثم أولى بكن أن تذهبن إلى سيدتكن فتسلينها وتواسيها ، ، وسأقوم بالنيابة عنكن على هذه النار حتى ينصرف الخطاب . . . ولن يثودنى أن أقوم عليها حتى مطلع الفجر ، ولن أضيق بجمعهم معها عبثوا بى ، فأنا رجل ذو تجارب . فتضحكن به ، وقالت ميلانتو التى هى أجملهن وأقلهن احتشاماً وهى تعبت به : ماذا أصابك الليلة أيهذا النازح الغريب ؟ انطلق إلى حداد المدينة فم في دكانه ، فهذا خير لك من أن تسهر ههنا وتثرثر . . . هل غاب صوابك يا شيخ لأنك ظفرت بالشحاذ إيروس ؟ أربع ^(٣) عليك ، فقد تبثليك السماء بمن يبطش بك كما بطشت به ، ويطردك من هنا ! . . . ورشقها أوديسيوس بعينه وقال : أسكتى ياهناه ^(٤) والله لأحدثن بما حدثت الأمير تليماخوس فليقطعن لسانك ، وليمزقن جسدك ! ، ، وذعر العذارى وولين هاربات ، وقام أوديسيوس على النار وجعل يلحظ العشاق وفي قلبه ضرام ، ومافتئ يفكر في ألف خطة للانتقام منهم والبطش بهم . . . ولم تشأ مينرفا أن تنهى

(١) القاقم نوع من أنواع ثياب العراء

(٢) الشنوف والأقراط (الحلقان) لأدر المرأة

(٣) ضع تلو .

(٤) الهناء الداهية .

هذا الشقاء الذى ضربته على أوديسيوس ، بل تركته يستهزئ به الخطاب ، ويسخر منه يوريماخوس ، فيضحك الخطاب إذ يقول : « ما أظن إلا أن الآلهة قد أرسلت إلينا هذا الرجل ليكون حامل مشاعلنا وحامى قبسنا . . . انظروا إلى رأسه النحاسى ، أليس يصلح أن يكون مشعلا يضى لنا ؟ » ثم التفت إلى أوديسيوس وهو يقول : « إذا استأجرتك لتسوّج ^(١) مزرعة لى بعيدة من هنا وتغرس بها أشجاراً ، على أن أطعمك وأكسوك وأنقذك مالا ، فإنك ترضى ؟ ولكن لا . . . إني لأظنك تنسرق منها طواعية لغرائذك وخبث جِبَلَّتْكَ فتنتلق إلى المدينة لتستجدى وتتكفف . . . » .

وتخابث أوديسيوس وقال يجيبه : « يوريماخوس ! تالله إنه ليس أحب إلّى من أن أباريك فى فلاحه فى يوم من أيام الربيع ، حين يطول النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ، على ألا يذوق أحدنا طعاماً ولا يسيغ شرباً . . . أو أن يعهد إلى كل منها بأربعة أفدنة من أرض جبوب ^(٢) ، وثورين حنيزين ذوى خوار ، فى ذلك اليوم ، لترى أينما يصمد لحرثه ويفلح أرضه . . . بل إني لأتمنى ، إذ نحن فى هذه الأرض ، أن يدهمنا عدو بخيله ورجله ، وتكون لى درع سابغة ، وخوذة من نحاس ، ورمح فى يدى ، لترى كيف لا يحول الجوع بينى وبين أقرانى ، وكيف أضرج بدمائهم الأرض ، وأتركهم فى البرية جَزَر ^(٣) السباع وكل نسر قشعم . . . أيها اللئيم الوقح . . . والله لو أن أوديسيوس رب هذا البيت قد فجأك الآن لضاقت عليك الأرض بما رحبت . . . أنت أيها المغرور المتعاضل الذى غره أن يكون شجاعاً بين نَوَكي ^(٤) لاحول لهم ! »

وجُنَّ جنون يوريماخوس . وأخذ مُتْكَأً ثقيلاً وقذفه شطراً أوديسيوس . ولكن البطل انفتل بعيداً وسقط المتكأ على الساقى المسكين ، فخر إلى

(١) تجعل لها سياجاً أى سورا

(٢) صلبة

(٣) طعام .

(٤) حمقى .

الأرض يئن ويتوجع . . . وغيظ الخطاب أيما غيظ ؟ وعلا لغطهم ، وودوا لو يسحقون أوديسيوس ، لولا أن تقدم تليماخوس وحال بينه وبينهم وهو يقول :

« ياسادة ! إني كصاحب هذا القصر ، لا أستطيع أن أطرد الرجل منه بعد إذ آويته وضيّفته . . . والرأى أن تقطعوا سمركم هذا وتذهبوا من فوركم إلى منازلكم حتى يتصرم ^(١) الليل » . . . وأيده الأمير أمفينوس ، ووقفوا جميعاً فاحتسوا الكأس الأخيرة ثم انقلبوا إلى منازلهم . . . وفي نفس يوريماخوس من الهم ما تنوء بحمله الجبال . . .

(١) يقضى

المرضع العجوز تعرف أوديسيوس

وهكذا خلا الجو لأوديسيوس وولده ، فقال يحدث تليماك : « أى بنى : ينبغي أن نخفي أسلحة القوم فى مكان حريز . فإذا سألوك عنها فقل لهم إنك تحفظها لهم حتى لا تتأثر بالدخان والغبار وتقلبات الجو » وامثل تليماك ، ودعا المرضع العجوز يوريكليا فقال لها : أماء ليقرّ الوصيفات فى مضاجعهن حتى أنقل أسلحة أبى إلى مكان حريز فقد تراكم عليها الوسخ وأتلفها الدخان » وقالت يوريكليا معجبة : « أجل يابنى ، إنه ينبغي أن تعنى بكل ما يتعلق بأبيك وبكل ما ملكت يداك . . . ولكن قلى لى . . . من يحمل لك المصباح حتى تنقلها إلى خبزها ؟ ألا أدعوهم فيحملنه لك ! » وشكرها تليماك ، وذكر لها أن الرجل الغريب سيحملة . وأهرعت يوريكليا إلى داخل القصر ، وهب أوديسيوس وولده يحملان الخوذ والدروع والرماح ، وبدت مينرفا الكريمة تحمل بين أيديهما مصباحاً ذهبياً كان يشع سنا عجبياً ، ونوراً لم تقع عينا تليماك على مثله ، فقال لأبيه وقد أخذه العجب « أبناه ! ما هذا النور المنعكس على الجدران والعمد والقوائم والعوارض حتى ليكاد يجعلها تلتهب ! أبداً ما رأيت مثل هذا أبداً . . . لا بد يا أبى أن إلهاً معنا هنا ! » وقال أبوه : « أخزن عليك لسانك ^(١) يابنى ، واملأ قلبك بما ترى ، فإنه من نور السماء ، وهذا دأب الآلهة . . . والآن ، لتصعد أنت فلتنم ملء عينيك كى تستريح . . . أما أنا ، فباق هنا ، لأنه لا بد لى من أن أكلم أمك وخدمها » .

وانطلق تليماك إلى مخدعه ، وأقبلت بنلوب وأقبل فى إثرها سرب من خدمها فأعددن لها عرشاً ممرداً من ذهب وعاج استوت عليه وأسندت

(١) أصمت ولا تتكلم

قدميها العاجيتين إلى متكاً جميل ، فبدت كإحدى الآلهة . وجلس أوديسيوس على كرسي صغير بُثَّتْ عليه فروة غليظة ، ثم كلمته الملكة فقالت : والآن أيها الغريب الكريم قص على من أنبائك وخبرني من أنت ، ومن أى البلاد قدمت « فقال أوديسيوس : أيتها الملكة تعالى جدك^(١) واصلح حالك . . . إن لك في العالمين لذكراً يعبق كالعطر ، واسماً كريماً ليس للملك عظيم يحكم أمة عظيمة بالعدل وتجزيه بالحجة . . . إنني يامولاتي رجل كثره الزمان ، وعسفت به يد الحدثان ، فإذا سألتني ما اسمي وما بلادى ، فإنك تثيرين في أعماق ذكريات عنيفة تدمى فؤادى ، وتفجر الدموع في مآقي ، فأعفيني أيتها الملكة من ذكر ذلك ، فإنه ليحزنني أن أجلس بين يديك باكياً متصدعاً مهموماً . . . » وبدا الألم على وجهه بنبوب وقالت : « أواه أيها الغريب ما أقسى ما ذبلت حياتي وذوت زهرتي مذ رحل زوجي المحبوب إلى طروادة ، تاركاً لي الهم ، ومخلفاً لي الحسرة ! ألا ما أقسى ما يحن قلبي إليه ، ولشد ما يخفق من أجله ! لقد أسلمني بعهده ليل أليل^(٢) من الآلام ، فما أدري منذ فارق كيف أهش لضيف مسكين مثلك ، ولا كيف أبش لأحد من العالمين . . . وهؤلاء الأمراء اللؤماء الذين تكبكبوا حولي يريدون ليرغموني على اختيار أحدهم بعالي من دون أوديسيوس ، ولا أدري كيف أذودهم ، ولا أعرف السبيل لدفع أذاهم . . . لقد مكرت بهم طويلاً ، ولكنهم مكروا بي السيئات ، فلا أدري كيف أنقذ نفسي منهم ؛ وهذان أبواي يريدانني على هذا الزواج البغيض إليّ ، وهذا ابني قد شب ، وهو يضيق بخطابي ذرعاً ، وإن في صدره حرجاً منهم لأنهم يهلكون ثروته ، ويعيثون في قصره ، ويخوضون في عرض أبيه . . . ولكن... حدثني بأربابك من تكون ، ومن قومك ، وأى بلاء من الدهر شردك عن وطنك . . . تكلم أيها العزيز ولا تحزن » . وأرسل

(١) الجد العظمة .

(٢) مظلم شديد الظلام

أوديسيوس آهة عميقة ثم تكلم فزخرف حديثاً طويلاً موشى^(١) ، ولفق قصة حزينه متقنة ، وذكر للملكة أنه رجل مرزأ من جزيرة كريت كانت له نعمة وكانت له سعة من العيش ، وذكر أبويه وأهله والحياة الواسعة المخفجة التي كانا يحياها ، وذكر أنه عرف أوديسيوس أول ما عرفه حين غرقت به الفلك وقذفه الموج على الشاطئ الكريتي ، فهرول إليه وتلطف به وأخذه إلى داره حيث أكرم مثواه واحتفى به أبواه . . . ولم يكذ أوديسيوس يفرغ من حديثه حتى تفرقت الدموع في عيني بنلوب ، وانطلقت تبكى على زوجها الذي لم تدر أنه جالس إليها يحدثها ويوشى لها أطراف الكلام . وتأثر هو من بكائها فكادت عيناه تفيضان بالدمع . لولا أن ملك حاله ، وهيمن على عواطفه ، فحبس العبرات التي أوشكت تهمل بأجفان من حديد . ثم أرادت الملكة أن تمتحنه إن كان صادقاً فقالت : « وهل تذكر أيها العزيز : كان يلبس يوم لقيته ؟ تستطيع أن تصفه لى . وتصف رفاقه الذين صحبوه في هذه الرحلة المشثومة ؟ » وتخابث أوديسيوس فقال :

« مولاتى ! ليس من اليسير على شيخ مثلى أن يذكر أحداث ما قبل عشرين عاماً . . . بيد أننى سأحاول أن أرسم لك الظلال الضئيلة التي لا تزال تنطبع من صورته في رأسى . . . أذكر يامولاتى أنه كان يلتفع بثوب أرجوانى موشى بالذهب ، وقد رسم فيه بالذهب أيضاً كلب صيد معروق يحمل في يوطيله^(٢) ظيياً مرقطاً . وأذكر أننى رأيت قميصه ولمسته ، فلا أذكر أننى لمست في حياتى أنعم ولا أرق ولا أئمن . . . وكان يسعى بين يديه مشير أكبر منه جسمًا ونسًا ، ذو كتفين مستديرتين وبشرة سنجابية وشعر مفلفل . . . وكان أوديسيوس يوقره وييجله أكثر مما كان . ييجل سائر أصحابه »

وصمت أوديسيوس ، وبكت بنلوب فاستخرطت^(٣) في البكاء ثم قالت : « لشد ما كنت أرثى لك أيها الغريب النازح الجواب ، أما الآن

(١) عن ثعلب عن الأعراى أنه هم الكلب أو شمنه ولم يذكره صاحب القاموس

(٢) اشتدت

فإني أحترمك وأعطف عليك ، بل أحبك ؛ تالله لقد صنعت له هذا الثوب
بيدى ، وأنا التى وشيته بالذهب ! وأأسفاه عليك أوديسيوس ! إنك لن
تعود إلى يا حبيبى ! بُعداً ليوم نزلت فيه عن وطنك إلى هذا البلد اللعين
المشثوم . . . طروادة ! » وهش أوديسيوس وقال : « خفى عنك
يامولاتى ، ولا تتلنى قلبك بطول هذا البكاء . ثم لماذا تأسين من أوبته وقد
سمعت عنه أخباراً سارة حين كنت فى أبيروس ؟ لقد مات عنه كل
أصحابه ، ولقد غرقت سفينته فى أعماق اليم لغضب صبته الآلهة عليه ؛ بيد
أنه نجا مع ذاك . وهو الآن سليم معافى يوشك أن يصل إلى إيثاكا بخير . وأنا
لا أرسل ما أقول حديثاً ملفقاً . بل أحلف عليه وأقسم بأغلظ الأيمان أنه
سيصل إليكم فى عامكم هذا . . . بل ربما كان بينكم قبل أن يتم القمر
دورة هذا الشهر ! ! » . فتأوهت بنلوب وقالت : « ويك أيها الضيف !
تالله إن قلبى ليكذب ما تسمع أذناى ، وإنه لا يصدق أن صاحبى عائد
يوماً إلى إيثاكا . . . ولكن هلم . . . إلى سآمر وصيفانى فيغسلن قدميك
ويعطينك ثياباً وكسوة ويهيئن لك فراشاً وثيراً هنا . فإذا كان الغد فستجلس
مع تلياك على مائدة الأمراء ولن يجسر أحد منهم أن يكلمك كلمة أو أن يمد
يده إليك بأذى » وشكرها أوديسيوس وقال : « مولاتى لقد اعتدت أن
ألتحف السماء إذا نمت ، وأن أفترش الغبراء ، ولن تمسنى وصيفاتك فقد
يذعرن من خشونة قدمى . . . ولكن إذا كان فيهن واحدة مخلصه شربت
من كؤوس الزمان مثل ما شربت من محن وآلام ، فلا بأس أن تغسل لى
قدمى ، على أن تكون عجوزاً حيزبونا ! ؟ » . وسرت بنلوب وقالت
تجيبه : « أبداً ما علمت أحزم منك ولا أوفر ذكاء وعقلاً أيها الضيف
الكريم . لك ما سألت ، فإن عندنا خادماً أميناً طاعنة فى السن كانت
موكلة بمولاي أوديسيوس إذ هو طفل تغسله وتسهر عليه ، وهى التى
ستغسل لك قدميك . . . يوريكليا . . . يوريكليا . . . أقبلى فاسهرى على هذا
الرجل العجوز الذى له مثل سنك وتجاريبك . . . إن له سحنة كسحنة
أوديسيوس وسيماء كسيائه . . . اغسلى قدميه وقدمى إليه كسوة تليق

بضيف حل بيتنا » وكأنما هاجت ذكرى أوديسيوس شجون المرأة فترقق
 الدمع في عينها الملوذتين ^(١) وقالت : آه يا أوديسيوس لشد ما ينزع فؤادي
 إليك ويخفق لذكراك ! تالله لم أر رجلاً أحببت للآلهة كما أحببت وضحي لها
 كما ضحي . . . ومع ذلك فقد ناموا جميعاً عنه لم يتأذنوا برجوعه إلى وطنه !
 ومن يدري ؟ فقد تكون نسوة تعبت به كما عبت نسوة هذا القصر بهذا
 الرجل . . . هلم أيها الضيف الكريم ، لا أحب إلى من أن أغسل قدميك
 كما أمرت مولاتي . . . أوه ! ياللعجب ؟ ! لماذا ينجذب إليك قلبي
 هكذا ! يا للآلهة ! ! أبداً ما رأيت من أضياف هذا البيت العتيق أشبه
 بأوديسيوس منك صورة وصوتاً وخطراناً ^(٢) وتأثر الملك وأنشأ
 يقول : « ربما يا أماه ! لقد قال مثل ما قلت كثيرون ممن رأوني ورأوا
 أوديسيوس » وذهبت يوريكلياً فأحضرت طساً ^(٣) به ماء ؛ وانتهز
 أوديسيوس انشغالها عنه فابتعد عن الموقد . لأنه ظن أن المرأة قد ترى
 الندوب التي بقدميه ، الباقية ثمة من عضه خنزير برى كان قد بطش به في
 حادثته فتكشف ما حرص هو عليه من كتمان أمره . . . بيد أنها لمست
 الندبة ^(٤) الكبرى في ساق سيدها إذ هي تغسلها . . . وكانت الظنون قد
 ساورتها لما سمعت من صوته ، واستذكرت من صورته . فلما تحسست
 الندبة زاغ بصرها ، وحملت فجأة في وجه مولاه وسقطت يداها من غير
 وعى فانقلب الطس النحاسي محدثاً صوتاً مِرْناً مدوياً . . . وسال الماء . . .
 وانحبس الدمع والمنطق في عيني العجوز ولسانها ، ثم عاجلت المفاجأة
 السارة المحزنة في صدرها . . . وصرخت تقول : « أنت ! هو أنت ! والله
 إنك لأوديسيوس . . . لقد عرفتك . . . هذه هي الندبة التي أحدثها
 الخنزير بساقتك ! لقد لمستها بيدي ! » وأهرعت العجوز مذهولة نحو بنلوب

(١) الباررتين كاللوزتين .

(٢) اهتزازاً وعنفواناً

(٣) الطس بالفتح والپست والطة (الطشت) الذي يغسل فيه (قاموس) .

(٤) أثر الجرح القديم .

لتزف إليها البشرى الهائلة . . . ولكن مینزفا كانت أسبق منها . . . فقد سحرت عینی بنلوب وسمعها . . . وعجل أودیسیوس إلى العجوز فأطبق بكفه على فمها وقال . « یوریکلیا ! اصمتی ! أنا هو ! إن كلمة واحدة منك تقضى على ! لقد غدتی ونشأتی فی حضنك صغيراً ، فهل تكونین نكبتی وشاحذة سكينی كبيراً ، وبعد أن وصلت إليكم بعد یأس وقنوط من عودتی ؟ اصمتی ! غلیّ لسانك بسلاسل وأصفاد فلست أريد أن يعلم أحد أنني هنا . . . وإلا . . . فتالله لن أرحمك - ولو أنك مرضعی - يوم يجد الجدا ! »

وارتعدت یوریکلیا ، وقالت نجیبه : « أى بنی ! لم تكلمنی هكذا ؟ أتشك في ثباتی وحفاظی ! اطمئن یابنی ، فسأكون أصمت من الحجر الصلد ، وأستر لسرك من الحديد ! » فحدجها أودیسیوس وقال « اصمتی إذن ، ولا تفسدی تدبیرنا ، ولنتوكل جميعاً على الله ! » وذهبت فأحضرت ماء آخر ، وأخذت فی غسل رجلیه العظیمتین ، فلما فرغت ضمختها بأفخر الطیوب ، ووقفت تقلب عینیها فی مولاها بینما كان هو یربط لفائف على ندوب ساقیه . وأخذ أودیسیوس كرسيه وجلس قريباً من الموقد ألقاء بنلوب التي شرعت تحدّثه وتقول : « أيها الضیف ، ما أرى بأساً فی أن أسألك إذا كنت أبقي هنا مع ولدی أو أختار أحداً من أولئك الأمراء فيكون لی بعلا . . . على أن رؤیا رأيته لا تزال تضطرب فی خلدی ولا أعرف كيف أعبرها ذلك أنني كنت أقتنی عشرين إوزة بیضاء ، وكنت أحبها وأرعاهها بنفسی ، فرأيت فيما یرى النائم نَسراً قشعاً انقض عليها من الجوّ فافترسها جميعاً بینما كانت تأكل طعامها من الملعف الذي أعددت له . . . ولما رأى النسر شدة حزنی والتیاعی على أوزی ، وقف على نتوء قريب ثم أنشأ یكلمنی ویقول : لا تحزنی یا ابنة إیکاریوس على الأوز فإنه یمثل عشاقك الخطّاب الفسّاق . . . أما أنا فأمثل زوجك النازح الذي نسیعود من سفره فجأة فیطش بالطغمة العاتية التي استباحث قصره ، وولغت كالکلاب فی عرضه . . . ألا یا ابنة إیکاریوس اسعدی ! » واستيقظت

من نومي مسبوته ونظرت إلى إوزى لأطمئن عليه فوجدته سالماً . . . فهل . . .
تستطيع أن تعبر عن تلك الرؤيا أيها العزيز؟ .

فقال أوديسيوس : « أيتها السيدة الفاضلة . . . لقد فسر لك الرؤيا
زوجك بلسانه . . . وهي تعني غير ما قال . . . إنه قادم
وشيكاالاريب . . . وإنه حامل إلى خُطَّابك العشاق منياهم » .

وأتاقت بنلوب ثم قالت : « أبداً . . . إن هي إلا أضغاث أحلام !
إذا كان غد فلاني ذاهبة إليهم فذاكرة لهم شرطاً إن استطاعوه نالني أقواهم
فذهبت من فوري إلى بيتي ، وتركت كل هذا القصر الذي دخلته زوجة لخير
زوج ، ليكون حلماً جميلاً يزخره لي الماضي . . . وذلك أنني شارطة
عليهم أن يحملوا قوس أوديسيوس فيصيبوا بها غرضاً يخترق السهم إليه اثني
عشر (دنجلا)^(١) فإن أصابه أحدهم فلاني له » . وهش أوديسيوس وأيد
فكرتها « لأن واحداً منهم لن يستطيع أن يوتر قوس أوديسيوس قبل أن
يحضر أوديسيوس فيحطمهم جميعاً ! ! » وأشارت بنلوب إلى خدمها
فأعددن لأوديسيوس متكاً و فراشاً وثيراً . . . وذهبت هي لتدرف في
مخدعها دموعاً من بلور .

(١) لم نجد في العربية - أو لم نعرف - مرادفاً لهور القرص أو العجلة ، فأجرتنا هذه اللفظة لشيوعها
بين الصناع .

نذير من السماء

طفق أوديسيوس يتقلب في فراشه على أحر من الجمر ، وطفق رأسه يغلى كالقدر ، بل يفور كالتنور بطائفة نائرة صاحبة من الأفكار والوساوس ، وهو لا يدري ماذا يصنع بهذه العصبة أولى القوة من أولئك الخطاب المفاليك ، وهو وحده ، ومهما يكن شجاعاً صنديداً فقد يتكاثر الذباب على الأسد فيقتله . . .

وهبطت من السماء ميثراً اللطيفة في صورة حسناء هيفاء ممشوقة القد بارعة القسمات ، فجعلت تواسيه وتطمئنه وتبشره بأن الأولب كله من ورائه فلا يخاف ولا يأسى .
ويقول لها :

« هذا حسن أن يكون الأولب ، وتكونين أنت ياربة الحكمة ، من ورأى حتى أنتصر على أولئك الجبارين . . . فكيف لا أخشى أن يهب من ورائهم قبائلهم وذرائعهم واللائدون بهم يثأرون لهم فيحل بي بطش شديد ؟؟ »
« فتقول ميثراً : « الذي يحفظك منهم غداً يحفظك من غيرهم بعد غد ، ولو جمعوا لك جحفاً أضعافاً . . . فلا عليك أيها العزيز . . . خلّ عنك الوساس إذن . . . ونم ملّ جفنيك . . . واترك للسماء قيادك فهي حسبك . . . » قالت هذا وزفت^(١) في الأثير اللانهاي إلى أولب ، تاركة وراءها القصر العتيد بمن فيه من نؤام وغير نؤام . . .

مسكينة بنلوب ! لقد كانت هي الأخرى شاردة اللب ، موزعة القلب ما ترقاً لها عبرة^(٢) ، ولا تغنى لها عين ، ولا يقرها قرار . . . لقد لبثت ليلها كله تشوقاً إلى أوديسيوس وتبكي عليه ، وتستذكر أيامه ، وترثي لهذا

(١) طارت وارتفعت

(٢) | ما تخف لها دمة

الفتى اليافع تليماك ؛ ثم تدعو الموت كى يخمد أنفاسها ، ويؤقر عليها
أحزانها . . . ولكن المنايا نوافر لاتستجيب لدعاء أحد . . .

وهباً أوديسيوس عند مطلع الفجر فانطلق إلى المذبح الكبير حيث جثا
متضرعاً لهفاناً ، يسبح باسم زيوس العلى ويصلى له ويهتف به أن يجعل له
علامة يطمئن قلبه بها ، وليعلم أن كبير الآلهة لايزال يحميه ويكلؤه ، كما
كلأه في شدائده في البر والبحر . . . وكان أوديسيوس يُركي صلواته بأطهر
الدموع وأحرها ، وكان سيد الأولب يصغى لدعائه من علياء السماء ، فما
إن فرغ الملك المحزون حتى أرسل زيوس في الأرجاء زلزلة عظيمة مدوية
رجت أصداءها جنبات القصر الساكن ، وأحياد الجبال الشاخنة . . .
وكانت خادام بائسة تسهر طوال ليلها عاملة في طاحونها ناصبة فلما وقرت في
سمعها الزلزلة ذعرت وروعّت ، وأزاحت طرف الستر لتتظر إلى السماء فلم
تجد فيها سحابة واحدة ، بل وجدتها مشرقة بتباشير الصباح ، مضيئة بنور
رهبها . . . فجعلت تجار إلى الله وتقول : « زلزال وليس في الأفق سحاب ! !
أما والله إنه لنذير ، أما والله إنه لغضبة السماء على هؤلاء
المناكيد... القساة... الذين يقسروني على هذا العناء وذاك النصب طوال
الليل كأننى من حديد . . . يا جوف العلى... إن يكن ما سمعت حقاً ، فإنى
أسألك بحق أسمايك أن يكون هذا الدقيق آخر ما يأكلون من زاد هذه
الدنيا ! ! » .

وتبسم أوديسيوس من قولها وتوسم فيه وفي تلبية السماء خيراً له ،
وشاع في أعطافه شعور قدسى باقتراب ساعة الانتقام . . . وكانت
الوصيفات الأخريات يوقدن نار المدفأ في الردهة الكبرى ، بينما برز
تلياخوس من مخدعه مخترباً سيفه ، ورمحه يختال من خلفه ، حتى إذا بلغ
وصيد الباب الكبير هتف بالمرضع العجوز يوريكليا يقول : « كيف حال
الغريب النازح يا أماه ؟ بودى لو أنكن عنيتن به كما ينبغي ، لأن والدتى على
ماجلت عليه من خير ولطف ، لاتهش لأمثاله من النازحين الغرباء »

وقالت يوريكليا تجيبه : « يابنى لاتثريب على والدتك فى هذا السبيل فقد احتسى ضيفك من الخمر مل بطنه ، حتى لقد أبى أن يذوق طعاماً بعد ، وقد أبى إلا أن ينام على فراش خشن فى الردهة الكبرى ، ولا أدرى لماذا تشبث بهذا » . وانطلق تلياك إلى المدينة يتبعه كلباه . ثم أقبل الراعى يومايوس يسوق بين يديه ثلاثة خنازير كناز من أسمن قطعانه ، وما أن رأى أوديسيوس - الشحاذ الفقير فى حسابانه - حتى قصد إليه ، ولبث يسأله عما لقي من الخطاب العشاق-فذكر له أوديسيوس ما كان من وقاحتهم..وبينا هم كذلك ، إذ أقبل الراعى السفیه ، سليط اللسان ميلانتيوس وهو يحدو قطعانه وماعزه ، وطفق كدأبه يسب أوديسيوس ويرسل عليه وعلى يومايوس ما نزع به فمه من شتائم ، تحرشاً بالرجل الشحاذ الفقير . ولكن أوديسيوس لم يحرك ساكناً . . . وأقبل راعى آخر يقود بقرة صفراء ، يدعى فيلتيوس ، فوقف عند زميله يومايوس يسأله عن صاحبه الفقير الشيخ ، وكأنما راعته ملاعجه وحسن سمته : «إن له سيماء كسيماء الملوك برغم أسماه ومزقه ! » ثم صافح أوديسيوس وقال له : «مرحبا أيها الأب اخفف الله عناءك ووضّع عنك وزر ماتشكو...يا للسماء ! إن مرآك ليفجر الدموع فى عينى لأنك تذكرنى بمولاي أوديسيوس الذى وكل إلى رعى قطعانه وأنا بعد صغير حدث ، فكبرت كما كبرت ، وتضاعف عددها...ولكنى وأأسفاه لا أفرح بسمنها ووفرة عددها ، بل إن الحزن ليرزح على نفسى لأنها تسمن فتكون غذاء لامباركا ولا هنيئاً لأولئك الظالمين . . . ولولا رجائى فى السماء . . . وأملى الكبير فى عودة مولاي أوديسيوس للذت من بعيد بسيد آخر أخدمه ، لأن الصبر على خبائث هؤلاء العتاة الطغاة لم يعد فى طوق أحد . . . وأأسفاه عليك يامولاي أين أنت اليوم ؟ ألايتك تعود فتبطش البطشة الكبرى بهؤلاء الجبارين ! » . . . واغبط أوديسيوس بما سمع من كلام الراعى فقال له : «لله ما أشجعك أيها الصديق ! ولكنى أبشرك وأطمئنك ، وأقسم لك أن مولاي عائد ما فى هذا شك ، وهو عائد عما قريب ، وستشهد عينك هاتان مصارع البغاة الطغاة ! » . . . وبينما هما

يتحدثان إذا بالخطاب يقبلون أفواجاً فيملأون البهو ، ويجلسون إلى وليمتهم .
 فيشير تليماك إلى أبيه فيجلسه معهم . ويعد له مائدة ومقعداً ، ويحضر له من
 الشواء والخبز والشراب ما هو حسبه ويقول له بمسمع من الجميع « اجلس
 أيها السيد ولا تخش رهقاً . . . إني أمقت أن أسمع شغباً اليوم . فاليبت بيت
 أوديسيوس وإني لصاحبه ! » وغيظ أنطيوخس فقال : « دعوه فقد حق له
 أن يقول ما يشاء ، فتالله لولا أن حال جوف بيننا وبينه لأسكتنا إلى الأبد
 أنفاسه ! » وقال سفيه آخر : « طب نفساً ياتلياخوس وقر عيناً ، فهناك
 منحة منى لضيفك ، مضغة مشتهة ! » ثم تناول عظمة من السلة القريبة
 فقفز بها أوديسيوس الذي انحرف عنها فلم تصبه ، وعندئذ قال تليماك
 مغاضباً : تالله لو أصابته لأقصدتك برمحى هذا فننذ في صدرك ، وخرج
 يلعب من ظهره ، ولا نقلب العرس الذي تحلم به فكان مناحة تؤز
 بيتك . . . إني لم أعد صبياً بعد فلا ترهبونى سترون كيف أستطيع أن
 أضع لكل ذلك حداً بعد إذ طفح الكيل ! » وهنا هب لئيم آخر فجد في
 سخرية مقالة تليماك . . . « لأن من حقه أن يحمى ضيفه . . . ولكن
 اسمع ياتلياخوس . . . لم لا تمضى إلى أمك وقد يشست من عودة أبيك
 فتطلب إليها أن تحضر فتختار البعل الذى يروقها من بيننا ؟ » فتحمل تليماك
 الكلام وقال : « هى حرة مطلقة الحرية . إني لا أقف فى طريقها ولا
 أقصرها على شئ ! » وما كاد يفرغ حتى انفجر المناكيد يضحكون
 ويضحون .

ثم حدثت المعجزة !

لقد تضرجت وجوه القوم بحمرة الدم . . . ولقد تحركت قطع اللحم
 فوق الخوان فهى تقطر دماً أحمر كأنه ينبثق من غلاصم قتلى ! ثم امتلأت
 عيونهم بدموع غزار حرار . . . ثم طفقت دموعهم تعلو وتهبط وتنشق عن
 تهديدات تصعد من سويداءات القلوب . . . ثم هذا ثيوكليمنوس - الكاهن
 الآبق - يشهد المعجزة ويرى النذير ، فينهض فيهم قائلاً : « تعساً لكم أيها

الأنجاس لقد سئى بكم ! ماذا تخبأ لكم المقادير ياترى ؟ ماهذه الظلمات كأنها قِطْعُ الليل تغطش رؤوسكم وتزلزل أقدامكم ؟ وما هذه الدموع تتصبب من عيونكم فتشوى خدودكم ؟ انظروا إن استطعتم ! ما هذه الدماء التى تخرج جدران القصر ؟ ماهذه الأشباح التى تكظ البهو الخالد ؟ إنها تتهاوى إلى عالم الفناء فويل لكم ! ؟ أوه ! وتلك آية أخرى لقد كسفت الشمس فجأة وتوارت بالحجاب ! الضباب الضباب ! ما أروع الضباب ينتشر فيملاً ما بين الأرض والسماء ! ! »

وبالرغم مما أندر الكاهن فقد أغرق القوم فى الضحك ، ولم يزدادوا إلا خبالاً . . . وقال قائلهم ، وإنه ليوريماخوس : « ما أحسب إلا أن به جنّة ! خذوه فغلوه ثم فى السوق صلوه ^(١) ، عسى أن يجد ثمّة ضياء يمشى فيه ، إنه لا يجد ضياء هنا ! ! » .

وتلبّت الكاهن فقال : « أربع عليك يا يوريماخوس فإن لى عينين وأذنين وإنى لأرى وأسمع . . . وإنى نذير لكم من بلاء يحل بكم فلا يبقى ولا يذر . . . أيها الأفاكون المفسدون ! » وانطلق الكاهن من القصر . . . ولز أحد الخطاب تليماك فقال : « ألا ما أتعسك فى كل من ضيقت من ضيف يافقى ! أما كان بحسبك هذا الفقير الشحاذ القدر الذى تطعمه ، ما عليه من سبيل ، حتى تجلب هذا المتفهيق الذى يدعى النبوة ويرجم بالغيب ؟ » .

وصمت تليماك فلم ينبس ، وظل ينظر إلى أبيه ، ويرقب ساعة الجد .

(١) ارموه واقلدوه .

وما رميت إذ رميت ...

وكانت بنلوب جالسة في الحرم تسمع إلى ضجيج القوم وعجيجهم ،
فبداهها أن تضع حداً لهذا العبث العقيم الذي استمر كل هذه السنين الطوال
فأمرت بعض وصيفاتها فتبعتها إلى الخبأ الذي حفظت به أذخار الملك
وعتاده ، والسلاح الذي فرقت^(١) منه قلوب وارتعدت فرائص وزاغت من
هوله أبصار ...

لله ما كان أشجها ذكريات حافلة بأروع ضروب المجد ! هاهي ذى
تلك الرماح التي طالما لاعب بها أوديسيوس الأسنة ، والسيوف التي طالما
انتزع بها الأرواح ، والدروع السابغات التي كانت تدرأ عنه ونحميه ،
وتحفظه وتفتديه ... ثم هاهي ذى تلك القوس العظيمة معلقة فوق الحائط
تلمع وترقص من حولها المنايا ... القوس ذات الذكر التي أهداها إلى
أوديسيوس أحد المعجبين به ... هاهي ذى بعد هذه السنين الطوال لم
يحملها أحد غير أوديسيوس ، لأن أحداً غير أوديسيوس لا يستطيع أن يثنى
قوس أوديسيوس ، وفيها الوتر العُرد^(٢) الذي لا يلين ولا يبين ولا
يُرد ، إلا إذا كلمه أوديسيوس ! وتناولت بنلوب كنانة^(٣) السهام التي
طالما قذفت المنون في قلوب الأعادي ، وجلست تنثرها في حجرها ، وتنتقى
منها ، وتبكي أحر البكاء ... لأن كل سهم منها كان يهيج في قلبها
ذكريات زوجها البطل .

وأشارت إلى وصيفاتها فحملن القوس العظيمة ، وحملن
(الدناجل) ، ثم حملت هي السهام وسارت أمامهن ، وعلى وجهها نقابها

(١) انتزعت ورجفت

(٢) الصلب

(٣) مخللة

السادر الحزين ؛ حتى إذا كانت عند الأمراء هتفت بهم فصمتوا ، ثم قالت لهم وفي صوتها نبرة الحزن ، وموسيقى الآلام : « ها هي قوس أوديسيوس وتلك هي سهامه أيها السادة الأمراء فن استطاع أن يثنيها فيرسل عنها سهماً يخترق الدناجل الاثنى عشر فأنى له ، وهو صاحبي . . وعسى أن تبطل السماء حجتكم اليوم . . فقد طالما ذهبتم بخير هذا القصر ، وأرعتكم^(١) من زاده بحجة أنكم خطايى ، كما استبحتم أن تسموا أنفسكم ، فأليكم القوس فانظروا ماذا تصنعون وأشار إلى الراعى يومايوس فتسلم القوس العظيمة ، وحملها معه زميله راعى الضأن فيلوتيس . . ثم إن الراعيين لم يطبقا ذكريات سيدهما التي هاجتها فيهما القوس فذرفا دموعهما ثم استخرطا^(٢) في البكاء . . . وانتهرهما أنطونيوس فقال : « تباً لكما أيها الفلاحان القدران فيم هذا البكاء ! ألتهيجان الشجو في فؤاد سيدكما ؟ انطلقا أيها المسخان فابكيا بعيداً فتالله ما أحسب بكاء كما إلا يزيد في صلابة القوس ، وتالله ما أحسب أحداً منا يبلغ منها مارباً . . . وى ! من منا له بأس أوديسيوس ؟ لقد كنت طفلاً ، بل كنت وليداً ، حيناً رأيت رجلاً ذا صولة وفتوة يهديها إلى البطل . . . أجل . . . رأيت هذا بعينى هاتين . . . وكان في كل ما قال ساخراً . . . فقد هياً له الغرور أنه بقليل من العناء سيثنى القوس ويرسل السهم ويحظى بببلوب ! »

ونهض تلياًك فقال إنه سيسهم في الرماية فإذا استطاع فإنه سيقى أمه لديه ولا يتركها تغادر منزل أبيه أبداً . . . ثم حفر حفراً على خط مستقيم فجعل في كل منها دنجلاً وثبت حولها بالحجارة والتراب . . . ثم إنه تناول القوس العظيمة وألقمها السهم ، وجمع قواه وطقق يشد ، ولكنه فشل مئى وثلاث ، وكانت القوس تشمخ عليه فلا تكاد تنثنى ، حتى إذا حاول الرابعة وأوشك أن يظفر ، أو ما إليه والده ففهم مايريد وقال : « أوه لا يقدر

(١) أردتم وطلبتم

(٢) اشتدا

على هذه القوس إلا من هو أقوى منى وأكمل جسماناً وأتم بنيه . . . فليتقدم لها من شاء منكم حتى نرى ! » .

وقال أنطونيوس : ' إنهم جميعاً مشتركون في التجربة حسب مقاعدهم ، حتى الكاهن . . . فنهض هذا ويم شطر الوصيد ^(١) وحمل القوس الرهيبية وحاول مائة مرة أن يثنيها فلم يستطع ، فألقاها وقال : « أيها الرفاق . . . ما أحسب هذه القوس إلا مؤسفة للجميع . . . لقد أوهنتي وذهبت بُمَنَّتِي ^(٢) . . . ألا فلتحلّموا بامرأة أخرى غير بنلوب ، فوالله ثم والله إنها للرجل الذى كتبها المقادير له . . . الذى يحضر إليها بما ليس فى وسعكم من كنوز ومن أذخار » .

وغضب أنطونيوس وتجهّم للكاهن ثم قال : « ألا ساء ما تقول أيها الرفيق ! أحسبت أننا نياس من هذه القوس لأنك لم تقدر عليها ؟ ومتى كنت رجل جلاد وجهاد ، ومتى ثنيت قوساً أو أرسلت سهماً ! أربع عليك ففينا الكثيرون الذين يستطيعونها بالقليل الأقل من الجهد » ثم أمر راعى الضأن ملانتيوس أن يحفر حفرة ويوقد فيها ناراً يجعل بها وعاء من شحم ليعالجوا به القوس عسى أن تلين قبل أن يُدْلُوا دلوهم . . فلما كان هذا أخذ الأبطال كل بدوره يحاول أن يثنى القوس ، ولكنها استعصت عليهم جميعاً ولم يبق إلا أنطونيوس ويوريماخوس ، وهما أكثر هذا الجمع قوة وأوفرهم فتوة .

ثم نهض راعى الخنازير ، يومايوس ، ونهض فى إثره صديقه الراعى الآخر ، فحثا الخطى خارج البهولما شاهدوا من يأس القوم . . . وقد تبعهما أوديسيوس . . . فلما كانوا بعيداً قال لهما : « أيها الحبيبان ، إذا أرسلت العناية أوديسيوس فى هذه اللحظة ليطش بهؤلاء المناكيد أفتحاربونهم

(١) الفناء والمقصود المكان الذى أعد للقوس والدناجل

(٢) قوى

معه ، أم تحاربونه معهم ؟ » . . . فرمقه فيلوتايوس وقال : « يا للسماء !
تالله لو صحت أحلامك لرأيت كيف أفتديه منهم بنفسى ومهجتى ! وتالله
لرأيت كيف يهتز سلاحى فيحصد رؤوسهم ويبعث أشلاءهم ! » وقال
يومايوس مثل هذه المقالة . . . ولما وثق من إخلاصهما كشف لهما عن حقيقته
فقال : « إذن فاعلم أنى أوديسيوس ، وهذه هى الندوب التى أحدثها
الختيرير فى ساقى ، وقد أبت إلى وطنى فجأة فلقيتكما أول من لقيت ،
وأكرمت مثنوى يابومايوس وأنت لا تعرفنى ، ولم أشأ أن أبدو للقوم حتى
أعرف عدوى من صديقى » ولم يكذب يفرغ من قوله حتى انحنى الرجلان
يشهدان الندوب ، فلما استيقناها ذهلا عن نفسيهما ، وجثوا عند قدمى مولاها ،
وظفقا يقبلانها ويغسلانها بدموعهما ، ثم نهضا قائلين سلاحهما عليه ، بيد
أنه أمرهما أن يصمتا حتى لا يفصح أمرهم أحد . . . وقال لهما : « لا بد أن
نعود أدراجنا إلى البهو ، وسأنتطق أنا قبلكما ، وسأطلب منك يابومايوس أن
تعطينى القوس لأقوم بنصيبى فى التجربة وسيرفض القوم أن أفعل ،
ولكنك يجب ألا تبالى ، بل تناولنى القوس ثم تسرع بعد هذا إلى الحرم
فتخبر النساء فيه ألا يدعرن إذا سمعن ضجة أو عويلا فى البهو ، أو شهدن
حرباً وقتالاً . . . أما أنت يافيلوتايوس فتسرع إلى باب البهو فتوصده وتحكم
إغلاقه حتى لا يفلت منهم أحد أبداً » . ثم مضى فجلس مكانه لدى
الباب ، وتبعه الراعيان . . . وفى هذا الوقت كان يوريماخوس يحاول
محاولته ، وكان من وقت إلى آخر يذهب بالقوس العظيمة فيعرضها للنار
عسى أن يسهل عليه ثنيها ، لكن القوس أبت مع ذلك أن تلين ، فلما بلغ
من يوريماخوس الجهد^(١) ألقى بها يائساً وقال :

« تباً لها من قوس عنيدة ، والعار الأبدى لنا جميعاً يارفاق ! مالنا
ولهذا ؟ إن فى إيثاكا حسناً ، وإن فيهن أزواجاً ثراً أبكاراً لمن يشاء ! أوه

(١) التعب

يا للبخزى ! أواه لو لم تقل الأجيال المقبلة كنا دون أوديسيوس قوة وأقل منه فتوة حين عجزنا أن نثني قوسه ! ! يا للبخزى . . . يا للبخزى ! »

ورؤّع أنطونيوس ! وذهل عن أمره ، ولم يشأ أن يخزى نفسه بأن يحاول كما حاول غيره . . . فوقف فقال : « ما أحسب القوس عنيدة ولا مستعصية كما تزعمون . . . ولكن اليوم يوم عيد أبوللورب القوس العظيم ، فأنى لنا نحمل قوساً اليوم ! دعوها ، واتركوا الأهداف مكانه ، فلن يجسر أحد أن يدخل بهو أوديسيوس فيمضى بها ، وفي بكرة الغد يحضر ميلاتنيوس من قطعانه عنزات سماناً فنضحى بها لأبوللو ، ثم تم محاولتنا »

ولكن أوديسيوس هب من مجلسه فقال : « ياسادة ! ما دمتم لن تحاولوا الرماية اليوم فأرجو أن تدفعوا إلى هذه القوس لأجرب أنا أيضاً ، ولأرى هل لا تزال بقية من مئة الشباب مخبوءة في أعصابى أم أنها ذهبت بها جميعاً متاعب الحياة وكثرة التجوال في أطراف الدنيا . . . » وجنّ جنون القوم لما قال أوديسيوس هذا ، وعجبوا كيف يجسر شحاذ فقير مثله أن يطلب أن يشارك السادات في مباراتهم . . . ومن يدرى ؟ لعلمهم ذعروا أن ينجح هذا الفقير فيما فشلوا هم فيه . . . قال أنطونيوس : « أخزن عليك لسانك أيها السليط الوقح ! ألا يكفيك أن يسمح لك بوجودك بين هؤلاء السادة الأخيار من أقيال^(١) البلاد حتى تطلب أن تباريهم ! » وكانت بنلوب تطلع فلم تحتمل أن يؤذى ضيف ولدها هكذا ، فقالت : « أنطونيوس ، أنى لك أن تؤذى تلياك في ضيفه ؟ بل ينبغى أن يحاول الرجل كما حاولتم ، فأما أنك تخشى أن يظفر فيما فشلتم فيه . . . فلا ضير . . . إنه لا جرّم ليس يحلم مثلكم بأن أكون زوجة له ، فليفرخ روعك إذن ، ولتطمئنوا جميعاً » وقال يوريماخوس : « يا ابنة إيكاريوس ما دار بخلدنا قط أن تكونى زوجة له إذا ظفر ، ولكننا خشينا أن يفضحنا في الناس

(١) أمراؤها وحكامها .

فيقول . « عجباً لسادات إيثاكا وما حولها ؟ يطمعون أن يتزوج أحدهم امرأة البطل العظيم أوديسيوس ثم لا يستطيعون رمي سهم عن قوسه ، ويأتى رجل شحاذ فقير فيثنى القوس ويرمى السهم وهم مع هذا لا يستحيون ! » هذا ما خفنا أن يكون يا ابنة إيكاروس وهذا ما خشينا أن يذهب بشرفنا ؟ » فقالت بنلوب : « لتطمئن يا يوريماخوس فليس فى مثل هذا يضيع شرفكم . . . ولكن الرجل ذو جسم طوال ومظهر جبار ، وقد ذكر آباءه فعلم أنه كريم العنصر طيب الأرومة ^(١) عريق المحدث ^(٢) ، فلم لا يعطى القوس لئرى ما يكون ؟ وإنه إذا ظفر فسأخلع عليه وأدفع له سلاحاً وأرسله أنى شاء ! ؟ » . ثم نهض تليماك فقال : « أماه ! إن القوس قوسى وإنى لصاحبها ، أعطيها لمن أشاء وأصونها عمن أشاء ، ولن ينازعنى حتى أحد من العالمين ، ولو شئت لأعطيها الرجل فتكون حقاً خالصاً له ، وما سمحت لأحد أن يمنعنى . . . تفضلى أنت فغلقي عليك أبواب الحرم ، وانظرى فى أعمال البيت ، وصرفى شئون الخدم ، وخذى فى غزلك ونسجك ، وسننظر نحن فى أمر القوس ، وسأرى أنا لمن تكون الثوبة ، فإنى هنا سيد لا مسود ! » . . . وشدته بنلوب قليلاً ، إلا أنها عرفت أن ابنها قال حقاً ، فانسحبت ، وغلقت عليها أبوابها ، وانطرحت فى فراشها حيث وافتها مئزفاً فسكبت فى عينيها غفوة هادئة لذيدة ، فاستسلمت لسبات عميق .

وتقدم يومابوس فحمل القوس وأوشك أن يذهب بها إلى أوديسيوس لكن الأمراء زأروا مغاضبين ، فخشى الراعى ، وألقى القوس ثانية ، فصاح به تليماك : « هات القوس هنا أيها الرعديد ^(٣) لشدا أود أن أخلص منك ومن هؤلاء السادة الذين ترهبهم . . . ! » وسخر الأمراء وضجوا ضاحكين . . . ولكن الراعى تقدم إلى القوس فاحتملها ، وذهب بها قدماً إلى مولاه . . . وانطلق بعد هذا إلى الداخل فنادى الموضع يوريكليا وقال

(١) الأصل والمنشأ (٢) المنبت (٣) الجبان

لها : « إن مولاى يأمرُك أن تغلقى جميع الأبواب ويقول لك إنه إذا سمع النساء ضجة في البهو أو قتالا فليجلسن حيث هن ولا ينزعجن ، وليأخذن في عملهن . أسمعين ؟ » .

وغلقت الموضع الأبواب وبلغت رسالة مولاها . . . ثم هم فيلوتايوس فغلق باب البهو وأحكم إقفاله وربطه بسلك^(١) طويل كان لسفينة وألقى لدى الباب ، وعاد فجلس مكانه وعيناه لا ترميان عن مولاها . . .

وتناول أوديسيوس القوس فجعل يفحصها ويبحث في أجزائها ، مخافة أن يكون السوس قد نخرها إذ هو ناء عن بلاده . . . وزاغت أبصار القوم ، وجعلوا يُبرِّفون في الشحاذ الفقير ويقولون : « اِهْلُؤُف^(٢) الزنيم ! إن له لَعِيناً فاحصة كأن لها عهداً بالرماية ؛ وإنه ليبحث القوس . كأنه يقتنى أمثالها ! » ثم قبض أوديسيوس على القوس ، وشد طرفها في سهولة وفي يسر ، كما يشد الموسيقى وترّاً من أوتار قيثاره ، ونظر إلى الأهداف المتراسة أمامه ، وأرسل سهماً اخترقها جميعاً ، وسمع له صوت كسقسقة العصافير . . .

يا عجباً ! ! لقد أراش أوديسيوس السهم ، وأرسل زيوس العلى زلزلة ورعداً مدوياً وثب له فؤاد البطل ، وطارت منه ألوان القوم ، وانقذف الرعب في قلوبهم . . .

ثم أخذ أوديسيوس سهماً آخر فثبته ، ثم أراشه فاخرق الأهداف مرة أخرى . . .

(١) في القاموس السلب لحاء شجر باليمن تعمل منه الحبال ونحسب أن منه إطلاق السلب على الحبال الغليظة في مصر فلم نر بأساً من استعماله بهذا المعنى .

(٢) الهلوف بتشديد اللام وزان فردوس الثقل الجافى البطين ونحسب أن منه نحت المصريون كلمة هلقوت وقد استعملناها لظرفها ومناسبتها كثيراً للمقام .

قال أوديسيوس : « تليماخوس أيها العزيز ! إن ضيفك لم يَحْيَب رجاءك ولا أضاع عشمك^(١) ، ولقد أصبت الأهداف كلها على حداثة عهدي بالرماية . . . والآن ، هلم فإن النهار يوشك أن يولي ، وإنه لينبغي أن نعد وليمة المساء للسادة الأمراء ، ولن يعدموا بعدها ما دأبوا عليه من رقص وعزف ، وقصف وغناء . . . ! »

وهم تليماك فألقى حمائل سيفه على كاهله ، وتناول رمح العظيم . . . وسنرى !

(١) في القاموس العشم الطمع

الانتقام الهائل

التقى أوديسيوس أسماه ؛ وأطرح مزقه ، وبرز للملأ أوديسيوس القوى الحديدى الجبار ، وتناول كنانة الأسهم التى تُهمهم فيها المنايا وتغمغم ، والقوس العتيدة العنيدة ، ووقف عند الوصيد حتى لا يفر أحد من أعدائه فينجو من الموت الذى هو ملاقيه ، ثم نثر الكنانة عند قدميه وهتف بالعشاق يقول : « وهكذا يأسدة تم فصول المأساة ، وهكذا أيضاً تنتهى المباراة التى لم يفز فيها واحد منكم . . . والآن . . . انظروا إلى لن أسدد سهامى إلى هذه الأهداف بعد ، بل إلى مسدها إلى غرض آخر . . . » وشد الوتر العُرد ، وأرسل إلى حلقوم أنطونيوس سهماً مُراًشاً عجل به إلى هيدز . وكان العليج ^(١) يوشك أن يختسى كأساً ذهبية من أعتق الخمر ، فسقطت الكأس من يده الذاهلة ، وسقط هو يتسحط في دمه ، ^(٢) ويلفظ أنفاسه . وذعر الآخرون حيناً رأوا أخاهم يسقط إلى الأرض رمة لا نفس فيها ولا حراك ، فهاجوا وما جوا ، وهبوا يبحثون عن أسلحتهم . . . ولكن ، هيات ! لقد أخفاها أوديسيوس وولده ليلة أمس . . . فأنى لهم بها ! ! وصاحوا بأوديسيوس : « أيها المجنون لقد أخطأت المرمى ! ماذا أصابك إنك تسدد إلينا ؟ لقد قتلت أنبل شباب إيثاكا ، ثكلتك ^(٣) أمك ! أبداً لن تحمل بعد هذه قوساً أبداً .

وانكشف الستر ، وعاد إلى الشحاذ الفقير عنفوانه ، وانقذت من فمه الحُمم فقال : « أيها الكلاب ! فال ^(٤) مازعمتهم أن أوديسيوس لن يثوب ! هاأنذا أيها العبيد ! لقد استبحتم حمى بيتى وأذللتم قدسه الحرام ، وأوضعتم ^(٥) فى الفتنة واعتديتم على نسائى ، ولن تبالوا أن تتعشقوا

(١) العليج الحمار والعمير والبليد القلب الفاقد الشعور

(٢) يتقلب (٣) فقدتك

(٤) خاب (٥) أسرعم

زوجي ، بينما رجلها حتى يسعى على قدميه ، غير عابئين بمن يطلع عليكم في السماء وهو بكم محيط ، ولا مبالين بما تضج به الرفات الكريمة في ثرى هذه الأرض من فعالكم ، فويل لكم ، لقد حان حينكم ! ! » .

وارتعدت فرائص الكلاب كما دعاهم أوديسيوس ، وطارت حمرة الخمر من خدودهم ، ووقف يوريماخوس متخاذلاً وهو يقول : « إن كنت حقاً ملكنا أوديسيوس فكلنا نعتذر عما ارتكبناه من الإثم في بيتك . ولقد تكلمت فقلت الحق كل الحق ، ولكنك قد أردت أنطونيوس الذي دعانا إلى كل ذلك والذي لن يطمح أن يترفع على عرشك ويملك كما ملكت ، فاعف عنا واصفح عن خطايانا ، فنحن بالرغم من كل ما حصل شعبك الأمين ، ورعاياك الأوفياء الأولياء . . . على أننا سنعوضك مما استبحنا مالاً بمال وعتاداً بعتاد » فقال أوديسيوس : « يوريماخوس أيها النذل ! إنكم مهما ملأتم يدي من الذهب فلن تشفوا حردى^(١) ولن تُذهبوا غلتي^(٢) حتى أنتقم منكم جميعاً لما صدر عنكم من إفك ، وما ارتكبتم من أوزار ! فاختاروا لكم ! الحرب التي جدت بكم فجعدوا بها ، والقتال الذي لا محيص منه ولا محيد عنه ، أو . فالفرار الفرار . . . ولن تجدوا إلى الفرار سبيلاً . . . » وزلزل الجميع زلزالاً شديداً ، وجفت ألستهم في حلوقهم فما عرفوا ماذا يحIRON ، ثم هتف فيهم يوريماخوس فجأة يقول : « أيها الإخوان ، لقد تحجر قلب هذا الرجل فلن يعرف سبيلاً إلى الرحمة ، وقد قبض على القوس بكلتا يديه ، ووقف عند الوصيد يذودنا عن الباب ، ولن يقلت أحد منا من سهامه قط ، بل إنه سيقنصنا واحداً . بعد واحد . . . ولا أرى إلا أن تفروا إلى سيوفكم فتخترطوها^(٣) وإلى المناضد فتدعروا^(٤) بها ، ثم نهجم عليه كرجل واحد عسى أن نرحزحه عن الباب فننجو بأنفسنا ونلوذ بالفرار فإذا بلغنا المدينة فإننا سالمون ! » ثم فرغ من صيحته واستل

(٢) اظمى

(١) غيظي

(٤) تتخلوها دروعاً ،

(٣) تستلوها

سيفه ، وهجم على أوديسيوس مرعداً مزجراً ، ولكن أوديسيوس أصماه
 بسهم فى صدره فصرعه ، وخر اللثيم يعالج سكرات الموت ، وانتشرت
 ضبابة الفناء الأبدى على وجهه المقيح فأطبقت عينيه . . . هنا . . . هاج
 الأمير أمفينوم وماج وهجم على أوديسيوس بسيفه الذى تقطر من حده
 المنايا . . . وكاد اللثيم ينال من خصمه منالا لولا أن قفز تلياك برمحه العظيم
 فأغمده فى صدره ورده عن أبيه وعاد مكانه دون أن ينتزع الرمح مخافة أن
 يتكاثر عليه الأعداء . وقال تلياك لأبيه : « أبتاه إنه يجب أن نستعد بسلاح
 أكثر . . . وإنى ذاهب فمحضر ما نحتاج إليه وعائد بسرعة البرق » فقال أبوه
 وهو يقصيد ^(١) القوم بسهامه : هلم يا ولدى وهات ما استطعت فلشد
 ما أخشى أن تفرغ هذه السهام فلا أستطيع أن أدفعهم عن الباب . . . »
 وانطلق تلياك إلى 'غرفة السلاح' ، فأحضر ما مست إليه الحاجة من رماح
 وسيوف وخوذات ، وادّرع بما هو حسبه منها ، ثم ألبس الراعيين الأمينين
 درعين سابغتين ^(٢) وزودهما بسيفين بئارين ، ووقف الثلاثة إلى جنب
 البطل العظيم يمنعون تكاثر العشاق عليه ، بينا هو يرسل سهامهم فتخترقهم
 وتستأصل شأقتهم واحداً فواحداً ، حتى إذا فرغت سهامه ، وقف الأبطال
 الثلاثة يذودون من دون الباب حتى لبس أوديسيوس دروعه
 ووضع على رأسه خوذته ، وأخذ رمحين عظيمين فى كلتا يديه ، وعاد إلى
 كفاحه ، وكانت فى الجانب الآخر من البهو بوابة صغيرة لم يظن العشاق
 إليها ، فارسل أوديسيوس راعى الخنازير ليحرسها وليحول بين العشاق
 وبينها . . . وضاعت الدنيا حتى غدت ككفة الحابل فى أعين القوم ،
 وتجهمت لهم حتى غدت كالليل البهيم ألقى غواشيه فوق رؤوسهم ، وناء
 بكلكاه على صدورهم . . . فقال قائلهم : « ألا يستطيع أحد أن يمرق من
 البوابة فيصيح بأهلنا ويستنجد لنا ؟ » .

(١) أقصده بسهمه أى إصابة

(٢) ضافيتين .

فانبرى له ميلانتيوس ^(١) يخفيه : « هذا عبث لن يكون وراءه طائل فإن رجلاً واحداً يستطيع أن يقفنا جميعاً لو فعلنا ، دون أن نبلغ الباب . . . بل لدى فكرة . . . إلى أعرف أين خبأ أوديسيوس وابنه اسلحتنا وسأطلق فأحضر لكم منها ما يقيكم منها . . . » ثم تعلق بحبال مدلاة من كوة في السقف وتسلق عليها حتى نفذت ، وانطلق إلى غرفة السلاح فأحضر اثنتي عشرة درعاً ورماحاً كثيرة وخوذات ، وظل يلقى بها من الكوة فيلقاها رفاقه ويدرعون بها . . . ولو كان مع أوديسيوس سهم واحد يرسله إلى هذا العليج قبل أن يتعلق بالحبال لما استطاع أن يحضر هذه العدد قال أوديسيوس : « أي بني لقد خاننا بعضهم ودل القوم على غرفة السلاح ، فانظر كيف يتضاعف عناؤنا ويزيد بلاؤنا » فقال تليماك : « كلا يا أبتاه ، إنه لم يخنا أحد ، والذنب ذنبي ، فقد تركت باب الغرفة دون أن أوصده . . . يومايوس ! إنطلق فغلق باب غرفة السلاح ، وأحضر مفتاحها ، وانظر هل خاننا أحد ، أو أن هذا من فعل ميلانتيوس كما أحس ! » وانطلق يومايوس فرأى ميلانتيوس ذاهباً إلى غرفة السلاح ليحضر عدداً آخر ورماحاً ، فقال الراعي : « ها هو ميلانتيوس الوغد منطلق إلى الغرفة كما حدس مولاي » وهتف بتليماك : « ها هو ذا ! ها هو ذا ! هل أحضره حياً ليلقي جزاءه أم أقتله حيث هو ؟ » فقال أوديسيوس : « بل اذهب أنت وأخوك الراعي فشدوا وثاقه واحبساه في الغرفة حتى يلقي جزاءه ، وسأبقى أنا وتليماك لنذود دون الباب » وانطلق الراعيان فوقف كل منهما خلف مصراع من باب الغرفة حتى إذا برز ميلانتيوس انقضا عليه وكبلاه ودفعا داخل الغرفة ، ثم ربطاه في عمود هناك ، وقال له يومايوس « اهناً يا صاح وارقد هنا إلى الصباح ، وأكبر ظني أن الشمس لن تشرق عليك إلا وروحك في عالم الظلال والأشباح ، فلا تراك قطعانك بعد اليوم » وأغلقا الباب وعادا أدراجهما إلى مولاها وولده ، ووقف الأربعة

(١) هو الراعي الخائن الذي أصبح ضلعه مع العشاق ضد مولاه أوديسيوس

يناضلون جحفاً بأكمله . ثم بدت مینرثا الحكيمة في زى منظور وطيلسانه
 فعرفها أوديسيوس وفرح بها قلبه ، وهتف بها قائلاً . « منظور أيها العزيز ،
 معونتك وتأيدك ، فنحن صديقان منذ القدم ! » وهتف العشاق ينادون :
 « احذر يا منظور وإلا فتلقى حتفك بعد أن نظفر بهذا الوغد . ولحظت مینرثا
 دعر أوديسيوس مما رأى . . . بلح القوم فقالت تؤنبه وتحته : ما هذا
 التقاعس عن الحلبة يا . . . س ؟ هل فقدت شجاعتك وعنفوانك ؟
 إنك ما أحجمت مثل . . . اليوم طوال عشر سنوات حاربتها في طروادة
 من أجل هيلين ، فهل . . . عليك أن تلقى هذه الحفنة من عشاق بنلوب في
 بيتك ، بل في عقر دارك ؟ هلم ! قف إلى جانبي وانظر إذا كان منظور قد
 عقى الصداقة القديمة ! » .

وحاربت معه ساعة ، ولكنها تركته ليعمل للنصر بمفرده ، وانسحرت .
 فكانت عصفوراً من عصافير الجنة جعل يرف ويرف في سماء البهو ، حتى
 وقف على إحدى خشباته . . . وفرح العشاق لما رأوا من مفارقة منظور ،
 وعادت إليهم بعض شجاعتهم لما رأوا المحاربين الأربعة يقفون وحدهم في
 مدخل الباب الكبير . . .

وقال أحدهم يخاطب الباقيين : هلموا فليقذف ستة رماحهم قذفة
 واحدة إلى صدر أوديسيوس ، فإنه إن سقط استرحنا منه ، فلن نلقى عناء
 من الباقيين » ولباه أصحابه ، فقفوا برماحهم في صدر أوديسيوس ،
 ولكن . . . هيات . . . إن واحداً منهم لم يصب غرضاً من الصدر
 العظيم . . . وهنا . . . هتف أوديسيوس برفاقه ، فانقض الأربعة على
 أربعة من المهاجمين فجعلوا في صدورهم رماحهم ، ورد الله كيدهم في
 نحورهم ، فقتل كل مهاجمه . . . ورؤّع الآخرون فارتدوا على أعقابهم ،
 وانزوا في الركن السحيق من البهو ، وبهذا استطاع أوديسيوس ورفاقه
 انتزاع الرماح من صدور المقتولين . . . ولم يهتم الراعيان بما أصابهما من
 جراح بالغة ، بل وقفا يناضلان ويفديان سيديهما . . . ولما رأت مینرثا ما

يلقى المحاربون الأربعة من تكاثر الأعداء رقت في الهواء ، ثم كشفت عن درعها الهائلة التي تجلب الموت إلى كل من يراها ، ووضعت خوذتها الرائعة ثم انبرت للقوم ؛ وهم المحاربون الأربعة يطاردون الأعداء ، والأعداء يجرّون من ههنا وههنا مذعورين ذاهلين مما رأوا من درع مينرقا . . . وجعل أوديسيوس ورفاقه يصطلمونهم ^(١) أربعة بعد أربعة حتى لم يبق إلا المنشد المسكين فيميوس ، الذي قسره العشاق على الإنشادهم ، وتطريبيهم تطريباً لم يؤثره ، ولم يؤجر عليه . . . لقد فرع المنشد المسكين من هول المجزرة . . . وانطرح تحت قدمي أوديسيوس يقول : « مولاي ؟ أوديسيوس العظيم ! ارحمني وانعفني فقد قهرني القوم على ما رأيت ! اصفح عن المنشد البائس الذي يدخل السرور على أفئدة الآلهة ، ويذهب الحزن عن قلوب الناس ! » وهتف تلياك بأبيه يقول : « اصفح عنه يا أبني ، فإنه لا تثريب عليه ولا لوم . . . وهلم ننقذ المنادى إن كان لا يزال به رمق ، فلقد كان يعني بي إذ أنا صبي في المهد ! » وكان المنادى قد فرع مما رأى ، وخبأ نفسه تحت مقعد كبير ، ثم طرح عليه جلد ثور ، فلما سمع تلياك يقول لأبيه هذا القول ، برز من مكانه ، وتعلق برجلي تلياك ، وأنشأ يتوسل ويتضرع ، وينكي ويتصدع فقال له أوديسيوس : لا تجزع أيها الرجل ، فلقد أنقذك ولدي كما أنقذ المنشد . . . اذهباً فانتظرا في الرحبة ، فعندى ما سيشغلني عنكما الآن . . . وانطلق الرجلان وهما لا يصدقان أنها نجوا ، وجلسا عند المذبح ينتظران قتلها في كل لحظة . . . ثم مضى أوديسيوس يبحث في البهو وتحت المناضد عن يكون به رمق من الحياة فيجهز عليه ، بيد أنهم خرجوا جميعاً مضرجين بدمائهم في التراب ، وقد تككبوا فوق بعضهم كالسمك فوق الساحل يقذف به الصياد في يوم صائف . . . ثم قال لابنه أن يدعو الموضع العجوز يوريكليا ، فأقبلت ورأت أوديسيوس واقفاً كالمارد بين القتلى وقد لطخت الدماء يديه ورجليه وصدره ، فكادت

(١) يستأصلونهم

المرأة تجن من الفرح لهذا النصر المبين الحاسم ، وأوشكت أن تصيح وتزغرد ، لولا أن ردعها أوديسيوس عن ذلك : أيتها المرضع العجوز اكتمى فرحتك ، فإنه ينبغي ألا تكون شماعة فوق جثث القتلى ، وألا يكون صياح ، لأنها إرادة السماء قد نفذت فيهم بما أسرفوا من قبل وكانوا من المفسدين ! ثم أمر بالجلث أن تحمل خارج القصر . وبالدماء أن تغسل ، فتم ذلك في أقصر وقت ، والتفت إلى المرضع يحدثها ويقول : « رأيت ؟ اذهبي الآن فأحضري ناراً وكبريتاً كيما نطهر الحجرة ، ثم أخبري بنلوب أن تلقاني ههنا ! » فقالت العجوز « سمعاً وطاعة لك يا بني ! سأفعل ما أمرت ، ولكنني سأحضر لك ثوباً تلبسه قبل كل شيء فإنه لا ينبغي أن تظل واقفاً هكذا في أسماك هذه » بيد أن أوديسيوس أمرها أن تفعل ما أخبرها من فورها ، فانطلقت العجوز ، وعادت بالنار والكبريت ، وأخذ أوديسيوس في تطهير البهو الكبير .

بنلوب... وأخيرا... بنلوب

وهرولت الموضع العجوز فصعدت إلى الطابق العلوى ، حيث كانت سيدتها المحزونة تتقلب على فراش الهموم والأحزان فهتفت بها وهى تضحك ، وتكاد تجن من الفرح : « هلمى يابنتى فاشهدى بعينيك كيف حققت الآلهة أحلامك واستجابت لصلواتك . . . هلمى . . . لقد عاد أوديسيوس وبطش البطشة الكبرى بأعدائه فقتلهم عن بكرة أبيهم بعد ما كان من خباياهم ، وبعد ما استباحوا من حرماته وما أراغوا من خيره وهزئوا بولده . . . إنهضى ! » .

ولم تصدقها بنلوب ، وقالت مستهزئة بها : « لشد ما عدوت طورك وغبت عن صوابك أيتها الموضع العزيزة حين توقظينى بمثل هذا العبث وذاك الحديث الملقق القدر حرمتى من غفوة يالها من غفوة لم تكتحل بها عيناى بأهدأ منها ولا أروح منذ أن فارقنا أوديسيوس إلى الأرض المشومة... تالله لو حصل مثل هذا ممن هن دونك سنأ ومترلة من الخدم لكان لى معهن شأن آخر... ولكن . . . لا عليك يا يوريكليا فتبسمت الموضع ثم قالت : « وى ! تالله إنه للحق ، ولا مربة فيما أقول إنه هو الشحاذ الفقير الذى كلمك والذى عبث به القوم وقد كان يعرف تليماك كل ذلك ، ولكنه جعله سرا بينه وبين أبيه حتى يثار من الأمراء ويستأصل شأقتهم ! » فوثبت بنلوب من سريرها مسبوهة ^(١) ذاهلة ، وطوقت بذراعيها عنق يوريكليا ، وأنشأت تقول : « خبرينى بالله عليك أيتها العزيزة . . . خبرينى بالله عليك . . . إذا كان ما تقولين حقاً فأنى لأوديسيوس أن يلتقى وحده كل هؤلاء ؟ وأنى لواحد أن يهزم فيلقاً من مائة أو يزيدون ؟ » فقالت الموضع : « لعمرك مارأيت كيف حدث هذا الأمر ، ولكنى سمعت بأذنى هاتين أنين القتلى . . . لقد كنا

(١) مندهشة

جميعاً جالسات داخل القصر ، وفرائصنا ترتعد من الفرق (١) ، وكانت النوافذ كلها مغلقة بأمر سيدي ، حتى أقبل تليماك فدعانا إلى البهو ، حيث رأينا أوديسيوس واقفاً بين الرمم ، وهو الآن يطهر البهو من أدرانهم بالنار والكبريت ، والمدفأ يتأجج بلظى كالجحيم ، ولقد أرسلني لأدعوك إليه حتى يفرح بك ، ويطمئن قلبك ، بعد طول العذاب » وكانت العجوز تتكلم وهي ما تنقطع عن الضحك والمرح ، فقالت لها بنلوب : « أيتها الموضع العزيزة لا يقتلك الفرح والصخب . . . تالله إنه لن يفرح بأوديسيوس اليوم أحد كما أفرح به أنا وولدي تليماك . . . هذا إن كان ما قلت حقاً . . . على أنني لا أصدق . . . لاجرم إنه إله كريم أقبل ليتنقم لنا من هؤلاء العرايب جزاء ما أنزلوا بنا من هوان فأبادهم جميعاً . . . أما أوديسيوس فلا ! لقد قضى أوديسيوس وقضى أوديسيوس إلى الأبد ! فقالت يوريكليا : « ألا تزالين غير مصدقة يا طفلي (١) العزيزة ؟ ألا فاسمعي ! هاك دليلاً آخر ؛ بينما كنت أغسل قدمي الرجل الفقير اللاجئ تحسست يداي ندبةً في ساقه ذكرتني بالندوب التي أحدثها الخنزير البري في ساق سيدي أوديسيوس ، فلما كشفت عنها تبينتها ، وتأكدت أنه هو ، وأردت أن أصبح بك لأخبرك ، وأزف إليك البشرى . لكنه أطبق يده على فمي فلم أستطع أن أنبس . . . تعالى ! هلمى معي الآن وانظري بعينيك لترى إن كنت كاذبة ، تعالى جُعِلت فداك ! » وانطلقتا معاً ، وأطافت الذكريات برأس بنلوب ، ولم تدر ماذا عساها فاعلة إذا كان ما أنبأت به الموضع حقاً . . . فلما دخلتا البهو جلست بنلوب على مقعد كبير قريب من المدفأة ، ثم طفقت تُحدِّقُ بصرها في أوديسيوس ، وكان جالساً وظهره إلى عمود من عماد البهو ، وعيناه تبحثان في الأرض ، وكأنه كان ينتظر أن تتكلم بنلوب قبل أن يفوه هو بكلمة . . . بيد أنها لم تنبس ، بل كانت ذاهلة شاردة ، تنظر إليه بمرّة فتوشك أن تعرف فيه بعلمها الحبيب ولكنها كانت إذا نظرت إلى مِرْزقه

وخرقه ، والأثمان التي لا تستر بعض جسمه الهائلة عجبت ، وتولاها الدهش ، وانعقد لسانها فما يكاد يبين .

وقال تليماك آخر الأمر : « أماه ! لشد ما تحجّر قلبك وغلظت كبذك ! لم لا تنهضين فتعانقني أبي ! ! أية زوجة ينحبس لسانها كما انحبس لسانك ، فما تكلم زوجها الذي آب من سفر سنين كلها أشجان وكلها أحزان ، وكلها آلام متصلة ومتاعب تنوء بحملها الجبال ! » فقالت أمه تجيبه : « تالله يابني لقد ذهلت عن نفسي وإني لفي تيهٍ فما أكاد أبين . . . ولكن إذا كان حقاً أوديسيوس ، فإن لنا علامات هي سر ذات بيننا ، ولا يعرفها أحد سوانا » فتبسم أوديسيوس وقال : « لاعليك يابني ! دعها فستستبين حقيقتي حين أخلع هذه الأسمال » ثم انتحى وولده ناحية ، وأسر إليه أنهما ينبغي أن يتهايا لما عسى أن يكون من تألب الإيثاكيين عليهما وشغبهم لما كان من قتل ساداتهم ، وما يتوقع من قيامهم بثورة عامة لا تبقى ولا تدر للانتقام من القتال . . . وذكر أوديسيوس أنهما يجب أن يقيما في البهو فيأخذا في مثل ما كان العشاق يأخذون فيه من قصف وعبث وبجاجة . . .

وحسب المارة أن بنلوب قد اختارت بعلمها من بين الأمراء . . . « فهي لم تعد تطيق الوحدة ، ولا تحتمل الترمّل ، ولا تقوى على حياة الآمال الكواذب التي تجرعت غصصها مدى عشرين عاماً » أما أوديسيوس فقد مضى فاستحم وتضمخ بأحسن الطيوب ، وأضفى عليه من كل سابريّ وَّفوف^(١) موشى ، ثم تنزلت مینرقا فتفخت فيه من روح الشباب ، وسكبت في عروقه من دماء الفتوة ، ومسحت بيديها الكريميتين على وجهه المجمع ذى الأسارير ، فأشرق وتألّق ، وهذلت شعره على كتفيه غدائر فاحمة كقطع من الليل البهيم . ثم إنه انطلق إلى البهو فجلس تلقاء بنلوب وأنشأ يقول : أيتها الزوجة المعجبة ! أما والله لقد ركبت الآلهة بين جنبيك

(١) السابري الثوب الرقيق الجيد - والفوف مثله

قلباً ليس كقلوب النساء . . . وأى امرأة تتبذ من زوجها مكاناً قصياً كما تتبذين يا بنلوب . . . بعد إذ عاد إليك من تجوال عشرين سنة كلهن قلاقل وأهوال . . . يوريكليا ! هلمى فامهدى لى فراشاً بيديك الضعيفتين ، ما دام الحديد البارد الذى خلق منه قلبها لا يلين ! « ومع كل هذا فقد كان الريب يرين على فؤاد بنلوب ، فقالت تختبره : « مولاي ! إني وأيم الحق لا معجبة ولا بى خيلاء ، ولكنى أذكر أحسن الذكر كيف كنت يوم همت بك سفيتك الجبارة إلى طروادة . . . يوريكليا ! إذهبي أيتها المرضع فأحضري سرير زواجنا من المخدع ، واجعلي عليه الوسائد والحُسانات ^(١) ليستريح عليه مولاك كما أمرك » وعجب أوديسيوس لما تكلمت به زوجته . فقال : « إنك يا زوجتى تمزقين نياط قلبي بما تقولين ! أنى لأحد ما من العالمين أن يحرك سريري بله أن يحمله ، إن لم تكونى قد أطلعت على سره ؟ لقد صنعت مخدعى واتخذت سريرى فى جذع الزيتون الهائلة . . . فهل لا يزال سريرى فى موضعه ثمت ، أم أن أحداً قطع الجذع العتيد واحتمل السرير إلى مكان بعيد ؟ » وهنا ، مادت الدنيا برأس بنلوب ، وتأكدت أن الرجل زوجها من غير شك ، فخفق قلبها خفقاناً شديداً ، وانطلقت تعدو نحوه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها ، وراحت تبكى وتنتحب ، وتقول له : « لا تنقم علىّ إذاً يا أوديسيوس ، ولا يحزنك أننى لم أعرفك منذ أول نظرة . . . أواه أيها العزيز ! لقد قضت الآلهة أن نفرق وأن نتعذب كل هذه السنين ، وما كان من شكى فهو أثر من احتراسى خشية أن يخدعنى أحد فيدعى أنه أنت ، أو يزخرف على ويهرج حتى ينالنى بالخداع والحب . . . ولكن ما دمت ذكرت لى سر المخدع والسرير والزيتونة ، وهو ما لا يعلمه أحد غيرى وغيرك وغير يوريكليا . فالآن فاهناً ولأهناً أنا ، وليطمئن قلبي . . . قلبي الوفى الذى أُرده إليك كآخر عهدك به ، لا ينطوى إلا على حبك ولا يضمّر غير الوفاء لك . . . »

(١) الحانة الوسادة الصغيرة .

وعانقها أوديسيوس . . . وضم إلى صدره صدرها . . . والتف حول عنقه ذراعاها البضتان البيضاءوان - وجمد عاجها الناعم الأملس حول كاهله ، ووقف أوديسيوس على شاطئ الذكري كما يقف السباح المتعب المنهوك على شاطئ اليم وقد بلغه بعد جهد ، فأعضاؤه مترخية ، وأعصابه موهونة ، وقلبه خفق ، وروحه نشوى وذراعه مع ذلك معلقتان بالشاطئ وقد سمّرتا فيه . . . وقال بعد لأى : « والله يازوجتى العزيزة إنا ما بلغنا بعدُ نهاية أشجاننا وأحزاننا ، وإن أماننا لأمدأ بعيداً وهو مأخر تنبأ لى عنها الكاهن تيريزياس حينما رحلت إليه فى هيدز ، وإنى لا أدرى ماذا يكون من أمرى . . . ولكن . . . لا . . . لننطلق الآن إلى مخدعنا العزيز الطاهر فإن لى حاجة إلى الراحة والاستجمام . . . »

فقال بنلوب : « المخدع الطاهر النقى معد فى أيما لحظة أردت ياأوديسيوسى العزيز . . . بيد أنك أثرت شجنى وفزعت شجوى بما ذكرت عما يترىص بنا من هم جديد ، فهلا ذكرت لى ماذا زعم لك تيريزياس فى العالم الآخر ؟ إنى مشوقة إلى ما قال ، فأذكره بحق الآلهة عليك » فأجاب أوديسيوس « عمرك الله لم تسألين عن أمر إن بيد لك يسؤك ؟ ! ولكن لا ضير . . . سأذكر لك ما نبأنى به تيريزياس » ثم وجم قليلا وقال : « لقد أشار أن أحمل مجدافا عظما على كاهلى ، ثم أنطلق مهاجراً إلى ممالك نائية وأصقاع سحيقة ، حتى أكون فى قوم لم يسمعو عن البحر قط ، ولم يروا فى حياتهم مجدافاً ولا سارية ، فإذا لقيت أول من يسألنى عما أحمل ، وهل هو مذرة مما ينسف به القمح ، غرست المجداف فى الأرض ، ثم تقربت إلى إله البحار نبتيون الجبار بقرايين تمحو ما بينى وبينه . وتعتقد بيننا أواصر السلام والوثام ، كما تقربنى إلى أعوانه الآخرين من آلهة الماء ، فإذا فعلت استرحت من لأواء الحياة ، ونأت عنى أرزاؤها ، وعدت إلى شعبي وإليك ، وإلى ولدى وقصرى فعشت بينكم بسلام ، حتى يأتينى الموت ، هادم اللذات ، من أعماق البحر ؛ ولكنه سيكون موتاً طيباً لا مخوفاً ولا

مرهوباً ، بل سكرة بين أمنة ونعاس . بعد إذ الجسم موهون ، والقلب فارغ ، والرأس مشتعل والروح سالية قالية .

وهكذا ظل الحبيبان المشوقان يتحدثان قطعاً من الليل ، بينما كانت الموضع وخادمة أخرى تمهدان الفراش على ضوء المشاعل . . . ثم أقبلت الوصيصة فذهبت تمشي بين أيديها إلى المخدع ، وفي يديها المشعل المقدس يفيض نوراً ولألاء كما أفاض منذ عشرين سنة . . .

ولفهما ظلام الليل ، وسبث الهوى . . . وسكن البهو بعد ماضج بالعزف والقصف ، وهذا القصر في سدول السعادة .

٢٤٤

أوديسيوس يصل إلى إيثاكا

وهنا، هرمز بأرواح القتلى فهممت ، ثم أشار إليها بعصاه فسحر الكرى مقلها ، ثم أشار كرة أخرى فأهرعت في إثره كما تهرع الخفافيش في إثر دليلها

وانطلق حبيب الآلهة فعبر عباب البحر المحيط ، وعبرت الأرواح الهائمة في إثره ، وجاز صخرة لوكيديا ، وبوابة الشمس الخالدة ، ثم انطلق والأرواح الهائمة من خلفه ، في تيه الأحلام ، وعبر بها في مروج آسفوديل ذات الأشباح ، حيث لقي القتلى أرواح ذويهم وأبطالهم من رجال هيلاس الذين سقطوا تحت أسوار طروادة . . . وهناك . . . وقفوا طويلا يتناجون ، وكلم ابن بليوس قائد الهيلانيين أجامنون ورثى له ، فكلمه أجامنون وتحسر عليه ، ورأوا روح بتروكلوس حبيب أخيل زعيم الميرميدون ، وروح أخيل نفسه ، وروح أجاكس^(١) العظيم . . . وعرف أجامنون روح أمفيدويون العاشق المحروب الذي قتله أوديسيوس فيمن قتل من عشاق بنلوب ، فكلمه ، وكلمه أمفيديون فقص عليه ما كان من مأساتهم الغرامية وما كان من أوبة أوديسيوس المفاجئة واختلاطه بهم في صورة فقير شحاذ . . . إلى آخر القصة الدامية المشجية التي انتهت بقتلهم جميعاً . . . وما كاد يفرغ حتى بدا العجب في محيا القائد أجامنون ، وطفق يثنى على وفاء بنلوب ، وشجاعة صديقه أوديسيوس ، ثم راح ينعى على زوجته الآثمة كليتمنسترا ما كان من غدرها ، وتدبير غيلته مع حبيبها الفاسق إيجستوس . . .

وهكذا انتهت الأشباح الآثمة إلى ظلمات هيدز . . . إلى مملكة

(١) هو اياس أيضا .

بلوتو . . . حيث تلقى جزاءها العادل من مخالب سيربيروس الحادة وأظفاره القواطع .

هذا ما كان من أمر تلك الفئة الباغية .

أما ما كان من أمر أوديسيوس فقد استيقظ في بكرة اليوم التالى ، واستيقظت معه بنلوب السعيدة ، وهب من فراشه فارتدى ملابسه . ووضع عليه سلاحه . ثم أمر زوجه ألا تخاطب من الناس إنسياً حتى يعود . وأن تغلق عليها أبواب القصر ، لأنه منطلق إلى أبيه ليزف إليه البشرى بنفسه . ودعا إليه تلياخوس ليصحبه ، وليصحبه الراعيان المخلصان الوفيان ، وبعد إذ يسبغ كل منهما عليه دروعه ، ويستعد بسلاحه .

وانطلق الأربعة يطوون شوارع المدينة التى خيم عليها الصمت دون أن يشعر بهم أحد من أهلها ، حتى بلغوا الخلاء ، ومازالو يذرعونهم حتى كانوا عند المزرعة المصون الناضرة ، وهناك ، نظر أوديسيوس بعينين مشوقتين ، وقلب ملتان خفيق ، إلى البيت الصغير الذى يؤوى أباه الضعيف الشيخ ، حيث يقضى أيامه فى أسى ليس بعده أسى ، وينجتر همومه فى صمت كصمت الموتى ، ويذرف دموعه فى قنوط وسكون . . . لا يراه أحد ، ولا يشكو بثه إلى مخلوق ، إلا هذه المرأة العجوز الحيزبون التى تتخدمه فى رضى ، وتسهر عليه فى حب له ، وإشفاق من أجله . . . وكان ليرتس ، الأب الحزون ، يتلهى بالعمل فى بستان قريب يشذب شجيراته ، ويهذب زهيراته ، فأمر أوديسيوس ولده وراعيه أن يبقوا فى المنزل ليعدوا غداء فاخراً ، وشواء سمينا ، لأنه يجب أن يلتقى أباه فى البستان وحده . . .

وانطلق أوديسيوس إلى البستان ، فوجد الفلاحين قد انصرفوا إلى أعمالهم ، ووجد أباه يجوس خلال الأشجار كالشبح ، ويهوى بفأسه فيحتفر حولن ، وهو بين الفينة والفينة يصلح من لباسه الخشن الذى اتخذته من جلد عنز ، كما اتخذته قفازيه وجورييه . . . ووقف أوديسيوس تحت كمثرأة باسقة وطفق ينظر إليه ، ويقلب فى السنين الطوال التى يرزح تحتها

عينه ثم يتعجب للقلب الكبير الذى صمد لحدثان الزمان ولأواء الأيام فلم ينصدع ولم يهن . وإن كان بعض حزنه لتنوء به الجبال .

وانبجس الدمع من عيني أوديسيوس ، وانهمر على خديه الحزينين ، وأوشك أن يمضى نحو أبيه فيأخذه فى حضنه ، ويفجأه بالبشرى القاتلة لولا خيفته على تلك الشيخوخة المتداعية أن تنقض حين لا تحتمل النبأ العظيم . . . نبأ عودة قطعة القلب والكبد بعد يأس دام عشرين عاماً . . . لهذا أثر أوديسيوس ألا يفعل ، وأثر أن يلقي أباه كرجل غريب جَوَّاب آفاق ، ويحدثه ، ليعلم ما فى قلبه ، فذهب إليه ، ووقف عن كُتب يكلمه :

- « أيها الشيخ : ويكأنك لا علم لك بأمور هذا الزرع ، وإن أثمر بستانك وآتى أكله ! حقاً ، إني لا أرى عشباً فى الأرض . ولا شجرة إلا وهى مثمرة ، ولا زهرة إلا وهى مسفرة نامية ، وماذاك إلا لسهرك عليها . . . بيد أنه لن يسوءك إن لا حظت أنك تُعنى بهذا البستان أكثر مما تعنى بنفسك ، مع ما أنت فيه من تقادم السن ولفحة الشمس ووطأة المرض . . . وما أحسب مولاك إلا قاسى القلب عليك ، قليل الاحتفاء بك والتوجع من أجلك ، مع مالك من سيماء النبل ، ومظاهر الملوك ؛ فما كان أحجى بك - وأنت فى هذه السن - أن تستحم وتتضمخ وتنام ملء عينيك ، لا يزعجك عمل ، ولا تثودك أكلاف الحياة ! ولكن قل لى بالله عليك أيها الشيخ ، لمن تَنْصَب كل هذا النصب ، وبستان من هذا ؟ خبرنى ! لا تخف على أيها الأب ، فلقد لقيت من سألته فلم يأبه بى ولم يُعَنِّ بمسألتى... ولقد ذرعت الرحب حتى وصلت إلى هذه الأرض ايثاكا لأنى كنت أقدم فيما مضى من الزمان فأحل ضيفاً على أمير عزيز فيها ، وما أعرف إن كان لا يزال حياً يرزق أو مضى لا قدر الله إلى هيدز ! ولقد كان هذا الصديق يزورنى فى وطنى فأكرم مثواه ، ولقد كان يحدثنى الأحاديث عن أبيه ليرتس ابن آزر يراس . . . وما أنس لا أنس أيام كان يحمل إلى الهدايا

فأردها إليه أضعافاً مضاعفة ، فمن ذاك أننى نفحته مرة بسبع يدّر من خالص الذهب ، وبحالة من فضة مزدانة بأفواف الزهر ، واثني عشر صداراً واثني عشر دثاراً ، ومثلهن من أكرم البسط ، وشيء كثير من ثياب القاقم والسنباب ، ثم أهديت إليه أربع جوار كنس أبكار اختارهن بنفسه ، مثقفات مهذبات ، يتخيلن في الخز ، ويرفلن في الديباج .

وازدحمت الدموع الحرار بكل الذكريات المشجيه في عيني الرجل الشيخ ، وقال يجيب أوديسيوس : « أيها الأخ لقد بلغت منك ، فهذه هي إيثاكا . . . بيد أنها - وأأسفاه ! - نهب مقسم بين فئة باغية ظالمة لاتخضع لقانون ولا تعرف شريعة . . . أما صديقك فوا أسنى عليه . . . ويألف أسى على هداياك ! من لك به اليوم ليردها عليك أضعافاً مضاعفة يصاح ! ولكن قل لي بربك واصدقني : منذ كم سنة لقيت صديقك التعس ، الذى هو ابني ؟ [إليه] . . . ! له الله ! ما أحسب إلا أن السمك قد اغتذى به ، أو أنه غدا يوماً جزر السباع وكل نسرقشعم ! أو اه عليك يا أوديسيوس يا ولدى ! هكذا قضيت ولم أذرف على ثراك عبرة ، ولم تكتحل عينا أمك قبل أن تموت برؤياك . . . ولا بنلوب ! ولا بنلوب أيضاً كانت إلى جانبك لتغمض بيدها أجفانك . . . ولكن . . . ولكن قل لي أيها الأخ من أنت ، ومن أى البلاد قدمت ؟ وابن من من الكرام الأكابر ؟ وفي أى الرفاق وصلت إلى إيثاكا وفي أى السفائن ؟ أم وصلت بك إحدى الجوارى المنشئات ثم غادرتك في إيثاكا ؟ » .

وقال أوديسيوس وهو يلفق ما يقول : « أما من أنا . . . [إف] . . . أنا إيريتوس بن أفيداس بن يولييمون من أمراء ألياس ، من أعمال صقلية ، ولقد هبت على سفيتى عاصفة هوجاء فدفعتنا نحو بلادكم وألقينا المراسى في مينائكم . . . ولقد لقيت أوديسيوس لآخر مرة منذ خمس سنوات ، وقد افترقنا وكلنا أمل أن نلتقى لتبادل تذكارات المحبة وهدايا الصداقة والوفاء والود » .

وانعقدت سحابة مظلمة من مرارة الحزن فحجبت الضوء عن عيني ليرتس ؛ ثم إنه أهوى إلى الأرض فقبض قبضات من التراب وراح يحثوها على رأسه ، ويئن أنينا مؤلماً . ولم يحتمل أوديسيوس أن يرى أباه في هذه الحال ، بل كاد صدره ينشق من حسرة عليه ، فهورول وأخذه ملء ذراعيه وجعل يضمه إلى صدره ويقبله ويقول : « أبناه ! أبناه ! هو أنا ذا ! أنا أوديسيوس عدت إليك بعد عشرين عاما فافرح وهدئ روعك ، ولنتته آلامك ، وإليك أحسن البشريات ! لقد قتلت أعدائي العشاق جميعا . قتلهم في بيتي ، وانتقمت لك ولى ولبنلوب ! » .

بيد أن ليرتس وقف ذاهلا عن نفسه ، ثم نظر إلى ولده وقال : « إن كنت حقاً ولدى أوديسيوس ، فهات برهانتك الذى يقطع شكى ! » فقال أوديسيوس : « ألا تصدق ! إذن فانظر إلى الندوب الخالدة التى أحدثها فى ساقى خنزير الفلاة إذ أنا حدثت يا أبى ! ألا تذكر يوم كنا على جبل برناسوس ، وكان جدى أوتوليوكوس معنا ثمة ، وكان يتحفنى بالهدايا واللقى ؟ وهالك دليلا آخر يوم مشيت معك فى هذه الحديقة ورجوتك أن تجعل بعض هذه الأشجار باسمى ، فمشيت معك ، ورحت أنت تسميها لى بأسمائها ، فجعلت لى ثلاث عشرة كمثرا ، وعشر تفاحات ، وثلاثين تينة ، وخمسين صفا من الكروم الناضرة التى كان يزرع القمح بين عرائشها والتى كانت تتدلى منها العناقيد من كل لون ! »

وانجباب الشك عن فؤاد ليرتس ، فأخذ ولده بين ذراعيه المرتجفتين وراح يضمه ويقبله ، ويصعد فى صدره الرحب القوى أنفاسه ، حتى إذا وهنت قواه أرسله ، وأخذ يحدثه فيقول . « يا للآلهة ! يا أرباب السموات الخالدة فى شعاف الأولب ! أهكذا قضيت آخر الأمر أن ينصب جام غضبك وحُمم نقيمتك على هؤلاء الكفرة الفجرة ! ولكن لشد ما أخشى أن يتألب الجمهور علينا ، فيهرعوا إلى هنا ، ويطلبوا ثار ذوبهم ..

فتبسم أوديسيوس وقال له يطمئنه : « لاعليك يا أبى . . . هلم الآن

فلنذهب إلى بيتك الجميل ، فلقد أرسلت تليماك ثمة ومعه الراعى ،
يومايوس الوفى ، ليعدوا لنا طعاماً سريعاً خفيفاً .

وأعد الطعام ، ومزجت الخمر ، وذهب الخادم العجوز فأعدت حَمَماً
لسيدها الشيخ ، ثم ضمخته وأضفت عليه ملابس نظيفة . . . وتنزلت
مينرثا الكريمة فحشت يديها الإلهيتين على جسم ليرتيس فتدفق الشباب فى
عروقه ، وعاد إليه رُؤاؤه وحسن سمته ، فلما خرج من الحمام تعجب
أوديسيوس وقال له . « تالله ياأبت إني لا أشك فى أن بعض الآلهة قدرد
إليك صباحك . وخلع عليك بُرْدَة الشباب من جديد ! ! »

ولم يكن عجب ليرتيس بأقل من عجب ولده . . . « تعاليت
ياجوف ! وتقدست يامينرثا ! وسما جددك يا أبوللو ! لقد كسوتمنى نصرة
الشباب التى كانت لى يوم ملكت مدينة نريكوس بمعونة السيفالين
الشجعان ! أواه لو قُدِّر لى أن أقف إلى جنبك أمس يابنى ، ليكون لى
شرف بجالدة الأوغاد الذين قتلت ، إذن ، لحظيت بكوكبة منهم أضرج
أديم الأرض بدمائها ، فاشفى منهم حرّداً فى صدرى ، وغِلاّفى
حشاشتى ! » .

وأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ، ثم جلسوا على الأرائك متقابلين . . .
وكانت الخادم العجوز قد انطلقت إلى المزارع فدعت كبير الفلاحين
دوليوس ، فأقبل فى رجاله الذين كدهم العمل وأنهكتهم المثابرة . . . فلما
رأوا ما ارتد إلى سيدهم من شبابه ، وهذا الرجل الغريب الذى يجلس بين
العائلة المقدسة ، وقفوا مسبهين مشدوهين ، لا يعرفون ماذا يقولون . . .
وحدهم أوديسيوس ، ثم بدأ يكلمهم فى لطف وخبث ويقول :
« اجلس أيها العجوز دوليوس فكل أنت ورجالك . . . فليس ثمة متسع
لدهش أو عجب . . . اجلس قبل كل شئ فاملاً بطنك وبطن
رجالك . . . لقد انتظرناكم طويلا ، لكنكم استأنيتم ! » ولكن سرعان ما
عرف دوليوس مولاة حين سمع صوته ، فأقبل عليه ، وتناول يديه ، وطفق

يغمرهما بالقبل الباكية ويقول : « أوه يامولاي ! هكذا والله تستجيب السماء ! لقد طالما جأرنا ولقد طالما دعونا فلها الثناء إذردتلك إلينا ! فعش واسلم وسرّ وابتهج . . . ولكن . . . هل علمت الملكة بقدم مولاي ؟ ألا ننطلق من فورنا فنزف إليها البشرى ؟ »

وطمأنه أوديسيوس ، فجلس الرجل مبتهجا مسرورا . وجلس أبناؤه معه ، وأخذوا في أكلهم وشرابهم ، وأخذ أوديسيوس يلاطفهم ويداعبهم . . . وهكذا عاد الحبور مرة أخرى إلى بيت ليرتيس !

* * *

وقرع آذان الناس في المدينة ما كان من قدوم أوديسيوس . وما حاق بالأمرء المعاميد من نكبة على يديه الجبارتين ، فأهرعت جموعهم إلى قصره صاخبة ناعبة ، ثم انطلقوا إلى حيث كدست أجساد القتلى فحرق كل قتيله ، وأرسلت جثث الغرباء إلى ذوبهم في أوطانهم في سفن الصيادين من كل فج لئلا تحرق ثمة . . . واجتمعوا بعد ليتشاورا بينهم فيما ينبغي أن يكون . . . فهض يوبيتيس والأسى يزلزل جوانحه وأنشأ يقول : « أيها الرفاق ! لقد كان هذا الرجل الطاغية حرباً دائمة عليكم فلم يصبكم منه إلا الشر ، ولم تثمر لكم فعاله إلا الندامة ! فلقد ساق شبابكم وخيرة أبطالكم إلى طروادة المشثومة حيث قتلوا أجمعين ، وها هو ذا ينقلب اليكم اليوم ليذبح ساداتكم وذوى الصولة فيكم . . . فهللوا إذا ورؤا رأيكم فيه قبل أن ينطلق إلى بيلوس فيطلب العون عليكم ، وتصبحوا على ما قصرتم نادمين ! إنا إن لم نثار لضحايانا فأى عار يسمنا وأى خزي يصمنا يا قوم وأية حياة هذه التي تحيونها بعد ما حل بكم من هوان ومذلة . . . لخير لكم أن تذبحوا أنفسكم فترحلوا إلى هيدز مع أرواح قتلاكم ولن تكونوا على ذلك من الآسفين ! » ثم جلس وهو يتصدع من الحزن على صاحبه أنتينوس الذى كان أول ضحايا أوديسيوس . . . وقام ميدون المنشد التعس فقال : « أيها المواطنون أعيرونى آذنكم ! تالله إن أوديسيوس

لم يرم سهامه إذ رمى ، ولكن بعض الآلهة كان يرسم له وينافح عنه ، ولقد رأيته بعينى هاتين في صورة منظور ، ووالله ما هو منظور ، ووالله لقد كان يمشى بين يديه ههنا وههنا فيراع العشاق وتفزع قلوبهم ويسقط بعضهم فوق بعض فتأخذهم أسهام أوديسيوس ويروى من دمائهم سيفه ! » وما كاد يفرغ ميدون ، وكان فيهم أميناً صادقا ، حتى طارت ألوانهم وامتفعت وجوههم ونظر بعضهم إلى بعض ، وادّارأوا ^(١) طويلا ، ثم وقف هاليتير بطلهم القديم بن مسطور ، وكانت له دراية بكشف أستار الماضي والحاضر والمستقبل ، فصعّر ^(٢) خذه وقال : « أيها الإخوان ! يا أبناء إيثاكا إسمعوا وعوا ؟ تالله لقد طالما مهدتم للفتنة ، وإنها لثمرة أنتم غارسوا شجرتها وأنتم اليوم جنّائها . . . أتذكرون يوم رجوتكم فألحفت عليكم في الرجاء أنا وصاحبى ميدون هذا ، أن نذهب فنمنع القصر من شبابكم ، ونصون عرض أوديسيوس من أبنائكم ، ونصرفهم عن ولده وزوجته ومتاع هذه الحياة الدنيا ، فأيتّم أكبر الإبياء ، ورفضتم أقبح الرقص ، وجعلتموها فتنة كنت أستعيد بالآلهة منها ؟ ! فعلام تغلى مراجل صدوركم يا قوم ؟ وفيم ائتمركم بالرجل وقد ثار لعرضه ؟ ألا فاسمعوها كلمة مخلصه أسدتها إليكم . . . الرأى ألا تذهبوا ، وألا تجعلوها فتنة لاتصين الذين ظلموا منكم خاصة ، بل اقعّدوا ههنا آمينين ، ولا تكونوا كالذى سعى إلى حتفه بظلفه ، وأبطأت عليه المنايا فسعى قُدماً إليها ! » وما فرغ حتى زجر القوم وتصايحوا به ، وضجوا من كل مكان . . . ثم إنهم سمعوا إلى شيطان يوبيتيس ففزعوا إلى أسلحتهم ، وأسبغوا عليهم من دروعهم ، وانطلقوا إلى المدينة فنظموا فيها صفوفهم وأقاموا يوبيتيس قائداً منحوساً عليهم ، وما جعلوه كذلك إلا ليلقى حتفه بيد أوديسيوس ، وتعجل روحه إلى النار ! ومضت ميزقرا إلى سيد الأولب جوف الجلى فوقفت ببابه تقول .

« أبتاه ! أبْنُ عن سريرتك ، واكشف عن مكتوم قلبك ومكنون نفسك ! هل يحل على هذه الفئة الظالمة غضبك ، أم أنك مانحها محبتك ،

(١) تدافعوا واختلفوا . (٢) أمال خذه من الكبير .

ومحصنها بجمايتك ؟ » فتبسم من قولها وأنشأ يجيبه : « وفيه هذا التساؤل يا ابنتي ! ألم تقدرى أنت أن يعود أوديسيوس إلى وطنه فيذبح بيديه أولئك العتاة الطغاة ، ويريح وجه الأرض من خبائثهم ؟ ليكن ما تشائين ! إصنعى ما بدا لك . . . ولكن نصحى أحضك إياه ياميزقا ! مادام أوديسيوس قد ثار لنفسه من أعدائه ، فليكن السلام على الأرض ، وليحل الأمان في ربوعها ، وليتقاسم الملاء على الود والصفاء ، وليحكم أوديسيوس بين الناس بالعدل . . . وعلينا نحن أن نترع ما في صدورهم من غل فينسوا سخائمهم ، ويطرحوا ثاراتهم ، ثم لتكن لهم من أنفسهم أمانة ، ولتجر البركات عليهم أجمعين ، وليصبخوا بحولنا أصفياء متحايين » وزفت ميزقا من السموات العلى إلى إيثاكا .

وفرغ أصحاب أوديسيوس من أكلهم فامرهم أن يتحسسوا آثار القوم ، فانطلق أحد أبناء دوليوس إلى المدينة فرأى من استعداد أهلها ما رأى ، وجاء إلى مولاة على عجل فقال له : « مولاى ! لقد تسلح الإيثاكيون وهم موشكون أن يقدموا إليك ! » فنهض أوديسيوس فادّرع ، وادّرع أبوه وابنه وخادماه وأبناء دوليوس الستة ، وادّرع دوليوس كذلك ، وادّرع الفلاحون الآخرون ، وحمل كل سلاحه ، وبرزوا إلى الطريق وفي مقدمتهم أوديسيوس .

وبدت ميزقا في صورة منظور وفي طيلسانه ، نلما رآها أوديسيوس فرح واستبشر ، والتفت إلى تليماك فقال : « أى بنى عليك أنت أن تحميننا اليوم فقد عرفت ما خاض أبوك من معامع ، وسرى من يحارب خيراً من صاحبه اليوم ! » فقال تليماك يجيبه : « اطمئن يا أبى فسترى كيف يحمى العسلوج^(١) فرعه ، وكيف يشب الفرع على أصله ، تالله لن أفضحك فيما وكلت إلى يا أبى ، ولن يخيب رأى أهلى فى ! » وفرح الوالد بمقالة ابنه ، وشكر للآلهة وأثنى عليها .

(١) العسلوج الفرع الصغير .

واقتربت مينرفا من ليرتيس ، وهى لاتزال فى صورة منظور ، فقالت له : « أوه أيها الجد الوقور ! صل لمينرفا وابتهل ، وتوسل إلى جوف ، أن يمنحك القوة والجلد ، ثم اهجم بحربتك على يوبييتيس فروها من دمه ، فالسماء كلها معك » ولمسته بيدها فتدفق شبابه فى قلبه ، وكان جيش الأعداء قد اقترب منها فطار ليرتيس إليهم برمح وأقصد يوبييتيس بضربة فى صدره ، فخرج سنان الرمح يلمع من ظهره ، ورأى أوديسيوس ذلك فطار إلى الملبأبسلاحه ورماحه ، وانقض تليماك فى إثره ، وهجم الآخرون فى إثر تليماك ، ولم يطل القراع ، فقد فزع الأعداء واختلط نظامهم ، فولوا الأدبار ، ولكن هيهات ! لانجاة اليوم ، فلقد سد عليهم أوديسيوس ورفاقه الطرق ، وأخذوا عليهم المسالك ، فهم فى ضيق ، وهم ذاهلون !

وهتفت ابنة جوف العذاراء بأوديسيوس ورجاله تقول . « السلام عليكم أيها المحاربون ! السلام السلام ! قبل أن تجرى دماؤكم أنهارا ! ! »

ثم بدت مينرفا فى صورتها الإلهية المقدسة فارتعدت فرائص القوم ، وتخاذلوا فيما بينهم ، حتى أصحاب أوديسيوس ! لقد ارتجفت أعصابهم وعصف الذعر بسواعدهم ، وكادت سيوفهم ورماحهم تثتر على الأرض . . . ولم يعبأ أوديسيوس ، بل هجم كالنمر على القوم المنهزمين يود لو يصعقهم ، وطفق يبرق ويرعد ، ويزأر بصوته المدوى العظيم ، فغضب سيد الأولب ، وأرسل إحدى صواعقه نذيراً من لدنه إلى مينرفا ، فجعلت إليه ذات العينين الزبرجديتين ، وزجرته عن الناس وهى تقول . « لا يا أوديسيوس ! لا يا ابن ليرتس النبيل ، لا يجدر هذا بماضيك ! ضع حداً لهذه المجزرة المروعة أو تجلب غليك غضب جوف العلى ! » .

وخبت أوديسيوس ، وسرت مينرفا ، وعقد منظور الصلح بين الفريقين ، ودخل الناس فى السلم كافة . . . !

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٧
بين منيرفا وتلياك	٨
تلياك يجادل الخطاب	١٨
تلياك يسائل نسطور عن أبيه	٢٩
الخطاب يتآمرون	٤٠
أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليسو	٥٨
حفل أولمبي	٨٧
في أرض المردة (السيكلويس)	٩٩
أوديسيوس يروي قصته	١١٣
رحلة أوديسيوس إلى العالم الثاني	١٢٧
تمام قصة أوديسيوس	١٤٣
أوديسيوس يصل إلى إيثاكا	١٥٦
مع الراعي	١٦٩
عودة تلياك	١٨١
أوديسيوس يلتق تلياك	١٩١
أوديسيوس في قصره	١٩٨
أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ	٢٠٥
المرضع العجوز تعرف أوديسيوس	٢١٢
نذير من السماء	٢١٩
ومارميت إذ رميت	٢٢٤
الانتقام الهائل	٢٣٢
بنلوب..وأخيراً...بنلوب	٢٣٩
أوديسيوس يصل إلى إيثاكا	٢٤٥

مطبعة نزهة مصر

